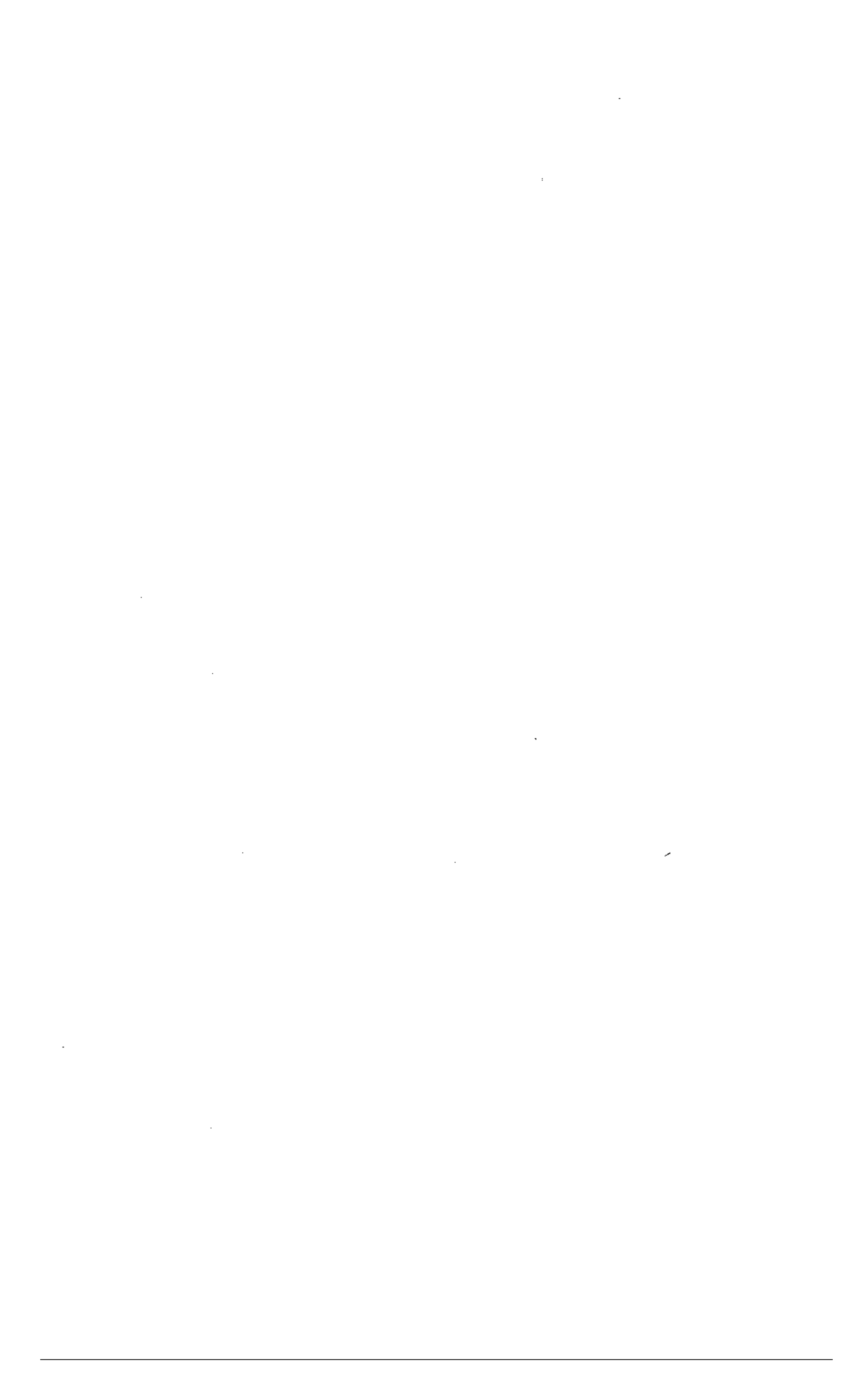

بيير روسي
وطن إيزيس
تاريخ العرب الصحيح
ترجمة
مولود طياب
ENAG
EDITIONS
ALBORDJ.BLOGSPOT.COM



01 01 01 / 07
الإيداع القانوني 2007 ـ 2304
ردمك 4 - 618 - 62 - 9961 - 978

بيــر روســي

وطن إيــزيس

تاريخ العرب الصحيح

ترجمة : أ مولود طياب



موفم للنشر



مقدمـــة المتـرجم

الكتب الأجنبية التي تنصف العرب وتاريخ العرب نادرة تعد على الأصابع وإذا استثنينا كتاب غ. لوبون "حضارة العرب" الذي كان فاتحة النظر الجديد إلى العرب وحضارتهم، فلم تنشر بعد ذلك في الموضوع إلا ثلاثة أو أربعة كتب[1]، منها كتاب "وطن إزيس" أو "تاريخ العرب الصحيح" الذي يرجع تاريخ صدوره إلى سنة 1976. ولا أعتقد أنه يوجد أصرح ولا أبعد في إنصاف العرب وتاريخهم من هذا الكاتب الذي عاش مدة طويلة في البلدان العربية المختلفة ولا شك أنه ينفذ إلى أسرار الثقافة العربية وبالتالي إلى أسرار تاريخهم. وقد أسمى كتابه بعنوان ثان هو"تاريخ العرب الصحيح".

وقد أوضح في السطور الأولى من مقدمته قائلا: "إن الأوربيين يحصرون عن قصد مبدأ ظهور ثقافتهم في دائرتي أثينا وروما؛ إن هذا الحكم خاطئ أوحته إلينا التعصبات الدينية والسياسية" ويضيف قائلا: "إن تاريخ الشرق والغرب بأجمعه إنما جرى تحت سيل من نور آسيا (أم الشعوب)" "إن أوربا ليست مركز العالم ولا هي مرآة الخير الأسنى".

---

1 - ومنهــا : Max Vintéjoux : *Le miracle arabe*
- *La civilisation musulmane* : André Miguel
- *La Soleil d'Allah*

وسيجد القارئ عبر فصول الكتاب الآراء الجريئة والأحكام السديدة على موقف الغربيين وتعليمهم الرسمي الجامعي الذي لا يكاد يعرض لتاريخ المشرق العربي الا متجاهلا متنكرا لصفحاته الباهرة. وكتابه "وطن إزيس" أوتاريخ العرب الصحيح كتاب علم وتاريخ وفلسفة وعقائد أسطورية وديانات سماوية وفنون وهويوضح بما لا مزيد عليه من الحجج ما كان للمشرق العربي منذ أقدم العصور من إبداع في هذه المجالات التي قامت على أساسها الحضارة البشرية.

وأول نقطة يجب أن نتنبه إليها هي أن مبدأ تاريخ العرب يحدده المؤرخون عادة بعهد الجاهلية في الجزيرة العربية مع أن موطن العرب يشمل منذ أقدم العصور بلاد ما بين النهرين (العراق) والشام (سوريا) ووادي النيل (مصر) وحتى بلاد المغرب لوحدة في نظر الكاتب أصل سكان هذه المناطق وأنهم آراميون. ويقول أن الحروب البونيقية (بين قرطاجنة وروما) هي الحروب العربية الأولى ضد الغرب، ويوضح بهذا الصدد وفيما يتعلق بتاريخنا القديم في المغرب (شمال أفريقيا) ما كان دور قرطاجنة وروما في سير التاريخ العام في حوض البحر المتوسط. وهو دور كنا نفهمه كما يمليه هوى المؤرخين الاستعماريين الذين يشيدون بمجد روما لتبرير السياسة الاستعمارية في عصرنا.

ويكفي أن نورد كلمة وجيزة للمؤلف في تقديره للمشرق لنعرف مدى نزاهته، فهو يقول: "لم يزل ينطلق من المشرق في كل حين تيار يبعث الحياة ويؤدي في أرض الغرب (أوربا) إلى ظهور ألوان كثيرة من الفنون والنظرات المبدعة"، "لقد بقينا عربا في عقيدتنا كما بقينا عربا في شكوكنا" ويقول روسي بخصوص اللغة العربية :"إن العربية هي اللغة البشرية الأولى المنظمة في البحر المتوسط قبل لغة هومير؛ وهي التي

وفرت قواعدها لليونانية" ويقول بخصوص الإسلام: «إن محمدا ﷺ وخلفاءه قد ردوا المشرق إلى أصالته ووجهوه إلى الألوهية الواحدة بطريقة جد مقنعة بحيث أن جميع الأديان والعقائد السماوية المشرقية تمثلت واتحدت فيها».

هذه المواقف وهذه التوضيحات من المؤلف مما جعل هذا الكتاب فريدا في بابه جديرا بأن يطلع عليه قراء العربية ويتضمخوا بأرائه السديدة، لذا أقدمت على ترجمته وتعريبه راجيا أني قد بذلت جهدا محمودا وأن يغفر القراء ما يمكن أن يلاحظوه من سهو أوقصور. والله ولي التوفيق.

الجزائر في 3 مايو 1995

الأستاذ م. طياب



مقدمة المؤلف

كان من تصورنا القاصر للتاريخ أن فرض علينا إرجاع مصادره إلى مكان غير بعيد منا، بالجزيرة الهيلينية القاحلة، وبضفاف نهر التبر البائسة.

إن الأوروبيين يعتبرون بحصر مكان ظهور ثقافتهم في دائرتين اثنتين هما أثينا وروما، وهذا فهم غير صحيح، أملته علينا التعصبات الدينية والسياسية، فما من شك في أن التابعين للكنيسة الكاثوليكية الرومانية، الذين استحوذوا طيلة أكثر من ألف سنة على وثائق العصور القديمة، ومحفوظاتها قد عملوا على إشاعة هذا التفسير، تفخيما وتمجيدا للغرب الأوروبي.

ومع هذا فإن تاريخ الشرق وتاريخ الغرب بأجمعه، إنما تم وجرى تحت سيل نور آسيا (أم الشعوب) وتحت سماء النيل وفي رحابه، إن مصر وبابل قد جمعتا الإيحاءات الجبارة التي تولدت عنها الحضارة العربية الكبرى، هذه الحضارة التي أذاعت منذ فجر العصور، معارفها وأسلوبها في الحياة، في جميع الأقطار الواقعة ما بين الأندوس والتاج (Tage) والنيل الأزرق والبلطيق، ولم تكن أثينا وروما إلا صدى وانعكاسا لهذه الحضارة.

وباعترافنا لآسيا وللأقطار العربية بمكانتهما الحقيقة، وبتوضيحنا بكل نزاهة لدورهما في إنشاء ثقافة هي ثقافتنا، لا نريد إلا أن نتجاوز حدود أثينا وروما، وأن

نعترف بعلاقات الانتماء التي ربطت أوروبا بمجموع من الأبعاد الواسعة، تبدو فيها خطوط مستقبلها بوضوح أكبر، أن أوروبا ليست هي مركز العالم، ولا هي مرآة الخير الأسمى، إنها بصفتها بنتا للشرق الإفريقي الأسيوي لا تمثل في هذا المحيط من الفضاء والزمان، إلا منطقة تعمل فيها طاقات ذات قوة تجذبها وتحدوها، مثلما جذبت في العصور الماضية قياصرة الروم.

ولكن الأحكام الخاطئة راسية لا تزول؛ كما أن التعليم الموجه يفسد أحكامنا، والصور التي نتمثلها وتراودنا، قد أقصت الواقع واحتلت مكانه، إننا نعتقد بأن دروس التاريخ التي نتلقاها في مدارسنا، شبيهة بالدروس التي تذاع في القاهرة وطهران وكابول أو كلكوتا، ليس هذا بصحيح وبناء على ما نتوهمه، فإننا تجرأنا في مطامحنا إلى الاستبداد بالأمم غير الغربية، على أننا عندما نزن العوالم التي تحيط بنا، ونعرف وزنها الحقيقي، فقد نكتشف إذاك، علاوة على الاخوة الصحيحة بين الأمم، آفاقنا المحدودة وقصورنا الظاهرة.

إننا نزهى بشقشقة الكلمة، ونعجب بأنفسنا، ونصبو دائما إلى الاستعلاء، فإذا نطقنا بكلمة الغرب فكأننا قلنا كل شيء، ولا نقدر أن الغرب ما هو إلا هذا السفح المنحدر من الشرق

أما العالم العربي الذي يمثل عالما حقيقيا، فد حصرناه في حدود آرات من الصحراء الجدباء لا تزال تحوم بها بقايا من الخرافات، وقد قللنا من قيمته وشوهناه وكدنا نلغيه من الوجوهُ وندفنه دفنا، ومع ذلك فهاهو يظهر للوجود وللحياة من جديد، قد آن الأوان لنتبين أن غربنا إن كان يستهوينا بغناه، جميلا يسود فيه النظام، فإنما يرجع ذلك إلى الإمبراطوريات العربية الكبرى التي هيأت الأسباب لهذه السعادة، إننا نشيد بزهرة الشقيقة التي قال فيها عمر الخيام:

إنها تستمد حمرتها من دم ملك دفين.

باريس مايو 1976

من الأهرام إلى مقصورة مدسيس (Medicis)

صنع ميكال أنج بفلورنس في مقصورة مدسيس أربعة تماثيل ذات أشكال هائلة، تمثل أوقات الزمن الأربعة: وهي الفجر والغروب والليل والنهار، أعني إزيس وأوزريس، أبولون وبرسفون وهي محاولة لنقل حيرة الزمن وتصويرها في جمال الفضاء، ودعوة إلى أرواحنا لترقى إلى عالمها الأبدي، إن المقصورة تمثل فضاء فنيا ومكانا رائعا مخصصا للتفكير في مصير الإنسان ضمن حركة الكون، وللتأمل في الوفاة المقضية والبعث المنتظر المتمثل منذ الآن، وفي الكمال (الإلهي) الذي لا يتغير ولا يتحول، على غرار المرمر الذي يمثله.

إن الملامح الحجرية في صورة جوليان دومدسيس[1]، الغارقة في تفكيرها المذعور، لا تنتهي من إبراز تناقضات هذا العالم، فالفن والفلسفة والدين متداخلة متشابكة هنا، معتمدة على صرامة الهندسة ذات الأبعاد الثلاثة لتوحي ببعد رابع، هو بعد العالم غير المشهود، الذي يتراءى من وراء العالم المشهود، والزائر الذي يلج وحده المقصورة، يغمره الشعور العميق بأن هذا الضريح وهذه التماثيل توحي في صمت هندستها الخالصة، بأنه

1 - جوليان دومدسيس Julien De Medicis

يوجد مجال لا يمكن النفوذ إليه، هو فيما وراء الأشياء الظاهرة، ويجد هذا الزائر نفسه مثل هذا الشعور والتأثر، إذا تأمل هيكل ممفيس[1]، أو أعمدة بعلبك في وسط الصحراء تحت عنان السماء.

إن الأهرام والتماثيل الضخمة في نينوى[2]، ومسجد عمر ومقصورة مدسيس، تعبّر عن صورة ذهنية واحدة؛ إن هذه الهياكل تجرد الأشياء الزائلة من كل قيمة وتؤكد أن الفن ليس هو إلا تعبيرا عن شوق الأرض إلى السماء، ولكي ينتهي الفن إلى مقصورة مدسيس، التي تعد تحفة الفن الغربي، كان لا بد من أن يدوم ويتظافر التطور المستمر في مصر والكلدان، وفي فلسطين والأناضول وفي اليمن والبحر الأسود[3] وفي اليونان وروما أخيرا، أعني جميع القدرات الثقافية النابعة من الفضاء العربي، إن العالم العربي هو الذي لقن فكرنا الغربي النظر الشرقي الذي لم يكن ليعرف نفسه بدونه، ولا أن يعرف الاستقرار في انسجامه.

إننا نشعر ونحن نتحدث عن الفضاء العربي بأننا نواجه نظرية مقدسة، تمثل العربي في صورة شخص صحراوي، ظهر في التاريخ في عهد غير معروف، وقد كتبت دائرة المعارف الإسلامية عن اقتناع قائلة: "إن العصور الأولى من تاريخ العرب لا تزال غامضة؛ إننا لا نعرف من أي مكان قدموا ولا كيف كانت حياتهم الأولى" على أنه يبدو أن محرر المادة كان متأكدا من أنهم كانوا ولا يزالون من "الساميين" وبذلك يعتقد بأنه قد أتى بالتفسير الوافي، إن هذا التفسير لا ينطوي على أي معنى في الواقع، وهو فارغ من

1 – ممفيس (Memphis).

2 – Ninive نينو بالعراق.

3 –Pont Euxin هو اسم البحر الأسود.

كل معنى إلى درجة أن دائرة المعارف الإسلامية نفسها، لم تجرؤ على ذكر فصل "الساميين" في قائمة المحتويات، وهل نحن في حاجة إلى أن نضيف أن عبارة "السامي" لا وجود لها لا في اللغة اليونانية ولا في اللغة اللاتينية؟ الأمر الذي يدل على مغزى بعيد، إذ لا نعثر عليها في أي نص قبل نهاية القرن الثامن عشر، ذلك أن العلامة الألماني أ.ل. شلوزل[1]، هو الذي اختلق نعت "السامي" واستعمله في مؤلف نشر سنة 1781، وعنوانه "فهرس الأدب التوراتي والمشرقي"[2]، على اعتبار أن الأدب التوراتي ليس مشرقيا، إن ما عمد إليه أ.ل.شلوزل من إقرار هذا التغيير والتمييز يجب أن يدفعنا إلى الحذر والاحتياط. ومن المعترف به قطعيا، أن تقسيم الشعوب إلى شعوب شرقية وأخرى غربية يعتبر مفتاحا ومدخلا لتاريخنا، وأن هذا التقسيم الجغرافي يطابق حدودا مزدوجة عرقية (وطنية) ولغوية، التي تصل بين الهند أوروبيني[3]، الذين يدعون الآريين أحيانا، وبين الساميين، إن أصحاب العقول النيرة لا يزالون إلى اليوم خاضعين لهذا الاختراع الذي نجم من خيال علماء (لمرفقه) الألمان.

وسيدهش المؤرخون في المستقبل من هذا الانتصار الغريب للسذاجة والممالأة في عصر، هو عصرنا، يشيع فيه الشك والعقلنة والمعارضة الرافضة، وبالفعل، إنه من المستحيل الأكيد أن نثبت وجود شعوب سامية وآرية، اعتمادا على الوثائق والمعلومات المتوفرة لدى أهل العلم، وبالأحرى أن نرسم بينها الحدود والخاصيات المميزة لها، كما أن النظرة القائلة بأن

---

1 - A.L.Schlozel APOLLON. PERSEPHONE.

2 - Isis Osiris, *Repertoire de la literature biblique et orientale.*

3 - Aryens- Indo-Europeens.

الشرق والغرب يتمثلان ويتميزان بما لكل واحد منهما من لغات هندية أوربية أو سامية، نظرية خاطئة سواء في مبادئها أو في صيغها، ولا نملك في الظروف الراهنة من معلوماتنا الحق في الدعوة إلى هذه المفاهيم، فالعبارتان "ساميون" و"آريون" لا عبرة بهما ولا تدلان على أي شيء، وكان لا بد لكي تكتسبا شيئا من الحقيقة الواقعة وتعتبرا مبدأين تاريخيين، من أن تستشعر الشعوب نفسها بالمفهومين، وأن تعترف بأنها آرية أو سامية، ولا يوجد إلى يومنا هذا أي شخص ولا أية ثقافة ولا أي مجتمع يدعي ويطالب بأنه من أصل سامي أو من أصل آري.

ولا بد من أن يعلن ذلك بكل صراحة، ولكن عالمنا اليوم مغمور بالنظريات إلى حد أنه يتفانى في الاستمساك بالصور الوهمية التي وضعه فيها المفكرون، إن البعد العالمي للنظريات التي يبثونها، والتضامن الذي يربط بينهم، (إن لم نقل التواطؤ)، والجهاز العلمي الذي يستندون إليه، كل ذلك يكسب كلامهم سلطة يخضع لها الرأي العام وتسحره.

ومن الحق كما كتب إرازم[1]، إن "الإنسان من طبعه أنه يتأثر بالأوهام أكثر مما يتأثر بالحقيقة" والحال إن الحقيقة ليس لها أي دخل في التمييز الساذج أو المشبوه بين "الأريين" و"الساميين"، إن إحدى العبارتين ما هي إلا اختراع صرف بينما الثانية مستحدثة مشتقة من "سام" ابن نوح الذي تتحدث عنه الأساطير[2]، إن كان الأمر كذلك، وعلاوة على ذلك، كان يجب احترام رواية التوراة، من استعمال كلمة "اليافثيين" بدل "الأريين" إذ أن "يافث" ثالث أبناء نوح هو أب اليونانيين والأناضوليين

1 - Erasme : فيلسوف هولندي عاش في القرن الخامس والسادس عشر.

2 - يقصد أن الشخص الأسطوري هو سام لا نوح - (عليه السلام).

وأسلاف الأوروبيين، فما أعظم هذا الاستخفاف الجائر، الذي تستمسك به مدرستنا العلمية، في مجال لا يمكن فيه التحقيق! فلا يكفي أن يقول القائل، بل لا بد من القول بما هو حق؛ وقد اشتد حرص البعض على اختراع كلمات إلى حد أنهم انتهوا إلى عبادة الكلمات، ومن الحق أن العلماء لم يوافقوا كلهم أجمعين على ذلك، بل ارتفعت من هنا وهناك أصوات بالمخالفة، كما ارتفعت أحيانا انتقادات ضد الدعاوي الخاطئة التي ينشرها المعتمدون من أهل النظر؛ ولكن من المعروف أن الجامعة تحمي أتباعها ولا ترحم المعارضين.

وقد خفتت الانتقادات إن لم تكن قد لحقها الكبت، ومن الأساتذة والمعلقين المتخرجين على كبار العلماء من فضل الانخراط في صفوف الساكتين خوفا من إحراج أساتذتهم، وحكموا على أنفسهم بإسداء تعليم لا يؤمنون به، والدفاع عن وهم لم يتوهموه هم، وانقلبوا مزيفين مرغمين، ومن الصحيح أيضا أن العرب أنفسهم فتنوا بما اعتقدوه من عصمة نظريات الجامعات الغربية، فقبلوا أن يقوم بتعريفهم بهويتهم المراقبون الأجانب، وقد وافقوا خائعين على الأحكام الجريئة التي فاه بها المستشرقون الغربيون، دون أن يعتبروا أن هؤلاء الغربيين الذين يفوقونهم علما ومعرفة، يرفضون بتحفظ كبير، وشك صريح النظريات التي يستنتجها بخصوصهم علماء و"مدارس استغراب" قائمة في القاهرة أو في بغداد، لكن إذا كان عندنا مستشرقون، فلا وجود في القاهرة "العلماء استغراب" وهذا قصور ذو معنى بعيد، على أن هذا الفارق غير بريء كما هو مفهوم، ففي القرن العاشر الميلادي تأمل القديس المصري النفاري[1]، في أسرار التاريخ العميقة

---

1 - النفاري Niffari.

فقال: "إن وجه البحر عليه من النور ما يعمي بلمعانه؛ أما عمق البحر فهو مظلم لا يمكن أن ينفذ النظر إليه: وبينهما حيتان كبيرة يجب الحذر منها" إن التضليل باسم العلم أخطر بكثير من التضليل عن جهل.

إن الله يعلم بهذه القضايا المزيفة التي ألقى عليها التمييز بين الساميين والهند أوروبيين رداء نوح[1] إنه تمييز تعسفي، خصوصا وأن تاريخ المشرق من بين معطياته الثابتة، عدم وجود فوارق (حدود) عرقية (عطنية) أوعقائدية.

وهذا الثابت مشفوع بواقع واضح في مفهومه، وهو أن الشرق والغرب ليسا مجالين متناقضين بل هما قطبان لحقيقة واحدة ولثقافة واحدة، ولتاريخ واحد.

إن اليونان كانوا مشارقة؛ ويدعى الرومان أنهم من حفدة إيني (Ence)، فالجذورالصوتي والخطوط (الكتابات) قد تداخلت إلى حد يعد فيه كل تحليل مستحيلا، وكان الخطأ بالضبط هو محاولة هذا التحليل، اعتمادا على افتراضات ترتبت عن تعليم مسيحي مزعوم، وعن معرفة قاصرة لآداب اللغات القديمة، وقد اختصرنا ببساطة قصوى الحصيلة الثقافية الهائلة التي عرفت منذ الألف الرابعة والألف الخامسة قبل الميلاد، في عالم بحرنا المتوسط، وجمعنا في ثلاثة أو أربعة مراحل ضيقة، الماضي المذهل، فمثلناها في صور تافهة مطابقة لأذواقنا، فصارت تستثير نفورنا، وقبل أن نعترف بأن أغلب أحداث الماضي، قد أصبحت غير مفهومة لأنظارنا، وأن الصعوبات في توضيح الدلالات عسيرة الحل، عمدنا إلى البت فيما هو ضروري دون أن نحظى بأدنى يقين، وهناك تصرف آخر أكبر خطورة، ساقنا إلى تكليف طائفة من العلماء المنزوين في رباطاتهم أوجامعاتهم أو مختبراتهم بدراسة المجتمعات القديمة الكبيرة التي كانت

---

1 – Manteau de Noe.

تعيش حياة جماعية، مشتركة، مغمورة ودينية لا صلة لها بهذه الطيور النادرة التي تدعى بالاختصاصيين.

وقد نشرت دار لافون [1] كتابا حديثا عن "علم الآثار والتضليل" لـ ج.ب.آدم [2] مدير مكتب المعمارية القديمة بباريس، استنكر فيه المؤلف ما ينطوي عليه علم التاريخ بالماضي عند البعض، من تضليل، وكونه مجرد افتراضات. وقد بيّن المؤلف أنه جدّ حائر من تنكب السداد إلى هذا الحد. على أنه لم يجرؤ على العمل بما يمليه عليه منطقه.

وكيف لا نضحك عندما نقرأ من كلام أرنست رونان [3] في كتابه "تاريخ اللغات السامية" إن الأريين والساميين لم يمرّوا قط "بوضعية المتوحشين" "بفضل نعمة خاصة" وأنهم ارتفعوا من البداية إلى أعلى مستوى الثقافة.

وهذا على غرار منرفة (Minerve) التي أنجبها دماغ جوبتر (Jupiter) مجهزة بكل سلاح.

وكيف يمكن أن نحكم بجدية تصريحات مثل هذه: "إن الأشوريين كانوا بالتأكيد من السّاميين: أما الكلدان فمن المستحيل أن نعرف من هم، ولا من أين أتوا" وهذا تأكيد يليه في الحال تأكيد آخر "إن الكلدانيين، والأشوريين أنشأوا بسرعة حضارة مشتركة تدعى الحضارة الأشورية البابلية، فما هو قسط الساميين وغير الساميين في هذه الحضارة يا ترى؟

ونواصل النقل بما يلي: "الحثيون ساميون في نظر البعض، ومغول في نظر آخرين، ومغول - ساميون في نظر ثالث".

---

1 - Ed. Laffont.

2 - J,P. Adam: L'Archéologie devant l'Imposture.

3 - Ernest Renan. *Histoire des langues sémitiques.*

أما المصريون فهم إثيوبيون في نظر البعض وأنصاف ساميين اختلطوا بحاميين أو الأفارقة البيض. "والظاهر أنهم احتلوا وادي النيل في عهود بعيدة جدا، لا يمكن تقديرها".

وقد ذهب البعض إلى التساؤل عما إذا لم يكونوا من أصل يرجع إلى المحيط (دون توضيح إسم هذا المحيط).

على أن المصريين كان لهم رأي في هذه القضية: وقد أوضحوا في الكتابات المنقوشة في الكرنك أنهم من أبناء شيسو - هور (Shesou-Hor) أعني "خدمة هوروس" (Horus) أي أنهم مصريون، وهذه حقيقة بسيطة نزيهة لا مراء فيها. "وقد ثبت اليوم أنّ المناطق الوسطى من الجزيرة العربية، كانت مهد الساميين فالساميون الذين بقوا في الجزيرة هم أسلاف العرب. أما الذين استقروا في الجهات السفلى من الفرات ثم تفرقوا بعد ذلك في سائر جهات آسيا الصغرى، فهم الآشوريون والإسرائيليون.

ومثل هذا التفسير يخلط بين الكلدان والآشوريين والإسرائيليين ويفترض أن آسيا الصغرى كانت خالية من السكان، فإن لم تكن خالية، فأي شعب كان يسكنها؟

لا جواب على هذا السؤال. أما فلافيوس جوزيف (Flavius Joseph) الذي ينقل الشراح عنه كثيرا فيقول إن السوريين والمصريين واللبنانيين ليسوا من الساميين وكذا اليهود الأثيوبيون. ولكن الفرس منهم. ويوضح علماؤنا من جهتهم أن الفرس من الآريين الذين قدموا من آسيا واحتلوا هضبة إيران وشمال الهند في الألف الثالثة قبل الميلاد تقريبا. والمؤسف هو أنه يوجد رأي يقول إن الساميين هم أيضا من آسيا. ومهما كان فإن الكتابات المنقوشة التي اكتشفت في بلاد الميد (Méde) والفرس،

الأرض المقدسة للأريانية، كتابات مسمارية ومصرية وأرامية، اللغات الثلاث التي تعتبر لغات سامية. فهذا التناقض جلي صريح، ولكن لسنا في مجال الإدعاء العلمي، أمام تناقض واحد فقط. وقد واصلنا أبحاثنا ومضينا فيها قدما فيما يخص الساميين، فاطلعنا على المؤلفات الأخيرة التي نشرت تحت إشراف السربون، وكوليج فرنسا، (Collège de France) والمدرسة التوراتية بالقدس. وقد اكتشفنا دراسات جد مفيدة، ولكنها محشوة النصوص بالعبارات التي نذكرها بدون ترتيب: "قد يكون من الصدف القوية لـ... كل شيء ينقضي كما لو... لقد اخترنا من بين الافتراضات الافتراض الذي نعتبره أصح وأكثر مطابقة للفكرة التي رسمناها لأنفسنا، يبدو أن النص قد نقل عن أصل عبراني... قد ضاع "فهذه الفكرة التي تستظهر بشهادة شاهد غير موجود، أليست غريبة؟ ونكشف أيضا بصدد تعليق، ملاحظـــة من عالم من هدلبرج (Heidelberg) يشير فيها إلى خطأ ارتكبه ناقل منذ أربعة آلاف سنة مضت! وأي جد هذا الجد؟ ومن الجائز أن لا نقف عند هذا الحد من ذكر الأمثلة عن الافتراضات الحائرة والاستنتاجات الواهية. إذ أن سمة هؤلاء الخبراء هي أنهم لا يتفقون على أي شيء، سوى بكل استغراب على عبارة الساميين، لكن دون الاتفاق على مفهومها. إننا باختصار أمام جهل كامل، أعني أمام جهل علمي.

على أن الأمور قد تكون أيسر بكثير، لو أننا بدل أن نتحدث عن الساميين الأبطال الوهميين المنتمين لإشتقاق موهوم، تحدثنا عن العرب، الشعب الحقيقي الواقعي، الذي وفر الحياة والتوازن لمنطقة البحر المتوسط، منذ آلاف السنين، باستمرار وجوده الاجتماعي والثقافي واللغوي. فالآثار والهياكل القائمة تدلّ على أن حضارتنا قد ظهرت وضاعت في متسع من الأرض بين النيل والأندوس، والقوقاز ومجاز باب المندب، وقد أقامت فيه

أمم أربع إمبراطوريات عاشت مدة طويلة: وهي المصريون، والسوريون الكنعانيون، واليونان الحثيون، والبابليون. وقد فرضت الآرامية نفسها وحدها في الختام كلغة مكتوبة ولغة خطاب في هذا المتسع الكبير، وسادت فيه مع اليونانية كلغة تابعة لها في الجهة الغربية، لما بينهما من صلة متينة. وقد تطورت الآرامية تطورا طبيعيا، بدون أي اصطدام، إلى العربية التي ورثت بعد ذلك ماضي كل من مصر وكنعان، والحثيين وبابل. هذا هو المدى الصحيح للثقافة العربية التي أنجبت الهيلينية، وألهمتها وصاغتها بروحها وقوانينها. إن اللغة العربية واللغة اليونانية تظافرتا وتعاونتا لإبداع ما نسميه بالحضارة التي ليست هي أكثر شرقية مما هي غربية كما نلاحظ ذلك، ولا هي سامية أكثر مما هي آرية، ولكنها واحدة لا تتجزأ إلى فروع، سواء كانت روحية أو مادية، وأكبر الشواهد على هذه الحقيقة: النصوص الأصلية الثلاثة التي أذاعت عقيدة التوحيد، أحدها محرر بالعربية وهو القرآن، والآخران محرران باليونانية (الإغريقية) وهما التوراة والإنجيل.

ولابد هنا من توضيح يتعلق بما يسمى بالعبرانية لأن وهما معقدا تدعمه شعوذة اشتقاقية مصرة، قد حملت كثيرا من ا لناس على اعتبار العبرانيين "وثقافتهم" الأسلاف الأقصون لتاريخ المشرق، وبالتالي لتاريخنا. ومن الجدير قبل كل شيء أن نعلم بأن التاريخ لم يتحدث قط عن العبرانيين، إذا استثنينا نصوص التوراة.

فالأركيولوجية (الأثار)، والكتابات المنقوشة والتماثيل، لم تعرّفنا بأي أثر عبراني.

وكذلك لم نعثر على ذكر لكلمة العبرانيين لا في آلاف النصوص المسمارية أو المصرية التي ضمنتها مكتبات مصر ورأس شمراء أو نينوى (Ninive)، ولا حتى في القصص الآرامية.

فالملكان المشهوران داود وسليمان لم يخصص لهما أي حديث في الأخبار، كما أنه لم يعثر على أي ذكر لملحمة هجرة العبرانيين أو عن معاركهم: ولم تثبت الحفريات التي أجريت منذ سنة 1890 في فلسطين أي انقطاع في الحضارة، فالفراغ فراغ شامل ونهائي.

فلا يمكن بناء على هذا، أن نتحدث عن تاريخ نجهل أحداثه، ولا أن نحاول تصور أحداث وليس لدينا أية وثيقة، وقد نشرت سنة 1973 بإشراف السلطات الإسرائيلية طبعة جميلة من كتاب فلافيوس جوزيف (Flavius Josephe)، وقد ازدانت هذه الطبعة بصور بابلية وسومرية ومصرية وحثية أي عربية.

ولا وجود لأي حديث عن العبرانية في الكتاب ولو في النص الذي يعلم كل واحد أنه ترجمة من اليونانية: لأن فلافيوس جوزيف كتب باليونانية، وكان يتحدث بالآرامية كجميع الفلسطينيين في عصره، ونضيف إلى هذا أنه لا يوجد أي تنصيص عن العبرانيين في الأناجيل، وأن القرآن إنما يتحدث عن اليهود والإسرائيليين أو بني إسرائيل، ومهما كان، ففي كل مرة نعثر على كلمة العبري في الآداب العربية، أو اليونانية أو اللاتينية، فهي لتطلق على دين لا على أمة، حقا توجد بالفعل "رسالة إلى العبرانيين" لكن الشراح قد رفضوها، أو لا لأسباب مادية، لأن الإشارة "إلى العبرانيين" قد أضيفت في الهامش، ثانيا لأنه لم يوافق أي واحد على معنى عبارة العبري، التي لا تخضع لأي تحليل، ومن المستحيل علينا اليوم أن نحدد لا عصر العبرانيين ولا موطنهم، ولا نظام مجتمعهم ولا عقيدتهم.

ولا يمكن لفلافيوس جوزيف أن يعيننا في هذا المجال، إن كتابه "تاريخ اليهود القديم"، كتاب يدهشنا بتناقضاته وحكاياته، فهو يجعل بلاد الكلدان خارج ما بين النهرين ويعتبر إبراهيم (الخليل) ملكا سوريا، ويشير أيضا إلى

أن "السامريين من العبرانيين لكن ليسوا من اليهود"، (صفحة 361 نشر ليدس 1973)، واليقين الثابت هو أن العبرانية ليست لغة أصلية لليهودية التي كانت لغة أتباعها هي الآرامية، ثم العربية: لأن اليهودية قد نابها المصير الثقافي الذي آلت إليه الديانات المصرية والبابلية والأورفية والمسيحية والإسلامية، عندما صرخ المسيح -عليه السلام- من على الصليب قائلا: "اللّه اللّه! لماذا سبقتني" إنما صرخ بالعربية.

وكل عربي يدرك اليوم معناها: أي يا إلهي! يا إلهي! لماذا رحلت قبلي!" أو لماذا تركتني في الأخير؟" فلا عبرانية في كل ذلك بالرغم من تعاليق بعض العلماء، وترضية لضمائرنا أحصينا لألفاظ التي يعتبرها الشراح المسيحيون ألفاظا "عبرية" ولكن أغلبها ألفاظ عربية لا غير، فلو عزمنا أخيرا، على أن نؤوب إلى الصواب، ونراجع شرح التوراة في ضوء اللغة والثقافة العربية، فستنهار الدراسات المصطنعة في القرون الوسطى، وتحل محلها نظرة جديدة حية، تبعث الحياة في الأناجيل فليس من المعقول أن يكون الوحي الذي نزل لتعليم البشرية وأداء صلاتها، وليتفهمه الشعب، ليس من المعقول، أن يؤول محصورا في سجن العبرية اللغة المقدسة، التي اخترعت لطائفة قليلة من الدعاة، إن اليهود المشارقة لم ينقطعوا فيما يخصهم عن التحدث بالعربية وأمكن لهم أن يسهموا بأعلام كبار في الآداب والفكر والعلوم العربية، وقد بينا أن الرواية الأولى للتوراة كانت بنص يوناني، بصورته التي وضعت في القرن الثالث قبل الميلاد، في عهد بطليموس الثالث، في نفس الوقت الذي تم فيه تحقيق آثار هومير الشعرية الملحمية أو التأملية التي نقلتها إلينا الروايات صحيحة تقريبا.

إن مصر، بناء على هذا، هي التي حفظت التوراة، وقد سادت الروح العربية الهيلينية في ملاحم داود وآشيل18، ويمكن لكل قارئ واع أن يلمس

ذلك بسهولة، وكما كان من المتوقع أن النص اليوناني الأصيل، الذي يدعى بنص سبتنت، (Septante)[1] مصدر الراويات اليهودية، يقلق العبرانيين الدارسين (للعبرية) الذين يصرون على أنه توجمة أو اقتباس من رواية أولى، باللغة العبرانية، لم يقع أي شيء حتى اليوم يؤكد هذا الإفتراض.

وابتداء من القرن الثالث بعد الميلاد فقط، تقرر تحرير الروايات اليهودية بالعبرانية بعد أن كانت منقولة بالعربية الأرامية، وقد استعان المحررون في هذه المهمة بالسريانية كما لا تزال تدرس إلى يومنا.

حقا لقد وردت فقر من العبرية في بردي ناش (Papyrus Nash). الذي يرجع إلى القرن الأول قبل الميلاد، ولا تزال تجري بشأنه المناقشة، ويحتمل أن تكون العبارات من الفينيقية الجديدة، (لا يتم ضبط النص العبراني للتوراة إلا في عهد متأخر، ما بين القرن التاسع والقرن العاشر الميلادي، وقد قام بذلك علماء من مدرسة طبرية (Tibérîade) يدعون ماسوريت (Massorétes) معتمدين على أربعة مصادر: النص اليوناني المسمى "سبتنت " (Septante) الترجمة اللاتينية المنسوبة لسان جروم (St. Jerôme) الترجميم (Les Targaumim) الأرامية، والعناصر السريانية أخيرا)، وقد حدث صخب كبير منذ سنوات مضت بخصوص اكتشاف مخطوطات البحر الميت في خربة قمران (Khirbet qoumran)، كنا إذاك بصدد المساعي التي تبذلها الصهيونية في فلسطين وفي الأمم المتحدة وفي اتحاد الرأي العام، وكان من صالح (إسرائيل) أن تبحث عن تبرير من التوراة للمشاريع العسكرية، لهذا كانت مناسبة الاكتشاف مشبوهة مشكوكا فيها، وقد استشير العلماء في قيمة الوثيقة فكان حذرهم شديدا وأرجعوا تحريرها إلى القرن الثاني أو القرن الثالث الميلادي.

---

1 ـ Septante إشارة إلى المترجمين الإثنين والسبعين اليهود الذين حرروا نص التوراة باليونانية.

وبالإضافة إلى ذلك، إن الكتابة إذا أمعنا فيها النظر، محشوة بعبارات فينيقية وآرامية، وقد تأكدت الشكوك اليوم وحامت الريبة حول مخطوطات البحر الميت، وهي لا تستطيع أن تعدل من رأي العلماء المحققين بخصوص دور العبرانية في تاريخ المشرق.

وقد عرفنا أن الكنيسة الرومانية قد اختلقت لاتينية للطقوس الإنجيلية تلبية لحاجة حياتها الداخلية، وأدرجت فيها التعابير التي انقضى استعمالها، لتمثيل الفارق بين المجتمع الإنساني والتعبير الإلهي.

ومن الصحيح الحق أن المزامير باللاتينية الكنسية أو باللغة العبرية ذات أنغام وإيقاعات جميلة مؤثرة على الشعور وقادرة على بعث إيحاءات عن العالم الآخر، ولكن لم يعمد إليها أي إنسان ليكشف فيها معلومات لغوية مقبولة ولا سيما لاكتشاف منبع ثقافة أو ما انتهت إليه، ويرجع جمال هذه اللغات التعبدية في الحقيقة إلى أنها غير واقعية، أما اللغة العبرية الحديثة فهي اختراع أملته الظروف على اليازار بن يهودا (Eliezer Ben Yahouda) الذي نشر ما بين 1910 و1922 قاموسا طلبته الصهيونية العالمية، والغرض منه هو توفير نوع من اللغة الإسبرنتو (Esperanto) ليهود العالم المدعوين للهجرة إلى فلسطين، فهي على هذا أداة سياسية.

فما هي الأسباب التي دفعت علماء الغرب إلى اتخاذ العبرية طريقا في أبحاثهم المشرقية بينما كانت في متناولهم اللغة العربية الحية، المعبرة بوفاء عن استمرارية عدة آلاف من السنين قادرة على توضيح أسرار العصور القديمة بكل سهولة؟ يمكن أن نجد تفسيرا لذلك في تعصب الكنيسة الكاثوليكية الرومانية وعلمائها الذين اتخذوا من أديرتهم حصونا للشروح والتأويلات المنحازة، وقد كانت روما في حرب معلنة أو خفية ضد الجدليين

العرب منذ القرنين الرابع والخامس اللذين جرت فيهما المجابهات بين كنيسة المشرق وكنيسة الغرب خلال النزاعات العنيفة بخصوص شخصية المسيح -عليه السلام - حول أتباع نسطور وأنصار الطبيعة الإلهية الواحدة (في المسيح) والآريين، وغيرهم من أهل "البدع"، ولم تكن الحروب الصليبية التي قامت بها السلطة البابوية في الشرق فيما بعد، موجهة ضد الإسلام فقط، لكن ضد جميع الاتجاهات الدينية والفلسفية المستوحاة من الفكر العربي بطريقة مباشرة، سواء كما كانت شائعة في المشرق، أو كما صاغتها بعض المجتمعات في إسبانيا، أو في روسيا أو في جنوب فرنسا، وقد أفادتنا الأخبار القديمة أنّ سكان الأكتان (Acquitaine) والباسك، وسكان الأندلس أو الكاستي الذين لم يتأثروا كثيرا بعقيدة التثليث المسيحية، المتفتحين لليهودية والإسلام، كل هؤلاء كانوا يدعون "بالعرب"، ومن المفيد بهذا الصدد أن المسيحية المشرقية (الغنية بالإيمان والتقاليد الإنجيلية) لم تحاول قط أن تتخذ العبرية وسيلة لتبرير وجودها والحال أنها كانت جد مهيأة لتفعل ذلك.

وقد بقيت هذه الكثوليكية متمسكة باللغة العربية لغة الأسلاف والأجداد، والمسيحية اللاتينية هي التي عمدت إلى صورة متحيزة منحرفة من الروايات، واتخذت في ساعة مبكرة العبرية كسلاح، وأداة صليبية ضد العقيدة المشرقية وألهياتها.

وبناء على ذلك، إذا كان من التيهان أن يفصل العرب باسم سامية مزعومة، عن المجموع الثقافي المصري الكنعاني البابلي، مع أنهم جزء لا ينفصهم عنه، فمن الخرافة أن تخصّ اللغة العبرية بمكان على حدة، وما هي إلا فرع متأخر تعبدي من اللغة العربية، وهي فرع نظري جهلته الشعوب مدة طويلة، غير قابل للإثراء بسبب ذلك، ولأنه مفتعل إلى حد كبير.

ولا تزال العبرية إلى يومنا هذا من اختصاص مجموعة محصورة من العلماء. وليس لها في المفهوم الشعبي والتاريخي للفظ أي وجود خاص. وقد أخذ المدافعون عنها يفقدون ما حظوا به من سند ودعم، وأخذ العلم الحديث في إبطال قيمة هذا الشعار التعبّدي الملتحف برداء الدعاية البابوية الرومانية، وقد آن الأوان لتعويض عبارة "المرجع العبري" بعبارة "المرجع التوراتي" لأن الأولى لا تتطابق كما نلاحظ ذلك مع العبارة الثانية، أي التوراة، ذات الصلة المتينة بالعبارة العربية. (أو الآرامية على حد سواء). ولنعوض نُويْ باسمه العربي نُوح، وجُوب بأيوب، وجُوناس بيونس بن مَتَى وسَام بسام بن نُوح وأبرَاهم بإبراهيم ودافيد بداود، وآرون بهارُون وسَلمون بسليمان، وغُلياث بجالوت وجِيزُو بعيسى وماري بمريم، إذاك نكتشف من جديد رونق الإنجيل الأول ووجوده بالفعل، إذاك نعرف كيف استطاع أن يحفظ خلال الألف سنة بعد الألف لغة لا تزال بلهجتها وروحها هي لغة ملايين من البشر يسكنون اليوم بالمشرق، هم ورثتُهم بلا نزاع.

وإذاك نلمس بحواسنا أن اليهودية والمسيحية والإسلام، بل وحتى الديانات الزرادشتية، والشمسية، والأورقية (Orphique) والديانات السرية، وعقائد النجاة، وعبادات اليونان والروم، تفرّعت كإخوة وشقائق عن نظام فلسفي مشرقي، كما كان يسود بين النيل والأندوس، وتنقله لغة مشتركة هي الآرامية الحية المتمثلة اليوم في اللغة العربية. عندما يقول المسيح (عليه السلام) "كنت قبل أن يكون إبراهيم" فهو يؤكد أن دعوته ليست درسا مستنبطا من اليهودية. ولكنها ترجع إلى عالم روحي سابق لها. وقد التقت وتشابكت ما بين النيل والقوقاز واليمن تيارات صوفية روحية، واتحدت إلى درجة يعسر فيها البحث عن الحدود الجغرافية الفاصلة بينها.

إن العالم الثقافي، والديني والشعري المشرقي كان في العصور الأولى عالما موحّدا، وبقي كذلك طيلة مدة كبيرة. ومن ذلك إن الالهة إشطار (Ishtar) كانت منذ الألف الثانية قبل الميلاد، معبودة في طيبة (Thèbes) وبابـــل وقرقميش، وســـوز (Suse) قبل أن يعبدها اليونان، باســـم أفروديت، ثم الرومان بـــاسم فينوس (Vénus). وكـــان الأمبراطور ألكسنـــدر سفير (A. Sévère) في القرن الثالث الميلادي، وقد كبر في أنطاكية وعلمه أورجين(Origène) المصري، كان يعبد في كنيسة واحدة ثالوثا يجمع بين إبراهيم وأورفي (Orphée) وعيسى. إن المجتمع القديم لم يكن يحلّل الدين، بل كان يعيشه كما كان يعيش مع الطبيعة والأرض والسماء. ولم يكن يطرح على نفسه الأسئلة الشائكة التي اتخذتها عقلانيتنا موضوع شغلها اليومي.

وكيفما كانت الخاصيات المذهبيّة في ديانات بعل، ويهوى، وإزيس وأورفي أو عيسى (عليه السلام) فإنها كانت كلها ذات فكرة واحدة عن الإنسان، كانت تنظر إليه من علياء السماء، ولم تكن تعني قط بسعادته الشخصية، بل كانت مهمته بتلاؤمه وانسجامه مع العناصر، والبدايات الأولى والموت والكون. وبما أن تاريخ الكون لا ينحصر في مدة يوم، لكن يقاس بالسنة الضوئية، فإن المجتمع القديم المتشبّع بالدين، كان يعمل حساباته السياسية أو التاريخية اعتمادا على كميات كبيرة من الفضاءات والأزمنة.

ومعنى ذلك، إن حياة إنسان لا عبرة بها إلا إذا كانت مندرجة في واقع كوني وملحمي أي أسطوري لأن الله لا يمكن أن يكون إلا ملحمة. فهو ليس معنيا بتعداد حالاتنا النفسية أو تقلبات قلوبنا. إن التاريخ كما نتصوره مرئيا يوما بعد يوم، وحدثا بعد حدث، ليس في نظر إنسان العصور القديمة

إلا مغامرة تافهة. إنه كان يرى مصيره ويعيشه في صورة مأساة ذات طابع متعدد، تضطرب فيها شعوب بأجمعها ومدن سماوية وقوات هائلة، وفي هذا المستوى تنمّحي جميع الفوارق وتلتقي جميع الأديان في السماء، وبما أن السماء واحدة فالدين واحد. إن النزاعات بين العقائد لم تظهر إلا في وقت متأخر. ذلك أن هياكل بعل أو مثرى (Mithra) وكنائس اكسوم (Axoum) أو رمينيا، ومعابد أوزريس أو زوايا مابيــن النهـرين، ومساجــد وبيّع اليمــن أو سوريا، كانت تعبر خلال مدة طويلة عن عقلية واحدة.

وهذا صحيح إلى درجة أننا شاهدنا خلال القرون أنها تنتقل بالتوالي من عبادة إشتار، إلى عبادة أورفي (Orphée)، ومن عبادة رب اليهودة إلى عبادة رب عيسى أو الإسلام، فالتعصب الديني أو الفلسفي، إنما هو خاصيات العالم المعاصر. وفي اللغة اليونانية شاهد جد ثمين على هذا الاتحاد في الفضاء وفي الزمن. وأبلغ منها اللغة العربية التي نقلت منذ وجودها على ضفاف النيل وضفاف ما بين النهرين وإلى يومنا هذا، جميع ألوان التديّن التي صاغت مجتمعنا، وجميع التأملات والفلسفات والجماليات والعلوم السرية أو الظاهرة بدون استثناء. فبالعربية كان يتكلم قُس بعل، والمتعبد بدين إزيس أو موسى المصري، وبالعربية كان يتكلم عيسى (عليه السلام) عندما كان يتحدث مع كايف (Caiphe) أو يخاطب شعب فلسطين، وبالعربية كان يتحدث محمد (عليه الصلاة والسلام) فالخط المستقيم الذي سلكته ثقافتنا لم ينحرف قط. ومن السهل اليسير لفقيه في اللغة أن يكتشف في أصول اللغات المصرية والكنعانية والأناضولية أو السريانية البابلية، العناصر الأساسية من اللغة العربية، وقد نقلت الكلمة أحيانا بجملتها عبر القرون التي التي تختصرها بإيجاز مدهش، ومن أمثلة ذلك أن النصوص المسمارية

والآرامية تسمى بلاد ما بين النهرين سنعار (Senaar) وتسمّيها العربية اليوم شنـــعـــار (Shenaar). والإله شمس يطابق الكلمة العربية العصرية شمس التي تطلق على الكوكب أو الشرق، ومعنى بعل في العربية "الرب" وكلمة الرّب التي اشتق منها الرّبّى معناها الأب. وربّ البيت أي "صاحب البيت"، والزيادة التي تضاف إلى أسماء عديدة في التوراة وهي ملك، معناها صاحب... ويسمى إله الصاعقة البابلي بالبرق، وعربية القرن العشرين لا تزال تستعمل كلمة البرق. وإله الغنى يسمى عندهم جاد، والجدى في العربية الحديثة هو الرفاهية، والإله تموز صار يطلق اسمه على شهر يوليو العربي، وتذكرنا العبارات العديدة المستعملة فيما بين النهرين أو في التوراة المضمنة في كلمة شالم وشالوم بالكلمة العربية سلام، ويسمى إله الجحيم السرياني الفلسطيني موت، وتطلق الكلمة في العربية على الموت أي الفناء. والحج فيما بين النهرين يدل على العيد الطقسي أما في العربية فهو حفل زيارة الحرم. أما كلمة سبت، فمعناها يوم السبت في العربية وهي مشتقة مباشرة من البابلية ساباتو أي يوم اكتمال البدر. إلى غير ذلك مما لا نهاية له. وحتى اللغة اليونانية نفسها استمدت من اللغتين البابلية والآرامية قسطا ملحوظا من جذورها وتراكيبها. فإذا كانت الكلمة اليونانية "سبيلا" (Sibulla) (Sibylla) تطلق على شخص مقدّس ينطق بالغيبيات (العرافة)، فإن كلمة "السبيل" في العربية معناها "الطريق التي تؤدي إلى اللّه".

وتستعمل هذا اللفظ لتسمية المكان الذي يتخذ في كل مدينة أو حي للاجتماع والتأمل وتكون به غالبا عين ماء. إن الاغريق اليونان لم يخفوا قط أنهم منحدرون من آسيا، ويقولون إنهم تلامذة للمصريين والبابليين، وأن أربابهم عربية. إن نظرياتهم في الكون وأصل آلتهتم

منقولة مباشرة من الأناضول ومن كنعان. ألم يكن والد هزيود (Hésiode) من أصل إيولي؟ إن هردوت (Hérodote) يستغرب التمييز الواقع بين أوروبا وآسيا، لأنه يرى كما يرى مواطنوه، أن ثقافتهما واحدة. وفعلا إن اليونان ينحدرون من آسيا، وقد ورثوا بواسطة الاستعمار الفينيقي ثمار أربعة آلاف سنة من الجهود، قامت بها مصر وبابل. على أن انفجار هذا الميراث قد تأخر إذ أن اليونان كانوا قبل هومير (Homére) بألف سنة يتقلبون في الظلمات، بينما كان المصريون رعايا توتموزيس (Thoutmosis) يتمتعون بفن ورفاهية رفيعة. وبنقل الميراث الأسيوي لصقلية وإيطاليا في الغرب، نقل اليونان أيضا إليها الديانات العربية المختلفة، ولا سيما المسيحية، إذ أن الإنجيل إنما انتهى إلى غرب البحر المتوسط في لغة اليونان. فلماذا نبقى، نحن أبناء الهيلنية (Hellénisme) معرّفين محدّدين لأنفسنا بالنظر إلى الفلسفة اليهودية المسيحية لا غير؟

إن اليهود والمسيحيين ما هم إلا عنصر من المدد اليوناني الهليني: إننا في الحقيقة أبناء آسيا، وأبناء العروبة المصرية البابلية، ونطالب بالميراث أجمعه، ولنحذر من الأقوال المكررة المعادة، إن اليهودية والمسيحية عبارتان تنطويان على حقيقة معقدة وأوسع إلى حد بعيد من الفئات التي نحصرهما فيها، كما شاهدنا ذلك. وتوجد بشأن اليهود، أشياء كثيرة تحمل على الإحتيار، في تواريخ فلاقيوس جوزيف وفي الآداب اليونانية واللاتينية وحتى في الأناجيل نفسها، إذ أن القديس يحي (St Jean) يسمى أعداء المسيح باليهودية. فكيف يمكن أن نفسر أن المسيح (عليه السلام) الناقص لتشريع موسى (عليه السلام) قبل أن يحتفل بعيده الفصح

(Pâques) في تاريخ اختاره مجبرا، لعائق هو أن الاحتفال بفصح اليهود صادف يوم وفاته؟ وثمة مسألة أخرى غامضة، إن "اليهود" الآخرين، الدعاة الذين حرروا الأناجيل ابتداءا من سنة 70 أو 80، لماذا لم يشيروا في أي مكان إلى حدث يقال لنا أنه زعزع المجتمع اليهودي، أعني تخريب الهيكل الذي قام به تيتوس (Titus) سنة 70 بالضبط؟

ولماذا لم يتحدث فلاقيوس جوزيف نفسه عن يَسُوع الناصري إلا عرضا؟ وسؤال آخر خطورته لا تقل عن هذه الخطورة.

– إن الحواضر المسيحية الأولى ليست هي القُدس ولا الناصرة، ولكن العواصم العربية الكبيرة إذاك، وهي فلادفية، بطولمايس صارد، برغام، دمشق، إزمير، إفيز لاوديسي [1]، (Laodicée). ولماذا بعث سفر الرؤيا [2]، الذي يعتبر رسالة وحي، في نهاية القرن الأول، إلى الكنائس السبع العربية بآسيا؟ وهي الكنائس التي كانت تمثل بالضبط ديانات إزيس وبعل وأورفي (Orphée).

– إن سفر الرؤيا يتضمن "العن" من يدّعون أنهم من اليهود وما هم باليهود، "ولكنهم ينتمون إلى كنيسة الشياطين". وغريب أيضا هذا التصريح من القديس بول الذي يسمي مجموع المؤمنين "بإسرائيل" مؤكدا الغموض بقوله: "إن من ينحدرون من إسرائيل ليسوا كلهم من إسرائيل". وتروي الأناجيل أيضا أنه كان هناك "من اليونان من يقصدون إلى القدس للتعبد" فما معنى "اليونان" في هذه المناسبة؟ وما معنى "اليهود"؟ من الأكيد أن هذا التلاعب بالألفاظ غير واضح، ولابد من التحرر من العادات التي تمسكنا بها فيما يتعلق باختصاصنا المزعوم

1 - Philadelphie, Ptolemais, Pergame, Damas, Ephése.

2 - سفر الرؤيا Apocalypse

بالميراث اليهودي المسيحي. ولكنفّ عن الاستظهار بهذا الميراث، ولنستشهد بدل ذلك بالميراث الإغريقي الأسيوي.

وهل هناك طريقة مثلى للتخلص من المفهومين الخاطئين "الآرية" و"السامية"؟ أما اليهودية، والأورفية والمسيحية، والمانوية، والإسلام، والمذاهب الباطنية العديدة، فقد كان الناس يعتبرونها، كعناصر من مجموع لا يتجزأ. وقد كان تبادل الآلهة والملائكة يتم بكل سهولة لأن الناس كانوا فيما مضى مؤمنين إيمانا عميقا. وبما أننا لسنا اليوم كذلك، فإننا نتمسك بكل شدة ببعض المسائل الجدلية التي حصرنا فيها الدين.

وبما أننا لم تحول نظرتنا عن هذه الأشباح، فقد خفيت عنا دورة الشمس الكبيرة ولنعترف بأن أفقنا لا يتجاوز أنفسنا وبعض الآراء التي ورثناها وتؤكد لنا فكرتنا عن قيمتنا الرفيعة. إننا نعمل بجد وبحرص على إحكام الصورة التي نعجب بها. وبينما تقبل الشعوب ذات الثقافة الكبيرة، أن تعيش غير واعية ومندمجة جسدا وروحا في تاريخها، ينتابنا نحن الأوروباويين الأرَق الدائم بسبب سؤال دائم، إن الحضارة المصرية والكنعانية والبابلية والأناضولية قد جرت دراستها مفصولا بعضها عن بعض، حسب الطريقة "المونوغرافية" واخترعنا "عالما غريبا" على حدة. وأوغلنا في التحليل، فميّزنا ضمن هذه الحضارات مجموعات جهوية قسّمت هي الأخرى وفرّعت إلى طوائف صغيرة دينية وفلسفية وعائلية إلخ... وقد بالغنا في فن التشريح إلى درجة أن الحضارات ألت تحت مجهرنا الفتاك إلى فتات. وذلك لأنه في الوقت الذي تتقدم فيه الطريقة التحليلية تتدهور فيه النظرة التحصيلة الجامعة، التي لا يمكن أن يوجد بدونها التاريخ. والظاهر أنه من العسير على نقادنا أن يتصوروا تاريخ المشرق والغرب - لا انطلاقا من هذا البلد أو ذاك على حدة،

ولا انطلاقا من هذه المرحلة أو تلك - لا انطلاقا من وحدة ثقافية ومجتمعية تثبت الوثائق انسجامها الذي لا نزاع فيه.

إن الحدود العسكرية أو السياسية التي يرسمها الأساتذة والأركيولوجيون تبعا للحاجة، لا تتطابق بالضرورة مع شعور الإنسان. وعندما نؤكد في نظرة تحصيلية جامعة أن المشرق يتمثل بثقافته العربية وفي فضاء عربي، فلسنا نخترع شيئا: إنما نقصد التجميع والتوفيق بين العناصر الجغرافية والثقافية التي استبقيت إلى اليوم مفرقة بسبب الغلو في التحليل. وهذا القصد هو المسؤول الأول عن إقصائنا من العالم الحقيقي.

والمسؤول الثاني عن هذا التضليل، إنما هو التعليم العالي الذي تبثه الجامعات منذ عصر النهضة (الأوروبية) منوّهة بأثينا وروما دون غيرهما، فتصورهما الأوربيون مطمحا موهوما يتذكرونه باستمرار ويظنون أنهم اكتشفوا فيهما أعلى مثال لما يصّبون إليه.

ومن ذلك العهد لم يعد العرب يثيرون اهتمام الثقافة الأوروبية. وغاصوا في رمال عميقة خلصهم منها في القرن العشرين الإختصاصيون الذين اكتشفوا الجمل والقبيلة، والثارات القبلية والبدو. ومن ذلك أيضا أننا عمدنا منذ عصر النهضة (الأوروبية)، إلى تفسير الأزدهار الأقصى الذي انتهت إليه الفنونَ والصناعات والعلوم في عصور الخلفاء، باعتبار العرب مترجمين، وناقلين مقتبسين من اليونان. وقد دامت هذه الأسطورة ولا يزال يوجد إلى اليوم من العرب أنفسهم من يؤيدون ذلك، ويستظهرون بذلك للدفاع ولدعم أطروحات عربية. وقد قرأنا من كلام مؤلف حسن النية قوله: "لو لم يُترجم ابن سينا أرسطو، لم يكن ليتاح الوجود للقديس طوما الإكويني"

(St Thomas d'Aquin) والحقيقة غير ذلك. وهي أنه "لو لم يتخرّج اليونان عن الثقافة العربية، لم يكن ليتاح الوجود لأرسطو".

حقا لم تكن تسطع في عصر النهضة (الأوروبية) إلا أثينا وروما، وكانتا الفاتحة والخاتمة عند الإنسان المثقف، وأعــرب رونــزار (Ronsard) عن نهمه في الإطلاع قائلا: "إني سأقرأ الإلياذة في ثلاثة أيام". وكان من قصد رفائيل (Raphaèl) في لوحته الرائعة "مدرسة أثينا" أن يصور المعمارية النظرية التي تسمو إليها البشرية المتقدمة.

ويتحلى الأحبار الكاثوليك في روما بالجلال العسكري والقانوني الذي كان يتحلى به القياصرة. وفي الواقع إن الاكتشافات الفكرية للعصور القديمة كانت بداية للإنحسار الثقافي، لأن أثينا وروما اللتين كانتا دولتين متواضعتين نسبيا، إن غزتا الساحة الأوروبية ابتداء من القرن الخامس عشر، ففي مقابل ذلك انمحت من تقاليدنا ذكرى الثقافة العربية العريضة التي سادت من النيل إلى الأندوس، طيلة عدة آلاف من السنين. وقد انقلبت أثينا، ابتداء من القرنين الثامن والتاسع عشر تحت نفوذ أنصار الديموقراطية وحرية التفكير الذين استولوا على المدارس وتحكموا في تحرير المؤلفات المدرسية، معبودة التعليم الجمهوري، بينما انقلبت روما وقيصرها بروتوس (Brutus) شعار الفضائل المدنية. وقد مثلت العاصمتان إلهتين للجنس البشري فاتخذتهما الهيئات السياسية والبيانات المذهبية شعارا لها في المجتمعات الليبرالية الحرة. وكان دعاء (صلاة) إرنست رونان أمام الأكربول (Acropole) آية من هذه الشعارات، ومثالا رائعا في الوقت نفسه للبلاهة الأدبية.

فبالمقارنة إلى الأهرام وإلى هياكل الكرنك والأقصر، لا يعتبر البرتنون (Parthenon) إلا شيئا ضئيلا كما أن جمهورية أثينا، لم يشع أمرها ما بين

الانتصار في سلامين (Salamine) والاستسلام لصاحب إسبارطة (Sparte) ليزاندر (Lysandre)، إلا خلال سبعين سنة، ولم تكن إلا شيئا ضئيلا. وما تمثل الألف والمائة وخمسون سنة من دولة روما، أمام الآلاف الخمسة أو الستة التي عاشتها حضارة مصر وحضارة بابل؟ وهما الحضارتان اللتان ولدتا في عصور لا نعرف مبدأها ولا تزالان إلى اليوم تسودان بسلطانهما العتيد على أرض المشرق. وهل كانت دولة الرومان ليمتد عمرها طيلة هذه المدة لو لم تندمج منذ عهد أوكتاف أو غست (Octave Auguste) في مجموع ثقافي، ديني وسياسي كان يشمل مصر والأناضول وسوريا وما بين النهرين؟ وقد اتسمت الإمبراطورية الرومانية بالسمات العربية بمجرد أن أمر أغــريبا (Agrippa) بتشييد هيكل في روما للآلهة (Panthéon) في مفتتح العهد المسيحي. وقد شيّد الهيكل معماري سوري. وكان عهد فلافيانس (Flaviens) بداية الأسر الأسيوية، وتمتد بذلك حياة روما في بيزنطة، ويكون جوستينيان الممهد لدولة الخلفاء. وأين هو مكان أثينا في هذه الحالة؟ لقد كانت قرية منسية.

وإذا أشاد بها الخيال والتعصب الفني والسياسي، فالتاريخ قد منحها المكان الذي تستحقه. وما سلكت المسيحية ولا الإسلام طريق عاصمة بريكلاس (Pericles) بل طريق دمشق والمدينة والقدس.

ثم إن القرون الوسطى التي كانت معجبة بمصر وبالأرض المقدسة، لم تذكر قط أثينا في آثارها.

وقد أشـاد المؤلف الشائـع في ذلك العهـد وهو الأسطورة الذهبية (La Légende dorée) التي سجلت في القرن الثالث عشر، التقاليد الشعبية الأوروبية، بفلسطين وسوريا ومصر وبيزنطة والأناضول، ولم تشر إلا ببعض

الكلمات لأثينا. على أن هذه الأسطورة الذهبية المجهولة في أيامنا، تمثل مجموعة من المعارف والعلوم المختلفة مع المؤلف الذي أوحته لدانت (Dante) أكبر ذخر من المواضيع الفنية والشعرية والشعائرية عرفته المسيحية. إن العاصمتين اللتين تقوم عليهما دراستنا الكلاسيكية، قد تدهورت إحداهما وهي أثينا، إلى أرباض التاريخ، وقد لمعت حينا في سماء المفكرين ولكنها لم تنجب شيئا لشعوب المشرق والغرب، أما الأخرى وهي روما، فقد ذابت في بوتقة الثقافة العربية، وصارت وريثتها وشاهدا عليها بواسطة بيزنطة والكنيسة. فلنتأمل في ذلك لاستخلاص ما نصحح به اعتقاداتنا.

وقد آن الأوان أيضا لنميز بين تاريخ بعض القبائل التي يسعفها الحظ من قبائل شبه الجزيرة العربية وبين تاريخ العرب كما أن تاريخ فرنسا ليس هو تاريخ لالوزير (La Lozére) أو الجهات الجبلية المحرومة في الألب (Alpes)، فإن الواقع العربي والثقافة العربية لا ينحصران في مرابع ثلاثة أو أربعة أسر من البدو الرحل، يقص علينا الخبراء بكل إشادة وفي غموض ما لقيته من مصير كأنه معجزة، تحمل على الإعجاب. فما توجد معجزة في عالمنا، وإذا انتشرت الحضارة العربية في رمشة عين، من جبال البيرني (Pyrénées) إلى جزر الهند فذلك لأنها لم تكن سمة خاصة لجماعة من أكلة العظايات، تألهت فجأة. إذا انتشر الإسلام في قارات واسعة، وإذا عرفت اللغة العربية حظا لم تعرفه أية لغة أخرى وإذا كانت لغة لليهودية والمسيحية والإسلام والإلهيات والأسرار والسحريات، فذلك لأن حضارة هائلة أكسبتها سلطة تجاوزت ربوات الحجاز. وقد امتثل اليونان والرومان ومعهم الإتروسك (Etrusques) لهذه السلطة قبل أن تلحق بهم ممالك

الفيزيغوت (Wizigoths) في الغرب وأمراء الهند. ولهذا السبب نفسه يعسر الاعتقاد بانتصار اليونان في حروب الميد (Mèdes) أو بغزو الإسكندر لأسيا، كما يعسر تصور أي غزو عسكري لإسبانيا من طرف العرب الحجازيين وحدهم. فسواء في تلك الحالة أو في هذه فإن الفارق كان كبيرا جدا بين القوى إلى درجة أنه يجب البحث عن الأسباب العميقة غير التفسيرات المدرسية، للتعاون الذي كان بين من نسميهم بالفاتحين وبين البلاد المفتوحة، إذ لم تكن ثمة حرب أو نزاع بل تعاون، ويكفي في هذا البحث أن نتوخى النظر السليم النزيه بدل الاعتماد على المعرفة الواسعة.

وإذا رفضنا مفهوم "الشعب واللغة الساميين" لكونه مجرد هوى لا قيمة له علميا، وإذا فكرنا لنرى الأمور بوضوح دون مجاملة وتقبل للآراء المحكية، وإذا صمّمنا على تجنب الأحلام، إذن لابد من فهم العروبة على أنها ثقافة، وعلى أنها الثقافة الوحيدة في المشرق، ولابد من الأخذ في ضوئها في مراجعة ما تلقيناه من تعليم بالمدرسة بعنوان المشرق واليونان.

ولا يمكن أن نحقق ذلك إلا بشرط تجنب النظرة المضطربة، المجزئة للمشرق التي تلقيناها من أساتذتنا، مع توضيح ما يرجع إلى الإسلام وما ليس للإسلام. إن سياسة الإسلام قد مركزت السلطات حقا، ولكنها لم توحّد الأمم، وهذه الوحدة القومية والترابية التي استفاد منها الإسكندر قبل الخلفاء، إنما ورثها الإسلام من القرون السابقة. كما أن سياسة الإسلام لم تقدم المجتمع العربي، لأن هذا المجتمع قد ارتقى إلى أعلى مستوى في الحضارة من عهد الأسلاف المصريين والبابليين، وقد خرج الإسلام من الصحراء ولم يبق بها، وخاطب الجماهير الكبرى في الحواضر النهرية والبحرية بلغتها وبمنطقها. وقد كان الدين الذي أوحى للرسول (ﷺ)

مطابقا لفهمها. ولم يكن الإسلام لا بدعة غريبة ولا ثورة ولكنه حقق فقط ما اخبرت به الكتب السماوية السابقة. ولم ينف ولم يُنكر، بل جمع واختصر العقائد الروحية المشرقية العديدة في الظاهر، وعبر عن وحدة جوهرها بالإيمان والتصديق بوحدانية اللّه. إن القرآن لم يضف شيئا ولكنه جمع فأوعى، والقرآن لا يناقش ولكنه يستخلص، ولا يفرق بل يجمع.

وبتعبير صحيح لم يبّلغ دينا جديدا، إنه يدعو للخضوع للّه الدائم، القديم الحاضر في كل آن، الواحد الصمد الذي لم يُولَد العامر للكون. وليس هذا المفهوم في الواقع، مما ظهر صداه في ناحية من الصحراء، ولكنه خلاصة تأملات قرنا بعد قرن عبّر سهول النيل وكنعان وما بين النهرين.

وهو ينطوي على التفسير الكلداني لنشأة الكون، وللبعث المصري أو المسيحي، وللأمل في النجاة الذي فاه به أصحاب العقائد قبل أن يعبر عنه القديس سان جان (St jean). فالإسلام لم يكن شيئا جديدا غريبا عن شعوب المشرق، ولكنه أنار لها الطريق، وهذا شيء آخر، ولم يكن في حاجة إلى السيف ليقنعها، ولا إلى اضطهادها. وقد كانت هذه الشعوب مدفوعة بفطرتها وعقيدتها الموروثة إلى الإسلام. وقد اعترف اليهود والمسيحيون، وحتى المجوس واليونان والعابدون للآلهة المختلفة بأن خطابه ليس غريبا عنهم، وكما أن الإسلام لم يكسب الرأي العام بالنضال والكفاح، فكذلك العرب، إنهم لم يفتحوا المشرق والبحر المتوسط بالقوة العسكرية إذ كانوا في المنطقة منذ أقدم العصور؟ وعلى خلاف ذلك إنهم فتحوا الغرب الأوروبي ثقافيا وبالتالي الغرب الأمريكي، بتبليغ أديانهم وفلسفتهم وذوقهم إلى شعوبها. وهذا مشروع كبير كان حلفاؤهم ووسطاؤهم فيه اليونان، وأحفادهم الأثروسك، (Etrusques) الذين نشأت منهم المجتمعات الإيطالية.

وقد عزي هذا التوجيه الثقافي خلال مدة طويلة إلى الهيلنية وحدها، دون تقدير للمعجزة المفروضة لذلك ودون الاعتراف بأن بلاد اليونان إنما كانت شرفة لا غير، وملحقة للصرح العربي المشرقي، الأمر الذي يعترف به اليونان أنفسهم كل الاعتراف.

ولكننا، لقد كنا في هذه الحالة يونانيين أكثر من اليونان أنفسهم. وإذا جهلنا أن نسب بريكلاس (Péricles) وأوشيل (Eschyle) يرجع إلى آسيا، فلن نستطيع أن نفهمهما. وكذلك نخطئ بشأن الإسلام والعرب إن فصلناهما عن مهدهما الأول وروحانيتهما الأساسية.



خمسة بحار وخمسة أنهار وخمس إمبراطوريات

"إن الزمن صورة متحركة للأبد الذي لا يتحرك"
أفلاطون

إن هذه الأمم المسماة "بالسامية" زعما وتضليلا والتي هي عربية في الواقع، كيف كان نظامها السياسي في المنطقة؟ تجنبا للخطأ التقليدي الذي يجزئ فضاءها الجغرافي ويعمد إلى درس أجزائه مفرقة، في حين أنها أعضاء جسد واحد، تسري فيه حياة واحدة، فإننا نساير تقدمها مجتمعة عبر الزمان.

إن المشرق بلاد إمبراطوريات وقد عاش على وتيرة متسقة وحياة خمس إمبراطوريات هي الإمبراطورية المصرية، والبابلية والرومانية والبيزنطية، والخلافية (الإسلامية).

وسنرى إن كل واحدة من هذه الدول، كانت تخلف سابقتها دون أن تغير من هياكلها المجتمعة أو الثقافية، بحيث أن الاستمرار والاستقرار توالى بدون انقطاع في المشرق، منذ الفرعون الأسطوري الأول منيس (Ménès) الذي ملك في الألف الخامسة قبل الميلاد، إلى خلع آخر خليفة، مرورا بعهد الإسكندر المقدوني وكان استمرارا لغويا، وفكريا واقتصاديا.

كانت التغييرات التي حدثت خلال القرون جد هينة بحيث تثبت لنا أن التاريخ كان يتقدم بأناة كبيرة، تتناقض مع سرعة الأفراد. إن المصري اليوم قديم كقدم المصري المعاصر لرمسيس، كما أن اليمني الذي عاش في

عهد بلقيس ملكة سبأ، ليس أقل عصرية من أي تاجر في عدن يومنا. فكل شيء يمضي كما أن الزمن يمثل الصورة المتحركة للأبد الذي لا يتحرك. إن الدول الأربع المشرقية لم تقتصر على السيادة على الأراضي الواقعة بين ليبيا والبحر الهندي، والبحر الأسود والصومال. وقد مدت من ساعة مبكرة نفوذها على اليونان القارية والجزرية، وعلى صقلية وإيطاليا الغربية، قبل أن تنتهي إلى مجاز جبل طارق (Gibraltar).

وكانت فلسطين وبحر إيجي (Egée) مفتاحي مجموع البحار الخمسة: البحر المتوسط والبحر الأسود والبحر الأحمر، والخليج الفارسي - العربي - والمحيط الهندي، التي تغمر المنطقة بمياهها، أما أنهار دجلة والفرات والنيل والرون (Rhône) والدانوب (Danube)، فهي تمثل سبل الانتشار.

وقد نشأت حضارتنا خلال العصور في مثلث محصور بين البسفور والنيل وسوز (Suse) عاصمة العلاميين (Elamites)، وقد أنجبتها شعوب مصر وكنعان والأناضول والآشوري البابلي التي تنتمي إلى أسرة واحدة، هي الأسرة العربية. وليس من المهم أن نعرف من أين جاءت هذه الشعوب، لأننا لن نعرف ذلك في الغالب. وحتى لو عرفنا ذلك فلن يفيدنا في استنتاجاتنا. وينبغي أيضا إدراج حضارتي القرم (Crimée) وبحر قزوين (Caspienne) في محيط هذه الحضارة.

ولنتأمل خريطة تمثل بلاد المشرق: فما هي الحواضر الكبرى التي تظهر وتنمحي وفقا للمأساة التي ترجع إلى الألف الخامسة قبل الميلاد، إذ لا يسمح لنا جهلنا بالرجوع إلى أبعد من ذلك؟ هذه الحواضر التي سطعت أسماؤها أربعة: ممفيس، (Memphis) وصور (Tyr) وبابل وسوز (Suse). وقد خلفتها ست حواضر أخرى هي الإسكندرية وقرطاجنة وروما. وأنطاكية

وبيزنطة، وسلوقية (Séleucie). وأخيرا ثمة اسم يسطع وحده هو بغداد، الحاضرة التي تعتبر خاتمة لإنفجار ثقافة جذبت وراءها من قبل أثينا وقرطاجنة وسيراكوز، وكوم (Cumes)، ولكن مراكزها الكبرى بقيت هي مصر وبلاد ما بين النهرين. وباستثناء هذه المدن المشهورة فإن باقي خريطة المشرق يسوده الظلام، فلا نتبين فيها لا تيماء في شمال الحجاز، ولا مأرب في اليمن اللتين تشهدان مع ذلك، على أنه كانت توجد في تلك العصور البعيدة وحدة ثقافية تضم سكان الصحراء العربية والممالك النهرية الغنية، أعني بين "الساميين الجنوبيين والساميين الشماليين" كما يمكن أن يقول علماؤنا الذين يتخوفون من النطق بكلمة "العرب". كما أننا نلاحظ في الخريطة كويتاتونو (Khouitatonou) الذي عاش الثورة الدينية في عهد أخناتون أمنوفيس الرابع، والنهر مليس (Meles) الذي يوجد على ضفته ضريح أورفي (Orphée)، وبيت لحم (Beethléem) وأسوس (Assos) في طراقيا (Thracc)، التي تكوّن بها أرسطو، الأمر الذي يدل على أن الأركيولوجيين والعلماء يمكن أن يتجاهلوا مدينة ما، لكن التاريخ لا يمكن أن يتجاهلها، بسبب ذلك. ومهما كان، فثمة مدينتان ومعلمان، تحتلان مكانا رئيسيا في تاريخ المشرق وإن كانت شهرتهما متواضعة، وذلك لأنهما تدلان على الحركة الشاملة وعلى وجهة القوى. هاتان المدينتان هما: غزة على ساحل فلسطين، وقرقميش في الجهة العليا من وادي الفرات. وقد كانتا محطتين ثقافيتين وتجاريتين، وكانتا بالطبيعة ميداني معارك. وكل منهما كانت مرحلة في الطريقين العالميتين في ذلك العصر. كانت مفاتيح أحداهما العواصم المصرية أعني ممفيس أو طيبة. وخليج العقبة كمدخل متصل بها، كانت هذه الطريق مسايرة لوادي النيل وللبحر الأحمر، وتنصرف منها منتجات السودان وغرب افريقيا، وهي تتجه في الجنوب إلى

الشمال، وفق خطوط الطول، انطلاقا من اليمن مستعينة بمخازن الحجاز، ثم تتحول إلى نينوى، مسايرة مجرى الفرات، لتهبط إلى بابل. ولها فرع آخر يتجه عن طريق برّية إلى البحر الأسود.

وقد حرص الفراعنة باستمرار على أمن هذه الطريق المارة بالفرات الأعلى والتي تنتهي بالضبط عند قرقميش. وقد استطاعت مصر بحملات عسكرية متوالية أن تفرض حمايتها على فلسطين وعلى شمال سوريا. وهناك طريق ثانية هي آسيوية، مركزها بابل. وهي متجهة من الشرق إلى الغرب، كخطوط العرض وتنصرف منها منتجات الهند والجزر الهندية، مثرية عمان ومجتازة بمجاز أورموز (Ormoz) لتمتد مع الخليج الفارسي، وتصعد بعد ذلك إلى سيسية (Cissie) وماتيان (Matiane) وأرمينيا وسليسي (Cilicie) وكبدوسيا (Cappadoce) وفريجيا (Phygie) وتلحق بسارد (Sardes)، العاصمة الكبيرة في آسيا الصغرى، ومن ثم تتجه نحو برغام (Pergame) وازمير، وإفيز (Ephése) وميلات (Milet) التي كانت آهلة بالتجار وأصحاب المراكب اليونانيين. وتمر هذه الطريق الثانية أيضا بقرقميش التي تلتقي بها الدولتان المصرية والبابلية أي الإفريقية والآسيوية، متكافئتين عند تساوي قواهما، أو متحاربتين عند تراجع قوات إحداهما أمام الأخرى.

وكان (النهرينة) أي الحوض الأعلى من الفرات مع قرقميش المحط الإستراتيجي الذي اشتد التنازع عليه في العصر القديم. كان سكان الأناضول، أصحاب هذا المحط المتنازع عليه، يريدون أن ينشئوا بدورهم عليه دولة: هي دولة الحثيين أو المثانيين (Mittanien) التي كانت تحارب أو تتعاون تارة مع مصر وتارة مع آشور وبابل، والتي عرفت مصيرا وازدهارا كالدولتين المنافستين لها وإن كانت أقصر عمرا منهما.

وبناء على ذلك، فإن المبادلات الكبيرة المستمرة، كانت تشمل خلال ثلاثة آلاف سنة على الأقل (وأكثر من غير شك) ثلاث قارات آسيا وإفريقيا وأوروبا. وقد تزودت اليونان ومنطقة إيجي (Egée) عن طريق بابل وآسيا الصغرى، بالثقافة وبالمنتجات المجلوبة من الهند والكلدان. واتصلت شبه الجزيرة الهيلنية عن طريق النيل وفلسطين بالمنتجات الإفريقية والأثيوبية واليمينية. وفي الإتجاه المعاكس، ينظم المسافرون والتجار اليونان وغيرهم رحلات إلى البلاد القاصية كأنغولا وسيلان ومعهم ثقافتهم وبضائعهم. وقد تأكدت ظنوننا منذ أعرب بول قاليري عن نظراته المتفائلة قائلا: إننا نعتقد بأن آفاق العالم قد تقاربت لأننا أصبحنا ننتقل بسرعة. وقد استشعرنا خطأ بأن بشرية العالم القديم لا تتحرك، وأنها كانت ذات نظرة قروية محصورة، لا تعرف الشعوب المتجاورة بعضها بعضا. بل الأمر على العكس، فمن المحقق أن قيام الحدود الوطنية وجمود العادات، والتمييزات والأهواء التي تفرضها حياتنا اليومية، قد جعلت الإنسان المعاصر أكثر ملازمة للبيت، وأكثر خوفا مما كان في الماضي. إن السفر بسرعة وبسهولة لا يزيل المشاكل، بل العكس. ومعنى ذلك أنه في هذه الحالة، لا يتوفر له الاستعداد الكافي للاهتمام كما ينبغي بالبلد الذي يزوره. إن ظروف إقامته ونقله بالذات، تعزله أكثر مما تقربه من الآخرين.

إننا نسافر في قفص مصنوع لنا خاصة، ولا نخرج منه إلا بعد رجوعنا إلى منزلنا. وهل يمكن أن نسمي مثل هذا الانتقال سفرا؟ أما في العصور القديمة فأن الناس ينتقلون جماعات وقبائل وأمما وأسرا كاملة، لتستقر مدة طويلة أو قصيرة في غير وطنها. وفي اخباريات مصر وبابل وفينيقيا والأناضول واليونان أحاديث طويلة عن الهجرات والجاليات والإرتحالات والإحتلالات.

كان الناس في العصور القديمة ينتقلون كثيرا، ولا يمكن الظن بأن هؤلاء الناس، من الحجاز وحضر موت وصنعاء ومكة والمدينة، بقوا مجرد متفرجين، فقراء غير ناشطين، بينما يقع بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب تداخل واختلاط عجيب، يستتبع انتقال الأموال والمعادن الثمينة والأسلحة والمراكب البحرية والأفكار. والعقائد والآلهة، إنهم كانوا ينساقون مع حركة الآخرين، لايجهلون شيئا مما يجري في سارد (Sardes) أو سوز أو نينوى أو الكرنك أو أثينا، ويكرعون عن المنابع الثقافية الواحدة، وهم يخضعون في كل شيء ومن أجل كل شيء، للمصير الذي يتقرر في العواصم الكبرى القائمة، كما كان ذلك ولا يزال. لهذا السبب لا يمكن أن نعرف شخصية بلد ما، بدراسة تاريخية تعتمد على صور محددة، لأن شخصيته تنطوي في الحياة والسلوك والحركة التي تقوده أو التي يوجهها هو، أن مشاهدة التاريخ بطريقة أخرى غير العرض السينمائي معناها، وقف حركة دمه، وغيض معينه.

وإذا حصرنا تمثيل الشرق بصورة الإمبراطوريات الثلاث، مصر والميتانيين / الحثيين، وبابل، فليس غرضنا هو الإختصار، بل لأن مملكتي الميد (Mèdes) والفرس الخارجتين عن مركزيهما، اندمجتا في ساعة مبكرة، بالغزو عند الحاجة، في الدول القريبة من ساحل البحر المتوسط.

إن الزحف إلى البحر كان هو القانون الدائم في التطور في الشرق الأدنى. فكما أن سوز تترك للإستقرار في بابل، فإن عاصمة مصر تستقر أخيرا في الإسكندرية، بينما تنزل دولة ليديا (Lydie) في بيزنطة، وتنتقل الإمارة السلوقية السورية إلى بعلبك ودمشق. وقد بكر الميد (Mèdes) والفرس للتقدم نحو الغرب ونحو أقربائهم وجيرانهم، وكشفت المصنوعات الخزفية والمنحوتات

على الصخر والتماثيل، الشبه الظاهر بين بشرية وادي الأندوس (بشر هرابا Harappa عامري Amri وروبار Rupar) وبشرية سومر وسوز، منذ الألف الثالثة قبل الميلاد. وتعتبر البناءات المسطحة في بسر غاد (Pasargade) وبرسبوليس (Persipolis) ومسجد سليمان من النموذج البابلي. كما أن التماثيل الضخمة لحراس القصور الملكية في فارس الجنوبية، إنما هي تقليد للفن الحثي أو الأشوري. ويذكر تزيين الهياكل الأخمينية (Achéménides) في سوز (Suse) باللّبن المرصّع، وبأسادها وصقورها الصهباء وحيواناتها الخرافية المجنحة بالرسوم الجدارية الممثلة لإشتار في بابل. وهذا كاف ليدّل بوضوح على أن الحدود الفاصلة المعروفة التي أقرها البعض بين الفرس الأريين والعرب الساميين غير مقبولة. كما أن النظرية التي تدعيها السلطات الإيرانية اليوم، القائلة بأن إيران غير شبيهة بالعراق منذ أقدم العصور المجهولة بجنس سكانها وعقليتهم وتقاليدهم، نظرية غير صحيحة. ومثل هذه الدعوى قد تكون ذات معنى في المجال الدبلوماسي، أما تاريخيا فلا معنى لها.

إن تاريخ البلاد الهندية الإيرانية منذ عهد الملك الميدي الأول المعروف سياكسار (Cyaxare) الكبير، إلى آخر ملوك الفرس وهو دارا كدومان (Darius Codoman) الذي انتصر عليه الإسكندر، تاريخ تسود فيه العلاقات بين بابل ومصر واليونان، ولا تعتبر حروب الميد إلا حدثا عارضا. ألـم يحرر دارا (Darius) في الخمسمائة قبل الميلاد القانون المصري بالأرامية لتطبيقه في جميع بلاد الإمبراطورية؟ وكما أن الجيوش الفارسية سلكت طريق غزة وقرقميس، سنرى الإسكندر مقلدا لها، وخلفاءه من إمبراطوريات بيزنطية، ودول الإسلام يحْذون حذوه. إن التاريخ شبيه بالكواكب وهو موجّه في مدارات لا تتحول ولا تنحرف.

عندما التحق الكلونيل لورانس (Lawrence) في فبراير 1911 ببعثة التنقيبات التي أجريت في قرقميش، بعد الاتفاق المبرم بين العثمانيين والحكومة البريطانية، إنما كان يبحث بالتحقيق عن آثار العرب، لأنه كان على يقين من أن هذه الكلمة تخفي حقيقة غير الحقيقة الضعيفة التي علموها له في أكسفورد (Oxford). وقد كانت الاكتشافات التي تمت في قرقميش، ملتقى تقابل النفوذ المصري المتوسطي والتيارات الهندية البابلية، شبيهة كل الشبه بالأشياء التي عثر عليها في غزة وتيماء في الحجاز، وفي مأرب والبحرين. فلا نزاع في أنه يستحيل التمييز بين عدة ثقافات وبالأحرى محاولة التوزيع الجغرافي لسكان لم تتحقق حتى تسميتهم.

إن تحديد سعة النفوذ المصري في العالم القديم، عمل فوق طاقة البشر، ولا يقدم على مثل ذلك أي إنسان، نظرا إلى أن وثائقنا قليلة، وللجهل التام طيلة قرون كاملة بحياة المناطق الواسعة مثل مقدونيا والقرم والأناضول وإفريقيا الشمالية أو الشرقية. وليس لنا فكرة عن السيادة الاقتصادية والفكرية التي مارستها باستمرار حواضر ممفيس وطيبة والعمارنة. إن تصورنا تعوزه نقط عديدة يستند إليها. وعلى كل فإننا نعلم أن السياسة الآسيوية التي اشتهر بها توتموزيس الثالث (Thoutmosis) ورمسيس الثاني، انطلقت في منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد، حوالي سنة 2600 تقريبا، كما أن الحملات إلى البحر الهندي قد عرفتنا بها الصور الجدارية، على ضريح الملكة هاتشبسوت (Hatschepsout) من الأسرة الثامنة عشرة، وأن الحضارة الإقريطية والقبرصية تنتمي إلى مصر وكنعان، وأن رفاهية فينيقيا بلغت أوجها ما بين القرنين السابع عشر والخامس عشر قبل الميلاد، في وقت كانت أساطيل صيداء تابعة لسلطة الفراعنة. أما اليونان التاريخية، كما تبدو لنا من خلال أدبها، فقد ظهرت إلى الوجود في عهد الفرعون بسا ميتيك

(Psammétique) الذي سمح للبحارين اليونان في القرن السابع قبل الميلاد بالنزول في موانئ مصر. وقد وضع صولون (Solon) أول كبار المشرعين الأوروبيين، دستور أثينا حوالي سنة 590 (ق.م)، وهو متخرج من المدارس المصرية. وأقوى نص يدل على عظمة مصر العالمية إذاك، قد نحت على مسلة الكرنك التي أقامها الفرعون توتموزس الثالث، للإشادة بالإنتصارات العديدة التي حازها خلال عدة سنوات، في اتجاه غزة، ومجيدو، (Magéddo) وقوادس، وقرقميش والفرات، ما بين 1480 و 1475 (ق.م). وقد كانت البلدان من أثيوبيا إلى سيليسيا (Cilisie) من محمياته بلا نزاع.

وقد صرّح له الإله قائلا: "أمنحك بقرار، الأرض طولا وعرضًا، وقد حضرت وأذن لك باستعباد أرض الغرب، بحيث تكون كافيتي Kafiti وقبرص مروعتين بحولك،.. قد حضرت وأذن لك باستعباد من هم في طريقهم، بحيث ترتعش أراضي الميتانيين من الرعب.. وقد حضرت وأسمح لك باستعباد من يوجدون في الجزر... أسمح لك باستعباد أهل تيهونو (Tihonon) وأهل هعيروشايطوا، (Hironshaiton) والبدو وأهل النوبة إلى بلاد البونت، "(Pount) وقد تبيّن للبعض أن من بين أسماء الشعوب المنصوص عليها، اليونان والليبيون وشعوب غرب البحر المتوسط، بحيث لا يمكن أن نستبعد أن الدولة المصرية، كانت تمارس سلطانها في منتصف الألف الثانية (ق.م) على من سماهم هوميرفيما بعد، بالآخيين (Achéens).

ومما يحمل على الإحتيار، أن الملك الأسطوري مؤسس أرغوس (Argos)، كان هو المسمى دناوس (Danaos) المنعوت "بملك مصر"، ومن بين من خلفوه المسمى أغاممنون (Agamémnon) البطل المهزوم في حرب طروادة.

وقد اتخذ يونان عصر هردوت، من توتموزيس الثالث بطل إحدى أساطيرهم الغربية، وقد تمثلوا في النصبين الكبيرين الحارسين للهيكل الذي شيّده الفرعون بالقرب من غرنة (Gournah)، صوت ممنون (Memnon) ابن الأورور، (Aurore) وأخ بريام (Priam) ملك طروادة، وهو ملك على الإثيوبيين أيضا. وكانوا يرون أيضا أن المدينة الفارسية سوز (Suse) شُيِّدت إكبارا لممنون هذا الذي ولد حسب الروايات تارة في سوريا، وتارة في الأناضول، أو في مصر العليا، إنه بطل عربي معروف، وكان له ضريح على الضفة الأسيوية من الدردنيل، ويقال إن أسرابا من الطيور، المجسدة لأرواح رفاقه الخالدة، تحضر في كل سنة، وتتفرق إلى جمعين متعارضين لتتقاتل في الختام. وذلك بكاء على وفاته.

إن انتشار مثل هذه الأسطورة في الجهات الأربع من العالم المتحضر، في سوز (Suse) وطيبة وفي اليونان والدردنيل، يدل على مدى الانسجام الثقافي في ذلك العصر، وعلى إشعاع مصر الفرعونية السائدة، على أن توازن القوى قد تغير عندما اتجه الفرعون ستي (Seti) الأول ورمسيس الثاني من الأسرة 19 بجيوشهما نحو غزة وقوادش. ففي شمال قرقميش قامت الدولة الخاتية (Khati) الميتانية الحثية القادرة على الوقوف في وجهها ومقاومتها مقاومة جدية.

واضطر رمسيس الثاني لذلك رغم انتصاره، إلى إبرام معاهدة حلف مع الأمير الحيثي خاتوساروه (Khatousarou) دعمت بزواج رمسيس مع البنت الكبرى لأمير الحثيين التي أعلنت كملكة في هذه المناسبة باسم تقليدي "أوريما أونو فيروري" (Ourima ouno firouri) أي التي تتملى الشمس في جمالها". أما الانتصار الثاني في قوادش، فقد نوّه به الشاعر في القصيدة الملحمية الرائعة المنسوبة "اللبنتوريت" (Pentaourit) وتفيد هذه القصيدة

بأنه كان يشارك في الحرب مع الحثيين وضد المصريين، "رئيس أراد Arad وليديا وإيليونت (Ilion)، ورئيس الدردانيون، ورئيس قرقميش"... وإليون! أي الطروادیون (الدردانيون)، وبذلك تبدو لنا العلامات الواضحة الدالة على حرب طروادية مع جميع الخلفيات العربية، التي لا يشير إليها المؤرخون الكلاسيكيون. ومهما كان فإن مصر بقيت صاحبة السيادة على سيناء وعلى شبه الجزيرة العربية وعلى بلاد الأردن وساحل فلسطين من غزة إلى منابع نهر العاصي (Oronte)؟ وذلك بالرغم من تكرر الغزوات. وبمجرد وفاة رمسيس الثاني وتولي ولده الثالث عشر منفتاح العرش، تهجّم ملك ليبيا ماريو (Maraion) الذي كان يحكم البلاد من الفيوم إلى سواحل سيرت (Syrtes)، على مصر واحتل جزءا من الدّلتا، والغريب أنه شاركه في حملته الآخيون، والصقليون والليسيون وشعوب غريبة اسمها هو إسم شعوب معركة قوادش، الأمر الذي يحمل على الاعتقاد بأن الجغرافيا ليست بالضرورة هي التي تمنح شعبا ما إسمه وأصالته، إلا إذا كانت هناك هجرات أسيوية منذ عهد طويل إلى غرب البحر المتوسط، وكان الأخيون (Achéens) من هؤلاء المهاجرين، لم يتمكن بعد أي شخص من إعطاء تسمية واضحة لجموع الجيش الليبي والملك ماريو (Maraion). وقد هزم هذا الجيش فتفرقت أشلاؤه. وتبين المسلّة التي تشيد بانتصار منفتاح في نقش عليها حوالي سنة 1229 (ق.م) أن الهزيمة الليبية كانت هزيمة أسيوية.

ولا ندري لما ذلك؟ ويقول النص فعلا ما يلي:

"منذ هُزم الليبيون، لم يعد أي بدوي يرفع رأسه، إن خاتي (Khati) يتمتع بالسلم، وكنعان سجين شروره، ورجل أسكلون مساق، وغيزر (Guézer) معتقل، واسرائيلو مكتسح، وأبيدت أنسامه، وخاروا (Kharou) شبه أرملة

بأرض مصر". ومن الشراح من بادروا إلى التمسك بكلمة "اسرائيلو" ليستدلوا دلالة قاطعة على وجود مملكة لإسرائيل. وفي الواقع إن معنى الكلمة لا يقبله أي اشتقاق خصوصا وأنها كما يسميها النحويون "أباكس إرمنون" (Apax eirmenon) أي أنها لم تذكر إلا مرة واحدة فقط في نص، وأنها لم تذكر مرة أخرى في مجموع المقيدات، ونضيف أن فلسطين وسكانها كانوا يسمون من الألف الثانية (ق.م) إلى عهد البطالسة ببلاد الأموريين (Amourrou) (أو العموريين). فمن المستحيل اليوم كل الإستحالة أن نجد معنى جنسيا أو جغرافيا لإسرائيلو.

وقد تلت هذه الغزوة الأولى غزوة ثانية أخطر، يمكن أن تعتبر هجرة من الشمال إلى الجنوب، شارك فيها أقوام مختلفة يدعون ترسان (Tyrsènes) وزكالة، ودناوو (Danaon) وبولاساتي (Poulasati) الذين يعتبرون في رأي علماء المصريات، أنهم فلسطنيو التوراة، ويبدو أن دولة الحثيين قد تفككت بعد هذه الغزوة، ولكن هل هي غزوة حقيقية أم هي ثورات محلية؟ ومن الإفتراض الاعتباطي أن تعتبر الغزوة مناسبة لاستقرار قبائل هند-أوروبية في بلاد سامية. فلا شيء يسمح لنا باعتبار الفلسطيين شعوبا من غير جنس المصريين أو الميتانيين (Mitani).

وهل كانوا أجانب إلى هذا الحد؟ وهل الفرق الصوتي والمعنوي كبير إلى هذا الحد بين كلمة "الفينيقيين" وكلمة "الفلسطينيين"؟ ألسنا هنا أيضا ضحايا مستسلمين للأحكام الشائعة بخصوص التوراة؟ وقد نظم رمسيس الثالث حملة منتصرة ضد هؤلاء الفلسطينيين المزعومين وضد "شعوب البحر" وكان من هذا الانتصار أن تقدمت الجيوش المصرية سنة 1190 تقريبا (ق.م) إلى النهرينة (Nahraina) بالقرب من قرقميش، وقد نقشت أسماء الأسرى في

مدينة هابو (Habou) فكانت شبيهة بالأسماء المعروفة في عهد توتموزيس الثالث أو رمسيس الثاني، ومن بين الرؤساء الذين وكلوا إلى غضب أمون (Amon) نجد أهل قرقميش وأراد والميتاني والمانو، والخاتيين، إلخ.

وسيستمر استقرار الدولة المصرية خلال الأسر التالية بما فيها أسرة البطالسة اليونانية. حقا إن العاصمة الإدارية ستنتقل من طيبة إلى تنيس، بوبستي، ومنداس، دون التخلي عن مقدسات ممفيس وطيبة. وسواء كانوا ليبيين أو إثيوبيين فإن الفراعنة الذين حكموا مصر لم يتوقفوا عن حفظ حمايتهم أو تمديدها في اتجاه النيل الأعلى وسوريا، ولن تكون لفلسطين خاصة سيادة ذاتية. إننا لم نكتشف إلى اليوم أية عبارة أو أية إشارة تسمح لنا بالكلام عن وجود عاصمة عبرانية أو ملوك عبرانيين.

لم ينقش لا اسم داود ولا اسم سليمان في أي مكان ولم تذكر الانتصارات اليهودية التي أشادت بها التوراة في أي مكان، وقد كان صمت السلطة الفرعونية بهذا الشأن صمتا شاملا، مع أنها معنية بسرد جزئيات الأحداث الكبرى السياسية والعسكرية بالمنطقة، وكيف يمكن بعد هذا أن نرى في التوراة شيئا آخر غير قصيدة مثل ملحمة طروادة وضعت لتسجيل نزعات وشجارات محلية قروية، بين جمعين من قبيلين أو بين الاهين أو صاحب أرض وآخر سمي في هذه الحالة "ملكا" إن التاريخ لم يعترف لداود ولسليمان بأكثر مما اعترف لأخيل (Achille) أو لأوليس من الواقعية، ولم تكن جزيرة إيتاك (Ithaque) الهينة في نظر دول ذلك العصر، شيئا يعتد به على غرار القدس وسيشم (Sichem)، ومن الغريب أن وثائق التوراة التي حررت باليونانية ألفا وثلاثمائة سنة أو خمسمائة سنة بعد الأحداث التي تحدثت عنها، تستخدم اليوم كمرجع لا نزاع فيه لعلماء جديين لا يزالون ينقلون عن الإخباريات (Chroniques) والملوك وكتاب

سمويل (Samuel)، كما لو كان ذلك صورة مصورة للرجال وللأماكن، إن تفسيرنا لأشياء المشرق سيتحرر من سلطان الأحكام الشائعة، عندما نعدل عن استمداد علم التاريخ من التوراة.

إن علماء المصريات الغارقين في شبكة من التأكيدات المتناقضة، يقولون أن مصر عرفت ابتداء من الأسرة الواحدة والعشرين والأسرة الثانية والعشرين حوالي سنة 900 ق.م، اضمحلالا، وتوسعا إمبرياليا، وأزمات، ولا سيما موجات من المهاجرين قدموا من كل صوب وأغرقوا مصر في الختام في خضم دولي كبير، ولاحظوا وصول عدد كبير من المشواشة (Machouacha) المرتزقين والعمال والموظفين، هؤلاء "الغرباء" الذين تكفلوا بإدارة البلاد وسياستها، مكان الطبقة الأرسطوقراطية المصرية الصرف.

مثل هذه الفكرة غريبة تماما عن تسامح المشرق الدولي مبدئيا، فلم يوجد قط مصريون أقحاح كما لم يوجد "بابليون أقحاح" ففي الفترات "الخالصة" من تاريخ مصر، كان الغدو والرواح مستمرا وكان عدد الواردين على غرار عدد المهاجرين، ونكرر القول بأن مبدأ "الميز" العنصري، أو الديني إنما ظهر في أوربا في عصر "الأنوار" مع المذهب العقلاني المزعوم الذي أقام الحدود الفتاكة بين الأجناس والأديان المختلفة، في حين كان أصحابه يؤكدون وجهته العالمية والتوحيدية، إن جمود الدراسات العقائدية في القرون الوسطى مسؤولة عن انحراف وضلال عقليتنا التاريخية، إنها تتحدث مثلا عن غزو الأشوريين لمصر حوالي 670 ق.م، في عهد الأمير تاهرقة (Taharqua) من الأسرة الخامسة والعشرين الذي ملك في تنيس، وقد استاء الملك أسرهدون (Assarhadon) ملك الأشوريين من الثورات التي كانت تنشطها مصر ضده في فلسطين وبلاد ما بين النهرين، (الأمر الذي يدل على أن مصر

لم تفقد سلطانها..) فقرر التدخل في وادي النيل، ويقال إنه سلك طريق الصحراء ولم يمر بالدلتا الأهل المحمي، واستــولى على ممفيس، وفشــل في هجومه على طيبة فرجع بسرعة إلى بلده، أهذه جولة عسكرية أو غزوة؟ وقد جرت لولده أشوربنبال (Assourbanipal) مغامــرة شبيهــة، إذ دخل مصــر في سنة 666 ق.م، وخرج منها في الحال، وكرّ راجعا في سنة 664 ولم ينجح في مراده، ولم يستطع الملك نابوشودونوسور (Nabuchodonsor) بعد ذلك بقرن، الوصول حتى إلى النيل، وبالفعل فإن قمبيز (Cambysc) فرض الحماية علـى مصر ولكنـها حماية شكـلية خالصـة، إذ كـان الـفرعـون نكـتانـبو (Nectanebo) ملكا على مصر في سنة 360 ق.م، وهل يجوز أن نعتبر هذه الحماية "غزوا" في هذه الحالة؟

وقد حصل لنا عن بلاد ما بين النهرين من المعلومات مثلما حصل لنا عن مصر، بفضل المكتبات المصرية التي اكتشفت في نينوى أو في أماكن أخرى، من جهة، وبفضل إخباريات القس البابلي بيروز (Berose) الذي حرر الأخبار الملكية في القرن الثالث قبل الميلاد، بطلب من الملك السلوقي أنتيوكوس الأول صحيح أن هذه الأخبار قد ضاع بعضها وأنها هينة كالتي حررها القس مانتون Manethon خاصة بمصر، في نفس القرن بطلب من بطليموس، وبدون الخوض في الجزئيات أو التيهان في أسطورة سميراميس أو نينوس (Ninus) الغامضة، نلاحظ أن تاريخ مصر وبلاد ما بين النهرين كان متشابها إلى حد بعيد، وأن طيبة وبابل كانتا قطبين لعالم منسجم تماما، ففي البلدين كانت الحضارة حضارة سهول نهرية، قائمة على نهرين كبيرين، وقد تمكنت المناطق الشمالية والجنوبية في كل من البلدين من الاتحاد في ختام الأمر، وتكوين أمة واحدة، كانت مصر الشمالية والجنوبية التي يرمز لها

"بالرأسية الفرعونية" ذات الشارة المزدوجة، تقابلها بلاد ما بين النهرين الشمالية أو أشور، وبلاد ما بين النهرين الجنوبية أو الكلدان أو بابل.

ولنلاحظ مستطردين التقارب الصوتي الظاهر بين كلمتي سوريا وأشور، فالكلمة الثانية قد تكون هي الأولى نفسها مسبوقة بأداة التعريف.

كانت نينو عاصمة آشور، بينما كانت بابل عاصمة الكلدان، وقد سادت العاصمتان بالتوالي وكان حكمهما يسود سكانا يخضعون لقانون ولعادات وثقافة واحدة، مع فرق هو أن أراضي بابل السفلى كانت تحتفظ بصبغة كهنونية وقدسية أكد مما كان للمناطق العليا الآشورية، وهذا صحيح حتى اليوم في العراق لأن مدينتي النجف. وكربلاء الواقعتين جنوب خرائب بابل، تحتفظان بمقابر خاصة يدفن فيها موتى المسلمين الشيعيين، من جميع جهات العالم.

فمن الجائز أن نتصور العالم القديم في نصفي دائرتين متداخلتين على مدى خط الطول الأربيعين (40) القاسم بينهما: فعلى اليسار نقوم إمبراطورية مصر، وعلى اليمين نقوم الإمبراطورية الأشورية البابلية، المجموعتان في الإمبراطورية الحثية وقتا قصيرا، وكان توزيع البلاد بينهما توزيعا عادلا تقريبا كما كان توزيع البشرية، وكان الجانبان ذوي عهود تاريخية شبيهة، فإذا كانت مصر انتبهت حوالي الألف الخامسة قبل الميلاد، على ما نعتقد فإن التنقيبات التي وقعت في أوروك (Ourouk) تسمح لنا بتحديد الألف الرابعة (ق.م)، التي ظهرت فيها الإمبراطورية الكلدانية الأولى مع الملك الأسطوري ساردون (Sardon) في القرن 26 وحمورابي في القرن 19 (ق.م)، ولكن علاقات بلاد ما بين النهرين مع مصر، وسياستها الغربية لم تتضح إلا بعد قيام الإمبراطورية

الأشورية الأولى في نينوى، إثر حملة تحتومس الثالث إلى قرقمش بقليل، وكانت بلاد بابل قبل ذلك مشغولة بحدودها الشرقية وبتهديدات الأمراء العلاميين (Elamites).

ذلك أن مجرى الفرات هو الذي يحدد السياسة البابلية واستمرارها، لتحقيق هدف ضروري كبير، هو الوصول إلى ساحل البحر والاتصال بالبحريات اليونانية الفينيقية لتوسيع العلاقات التجارية والمالية بين الخليج الفارسي والبحر المتوسط، وكان لا بد لذلك من الحصول على حرية المرور بحوض فرقميش والتأكد من حياد الفينيقيين وسكان نهر العاصي (Oronte) وتسامحهم، وما دامت مصر متكفلة بالحراسة وبأمن المواصلات، فإن حكام ما بين النهرين بقوا متمسكين بحلفهم معها لفائدته، وانضم إليه الحيتيون، لكن بمجرد خروج السلم من هذه المناطق إثر الثورات والهجرات المختلفة سلكت الجيوش الأشورية طريق قرقميش وقوادش وصيداء، كما فعلت بالضبط جيوش توتموزيس الثالث أو رمسيس الثاني سنة ألف تقريبا (ق.م)، إن التقارب الجغرافي والسياسي والعسكري له مبرره من الطرفين ويتمثل وفقا لقاعدة لن تتغير مع القرون، إن مصر وبلاد ما بين النهرين كانتا وبقيتا دولتين متكاملتين أو متنافستين ولكنهما ضروريتان للتوازن السياسي والاقتصادي في الشرق الأدنى.

وقد صادفت الحملات الآشورية قيام الإمبراطورية الثانية التي دامت من سنة 1020 إلى 625 ق.م، أي نحو أربعمائة سنة، وشيئا فشيئا ودائما بغرض الحصول على أسواق ساحل المتوسط، وعلى تعاون من الأساطيل الإيجية والفينيقية التي كانت تخضع لرقابة الفراعنة، وصلت هذه الحملات في ختام الأمر إلى قلب مصر في ثلاث موجات متوالية سنة 671، و666 و664 ق.م،

ولم تكن قط ذات صبغة غزوات، ولكنها كانت إنذارات عسكرية، وفي الشرق سقطت سوز (Suse) بين يدي آشور بنبال سنة 660 ق.م، وبلغت اذاك إمبراطورية آشور أو ج قوتها، وكانت مدن النمرود وقصر خرسباد البديع رمز هذه القوة، بالإضافة إلى قصر سناشريب (Sennacherib) الرائع في نينوى، الذي جمعت فيه المكتبة المسمارية، وتضم نحو ثلاثين ألفا من اللوحات الطينية المحروقة المحفوظة اليوم في المتحف البريطاني، ككنز حقيقي للبشرية، وقد كان من الملوك المشهورين في هذه المرحلة الرائعة سرجون الثاني سردنبال (Sardanapale Sargon II) الذي يعتبر من أكبر الفاتحين في العالم، وأسرهدون (Assarhadon)، ويجب ألا ننسى أن الملك سناشريب (Sennacherib)، كان ينعث في التقييدات الحثية في ذلك العهد، بأنه "ملك الآشوريين والعرب".

ورثت الإمبراطورية الكلدانية الثانية دولة نينوى من سنة 625 إلى سنة 533 ق.م وجددت عظمة الدولة الأولى (دولة حمورابي التي انتهت سنة 1360 ق.م) واشتهرت باسم نبوكدنصر (Nabochodonosor)، الذي انتصر هو الآخر على مصر وعلى الإمارات الكنعانية وصور، وقد تحولت بابل في عهده إلى أعجوبة عالمية، ذات مجد شهد به الخلف، ومستعدة للترحيب بملكها الجديد سيروس (Cyrus) الذي استولى عليها سنة 533 واتخذها إحدى عواصمه، ولم يكن في نية سارا الكبير مؤسس الأسرة الأخامينية (Acheminide) والإمبراطورية الفارسية، الإطاحة بالإمبراطورية البابلية ولكن بالعكس من ذلك، إنه قصد إلى دعمها، ليرث جميع حقوقها الاقتصادية والسياسية، وكان إلى ذلك العهد، مقصيا عن

الطريق بين الهند والبحـر المتوسط، فاستولى عليها، وأصبح طرفا ممتازا في المعاملات مع المصريين والكنعـانيين والأناضوليين ويونـان إيجـي أو يونان القارة، وقد التزم لنفسه بالمصالح التي كانت لسرغون وآشوربنبال ونبوكد نصر، واتخذ موقفا كموقفهم، مع الاعتماد على مزيد من القوة بفضل امتلاكه الهند الإيرانية ومواردها.

كانت الدولة الأخمينية أكبر عددا برجالها، وأغنى بخيولها من جيرانها الغربيين، واستطاعت أن تحقق ما لم يستطيع تحقيقه الفراعنة ولا الأشوريون البابليون، وهو توحيد دول مصر والأناضول والفرس وبلاد ما بين النهرين في إمبراطورية واحدة، وقد سقطت بابل ومنفيس في وقت واحد تقريبا، الأولى في سنة 533 ق.م، والثانية سنة 525 تحت حكم قمبيز بن سيروس، (سارا).

أما سارد (Sardes) عاصمة الإمبراطورية الأناضولية التي صارت هي مملكة ليديا (Lydie) وملوكها هم جيجاس (Gyjes) وأرديس (Ardys) وساديات (Sadyatte) وآليات (Alyatte) وكرزوس (Cresus)، فقد سبق أن فتحت سنة 546 ق.م، ومن الصحيح أن السيادة عليها كانت سيادة اسمية وإدارية، لم تمس بحياة السكان وعادتهم وسمحت بقيام ممالك جهوية، فرضت عليها التبعية لا غير للإمبراطورية، فإذا احتفظت مصر خاصة بفراعنها فهم لا ينعتون "بملوك الشرق والغرب" لكونهم تابعين لبابل وبرسبولس (Persepolis) ولئن استطاع سارا وأسرته توسيع حقوقهم الملكية بهذه السهولة إلى بلاد بهذه السعة، فذلك يدل مرة أخرى على أن النظام الديني والقانوني والاجتماعي كان واحدا في كل مكان، بحيث إن الشعوب لم تكن تعتبر قيام أسرة ملكية جديدة، تدخلا غير مقبول في

شؤونها، وسواء صدرت الأوامر من ممفيس أو من صور أو من برسبوليس، فهي تصدر بلغة واحدة وباسم آلهة واحدة من موظفين من بلدانها الموحدة ولم تكن هناك أية جهة من الأرض لا تخضع للإدارة ولا تنسجم مع ثقافة تسري في الإمبراطورية بجميع أطرافها، منذ آلاف السنين، وقد كان الملوك على اختلافهم يعتمدون على هذه الثقافة أكثر مما يعتمدون على جنودهم لإقرار سلطتهم من البحر المتوسط إلى نهر الأندوس، ومن أرمينيا إلى سواحل إثيوبيا، وبالجملة فإن الأهم هو عدم المساس بالميراث الثقافي، بينما كانت السياسة تستخدم الحكومات مع احترام السكان، وعلى هذا فإن قيام الأخمينيين على عرش بابل، لم يغير شيئا من وضع المجتمع المشرقي، والمراد بالمشرقي حتى المجتمع الهيليني الذي اندمج منذ ساعة مبكرة، في الثقافة المصرية البابلية.

إننا إذن في سنة 533 ق.م، وقد وحدت بلاد النيل إلى الفرات تحت صولجان واحد، وبعد ذلك بقرنين، في سنة 334 بالضبط، وبعد نزول الاسكندر في طروادة (Troade)، تنتقل هذه البلدان إلى سلطة اليونان، وقد آن الأوان لتفسير سبب انتقال هذه السلطة دون أي اصطدام، ولماذا كانت الثقافة واللغة، والسياسة والإدارة اليونانية منذ زمن طويل جد آسيوية، أعني "سامية" باستخدام هذا التعبير الجديد غير المعقول، وذلك لأن العروبة قد أثرت منذ أقدم العصور في الهيلينية.

إن حضارة اليونان بالمقارنة إلى حضارة ممفيس أو أوروك (Ourouk) الشاملة السابقة للطوفان، تبدو ذات عمر قصير جدا، إذ لم تظهر بالملامح التي نعرفها بها إلا في القرن السابع ق.م.

ولا ترجع أقدم النقوش المكتوبة باليونانية على الحجارة أو على الطين المحروق إلى أبعد من هذا القرن، وترجع الكتابة المنقوشة على أحد هياكل أبي سنبل مثلا، إلى عهد الملك بسامتيك الثاني (Psammetik II) الذي عاش في القرن السادس ق.م، ولا نملك ولو أثرا واحدا منقوشا على جدار من عهد هومير، والحال إن مصر وبابل كانت لهما منذ زمن بعيد أبجدية (ألف باء..) وقد حرر أقدم كتاب في العالم، وهو بردي بريس (Prisse) المحفوظ في المكتبة الوطنية حوالي سنة ألفين ق.م، في عهد الأسرة الثانية عشرة، وتوجد ابتداء من القرن السادس وظيفة "حاكم دار الكتاب" أي مديرها، حقا إن الحضارة اليونانية لم تظهر في القرن السابع بنقوشها الكلاسيكية بل كانت ظاهرة في آسيا الصغرى وعلى طول الساحل المصري الفلسطيني منذ زمن طويل مندمجة في الثقافة الآرامية، وقد لوحظ ابتداء من القرن الحادي عشر ق.م إبان انتقال الفلسطينيين بسبب الحروب بعد انحلال الدولة الحثية، تحالف استراتيجي وثقافي بين اليونان الإيجبيين وسكان فلسطين، وشارك اليونان والكنعانيون معا في الحرب ضد عاصمة الحثيين، ونجد هذا التحالف في القرن السابع معززا باللديين في المعارك التي دارت ضد الغزاة السيميريين، الذين قدموا من اطراقيا ومن البحر الأسود.

إن ازدهار المدن اليونانية في إيولي (Iolie) وإيوني، وإزمير، وإفيز (Epèse) وميلات وهالكرناس، يرجع إلى تعاونها مع الإمبراطورتين المصرية والبابلية، كما يرجع إلى حماية ورعاية ملوك الأناضول، وقد كانت تعرض في دلف (Delphes) للمعاصرين لبريكلاس، (Pericles) قطع الكنوز الذهنية، التي

أهداها إلى الآلهة، الملكان الثريان الليديان جيجاس (Gyges) وكريزوس (Crèsus)، وهما الملكان اللذان سحرا الأدب اليوناني طيلة قرون، وقد كان هؤلاء اليونان الكثيرون في مصر، مختلطين بالمهاجرين المشواشة في القرن العاشر ق.م، وأشارت إليهم حوليات توتموزيس الثالث منذ القرن الخامس عشر، واعترف بهم الفرعون بسامتيك في منتصف القرن السابع بصفة رسمية كأصدقاء وفتح لهم أبواب مصر، التي شاركوا في الدفاع عنها باستمرار، حتى كان عهد الاسكندر، كان اليونان حلفاء لمصر ولليديا، كما كانوا حلفاء للأتروسك (Etrusques) الذين كانوا من ليديا (Lydie) حسب هردوت، وقد غادروا البلاد في عهد أتيس (Atys) ابن مانيس (Manes) واتجهوا إلى إيطاليا بعد أن أقاموا في إزمير وفي جزر بحر إيجي.

وإذا راعينا أن الرومان من جهتهم، كانوا ينتسبون إلى إيني (Enée) الطروادي، يجب أن نستنتج أن حضارة شبه جزيرة إيطاليا، ترجع إلى آسيا الصغرى، وقد كان تأسيس قرطاجنة في سنة 833 ق.م على يد جالية من اليونان والكنعانيين أي الفلسطينيين، مما جعل غرب البحر المتوسط ذا صبغة عربية باقية إلى يومنا، لا في شمال إفريقيا فقط بل في صقلية وحتى إلى البندقية.

وإذا كانت حروف الأتروسك غير موضحة إلى يومنا، فإن اللغة التي تعبر عنها ذات تركيب شبيه باليونانية، كما تشهد على ذلك المسلة التي اكتشفت في لمنوس (Lemnos) وترجع إلى القرن السابع ق.م، ويبدو أن الرومان لم يكونوا على جهل كجعلنا بالإتروسك، إن الإمبراطور كلود (Claude) أخ المسمى جرمنيكوس (Germanicus) الذي أسره تيبار (Tibère)، كان عالما بشؤون الإتروسك وأن الكتب الخمسة والعشرين

التي خصصها لشعب توسكي (Tusci)، بعنوان ترينيكا (Tyrrhenika) كانت لتنفعنا وتخبرنا بأشياء كثيرة، لو لا أنها فقدت كلها، على أن بحوث أكادمية كرطون (Cortone) الأتروسكية التي أسست سنة 1726، تفيد بأن الكلدان (Chaldée) والأترورى (Etruerie) كانت تربط بينهما علاقات متينة، وعلى غرار سبيل (Cybele) الألهة الأم، فإن آسيا قد تبرعت على أبنائها في الغرب بدمها وثقافتها وثرواتها وأفكارها.

إن المدن اليونانية الكبرى تتشرف بأن لها أسلافا من آسيا، وتعترف أثينا بأن مؤسسها هو إرختي (Erechthée) الذي قدم من مصر إلى الأتيك (Attique) لتعليم الناس زراعة القمح، وأنه أنقذ البلاد من المجاعة، إن اسم الآتيك نفسه عربي ومعناه "القديم، العتيق" أو "كثير الحكمة" عندما يطلق علما على امرأة، وقد أمكن إقامة الديمقراطية الأرسطوقراطية الألكميونيدية (Alcméonide) التي أذاع صيتها بريكلاس (Péricles) بفضل الأموال الليدية، أما طيبة فقد أسسها كدموس الكنعاني، وهو من صيداء، ووالده أجنور الملك وكانت والدة أجنور (Agénor) تسمى ليبيا (Libye)، وسمي البليبونيز (Péloponnèse) باسم ببلوب ابن طنطال، وقد ولد في الأناضول ونزل في شبه جزيرة اليونان مع جماعة من رفاقه الإفريجيين (Phrygiens)، الذين كانت تعرف أضرحتهم بلاكونيا (Laconie) إلى العهود التاريخية، وتقول رواية جدحية من عهد فلافيوس جوزيف (Flavius Joseph)، بأن أهل إسبارتة (Sparte)، لهم قرابة بالأراميين؟ وفي قوائم ملوك أرغوس (Argos) ملك يدعى عباس، وهي تسمية عربية إن كانت، ويقال إنه من أبناء إجبتوس (Egyptos) ودناووس (Danaos) الذي يعتبر من أغرب الأشخاص في الأساطير اليونانية، وكان

ملكا بليبيا قبل أن يفلت منها، بإنذار من وحي الآلهة، فما أطول وما أغزر قائمة الأبطال الذين انتمى إليهم اليونان، وهم من وادي النيل أو وادي الفرات، فلا توجد بالفعل أية مدينة يونانية أو صقلية أو إيطالية، لا تدعى لنفسها مجدا لسلف أسيوي، لهذا ينبغي أن تتجاوز الحقائق المحدودة التي نلقنها، ونجتاز الحدود إلى أبعد من أثينا واسبارتة لنصل إلى منابع ما نسميه الثقافة الغربية، إن التاريخ لا يمكن أن يحصر في مكان بسهولة، بل إنه يتوزع كالبخار على ساحة بلدان جد متسعة.

على أنه قد توجد مراكز أكثر حيوية من مراكز أخرى، وخاصة إذا كانت ذات موقع جغرافي مناسب، يتيح لها الإشعاع الدائم البعيد، وتهمنا مباشرة من بين هذه المراكز أرض فلسطين وبحر إيجي الواقعتان عند ملتقى الإمبراطوريات الكبيرة وتشابكها الإستراتيجي والثقافي، وقد نشأت بهما لغة أمدت اللغات الأوروبية بقوانينها وقواعدها النحوية، كما أنه تداخلت بهما ديانات كيفت عقليتنا ونتج عن ذلك فن أذاع نماذجه إلى أقصى بلاد الغرب، كما نشأت بهما فلسفة ذات خلفيات غيبية وقانونية، لم نكن بدونها على ما نحن عليه اليوم، وقد كانت هذه المراكز التي وجهت أنوارها وظلالها مباشرة إلينا، تزود هي الأخرى باستمرار بالطاقات والخيرات والتيارات الأخلاقية والسياسية، وبالعلوم وبالنظريات الفكرية التي تصدر من الشعوب والبلدان العربية الواسعة، كما لا تزال إلى يومنا على نظامها وثقافتها وسلمها الهادئة الأكيدة، إلى درجة أنها لم تؤذها عمليات التجزئة التي فرضها عليها المؤرخون.

ولنتحدث قبل كل شيء عن الكتابة، ينبغي في هذا المجال أن نكون متحفظين، فما معنى مثلا، عبارة "نشر أصلي لأثار هو مير"؟ ليس لذلك

أي معنى، ولنذكر أيضا أن الثقافة القديمة كانت أساسا ثقافة شفاهية، وأن التقييد والكتابة كان ميزة لثلاث طبقات من الناس هي الموظفون والمسؤولون الحكوميون، والقساوسة والكتبة لجمهور الناس، ولم تكن المراسلة في الواقع جارية كثيرا داخل حدود بلاد ما، ولكن يلجأ إليها لإرسال بلاغات إلى بلاد خارجية واقعة على مسافة بعيدة، ومعنى ذلك أن الكتابة كانت تستخدم في أغلب الحالات للاتصالات الدولية أكثر مما كانت للصلة بين الأشخاص في بلد واحد، ومن هنا، كانت الصبغة العامة التي اتسمت بها غالبا الكتابة في العصور القديمة بالنظر إلى الصبغة الجهوية أو المحلية التي تملكها اللغة الدارجة، لغة الحديث، وبناء على هذا فإن اللغة اليونانية الهوميرية، ولغة ثوسديد (Thucydide)، وكتابة الإنجيل، كانت إزاءها لهجات عديدة يونانية أخرى، لم تقيد قط تقريبا، مثل اللهجة المقدونية والإليرية، والأركادية والإقريطية والبامفيليان (Pamphylien) الخ.

ويقول اليونان أنفسهم أن أبجديتهم (ألف، باء..) انحدرت مباشرة من اللغة الفينيقية، ويسمى هردوت حروف هذه الأبجدية، بأنها "فينكيكا" (Phoinikika) وينسبها إلى كدموس (Cadmos) الكنعاني، الذي هاجر من صيدا، وأسس مدينة طيبة (Thébès) في الأرغوليد (Argolide)، ولا بد في الواقع من الإيغال في الماضي والرجوع إلى الكتابتين "المشهورتين" اللتين جرى بهما التقييد، ابتداء من الألف الثالثة ق.م، وهما الكتابة المصرية والكتابة البابلية، والأولى تشهد عليها النقوش على الهياكل والكتابات على ورق البردي، والثانية التي تسمى بالكتابة المسمارية وتتمثل في المكتبة الكبرى التي جمعها نينوى سناشريب، ومنقوشات

القصور الحثية خاصة، في المدن الكنعانية ببلوس (Byblos) أو غاريت (وتسمى اليوم راس شمراء) أو المدن المصرية كلوحات تل العمارنة، وبالفعل فكما أن الحروف الهروغليفية كانت مستعملة في بابل، كذلك كانت مصر تستعمل الكتابة المسمارية، ويجري استعمال الكتابتين حتى عند العلاميين (Elam)، وقد أشار علماء الآثار إلى وجود اللغتين معًا في كل مكان، وأنهما متداخلتان إلى حد كبير، إلى درجة أنهما كونتا لغة مشتركة تكتب بالحروف المصرية المبسطة، وتولدت عنها الآرامية، ودامت اللغتان مدة أكبر مما يظن على العموم، أما المسمارية فقد شجعت استخدامها الأسرة اليونانية السلوقية التي ابتعثت المكتبات التقليدية، ودامت إلى عهد الأرزوسيين على الأقل: بل امتد استخدامها في نصوص بلغتين إلى عهد قريب من الميلاد، إذ اكتشفنا في سلوقيا على نهر دجلة نقوشا بالأكادية المسمارية، ومعها كتابة صوتية بالحروف اليونانية الكبيرة، ترجع إلى سنة 150 ق.م، وكانت المصرية الكهنوتية والشعبية معروفة مستعملة في عهد قيصر أو أوغست (Auguste) ولم تتميز الآرامية التي نشأت من تداخل اللغتين إلا ببطء، وإذا بدا أنها ظهرت في صورتها المكتوبة في فلسطين في القرن الخامس عشر ق.م، فقد وجدت قبل هذا التاريخ في سارد وكابول وأرمينيا وفي الجزيرة العربية، لوحات بكتابات مسمارية نقشت على هامشها معلومات بالآرامية، وكذلك كانت الآرامية حوالي القرن الخامس والسادس عشر ق.م، في عهد الأسرة الفرعونية الثامنة عشرة كثيرة الاستعمال، إلى درجة أنه صار من العسير التمييز ما بين ما هو حثي، وما هو مصري أو آرامي، وقد ظهر في أوغريت (Ugarit) القديمة،

التي تدّعي أنها أقدم مدينة في العالم، وحفظت أشياء سومرية أو مصرية نقش عليها اسم مِكرنوس (Mykerinos)، صاحب الهرم المدعو بهذا الاسم، (ظهر) نظام كتابة مسمارية من ثلاثين علامة (بدل أربعمائة أو خمسمائة على الأقل) يعتبر تمهيدا للأبجدية (ألف باء) العصرية.

وفي فلسطين دائما تحتم بعد ذلك استخدام ألف باء من عشرين حرفا تقريبا غير مسمارية، تقليدا للكتابة المصرية المبسطة. وكان ذلك تمهيدا للأبجدية اليونانية وللأبجدية اللاتينية وكتابتنا الأوربية في الختام. وفي هذا العصر نفسه، نشأت في جزيرة قريت (Crète) كتابة شبيهة بالكتابة المصرية. فالأبجدية واللغة الفلسطينية استمدتا من الجذور والصيغ المصرية البابلية، وتولدت عنهما اليونانية والأرامية التي حظيت باستعمال واسع، لأنها (أي الأرامية) صارت ابتداء من القرن السابع ق.م "اللغة الحديث المشتركة" (Koine) في سائر البلاد الآسيوية، من حدود النيل إلى الأندوس، في الفضاء العربي بالتحديد. وبسرعة انقلب المشرق المتوسطي الآسيوي ذا لغتين: اليونانية كلغاة ثانية تستعملها الاوساط المتعلمة، والأرامية كلغة أولى، عرفت الاستقرار التام، ولم ينقطع التحدث بها قط بعد ذلك، وقد تطورت تدريجيا إلى العربية الحديثة كما تطورت اللاتينية إلى الفرنسية أو الإيطالية. ومعنى ذلك أن اليونانية والآرامية نقلتا مشتركتين متظافرتين، ثقافة ترجع إلى أقدم العصور. تلقاها من بين الورثة التوراة والإنجيل باللغتين ثم الإسلام (القرآن). فالإزدواجية اللغوية كانت سائدة إلى درجة أن اليونانية بقيت مدة طويلة مستعملة كلغة إدارية في عهد الخلفاء المسلمين. وكان من العمل الذي اضطلعت به أسرة البرامكة في

خلافة العباسيين، تعميم انتشار المؤلفات اليونانية بترجمتها إلى العربية، وقد عُني بذلك جعفر بن يحي وزير هارون الرشيد، بصورة خاصة، أما في خلافة المأمون فقد اشتهر سهل بن الربيع الطبري بالاقتباس من المؤلفات اليونانية وتكييفها. ولاحظ ارنست رونان (Ernest Renan) في دراسته غير الصالحة اليوم للغات "السامية"، وجود كمية كبيرة من الألفاظ اليونانية في الكنعانية وعكس ذلك. وقد عمل الإسكندر وخلفاؤه على دعم الازدواجية اللغوية حتى صارت مفتاح الثقافة العلمية والدينية في أقطار المشرق. كما عمل الإسكندر على ترجمة الكتب المقدسة الفارسية إلى اليونانية والآرامية، وأمر البطالسة من جهتهم بجمع ونقل الروايات الدينية اليهودية والعقائد المزدكية باللغتين، إلخ. وصارت الإسكندرية عاصمة الازدواجية اللغوية اليونانية والأرامية المعبرة، عن الموسوعية العلمية في العصور القديمة. ويلاحظ مثلا، حسب بلين الأول (Pline l'ancien) (الكتاب الثلاثون من التاريخ الطبيعي) أن مكتبة الإسكندرية ضمت ثلاثة ملايين بيت من شعر زرادشت منقولة إلى الآرامية. وإذا اعتبرنا أن تعليم زرادشت يرجع إلى الألف السادسة ق.م، على ما قال فلاسفة اليونان الكلاسيكيون، فكيف لا نُصاب بالدوار من عظمة الجهود التي بذلها المترجمون واللغويون في الإسكندرية؟ وكان السلوقيون يعملون مثل هذا العمل من جهتهم. ففي الوقت الذي أمر فيه أنتيوكوس (Antiochos) إصلاح هيكل نابو (Nabou) في برسيبا (Borsippa) و هيكل مردوخ (Marbouk) الإساجيلا (L'Esagila) في بابل، أمر بيروز (Bérose) أسقف بعل بتحرير أخبار الكلدان باليونانية. وهذا يفترض بالضرورة أن اليونانية كانت جارية الاستعمال بين شعوب

المشرق مفهومة الألفاظ والبنيات والروح كل الفهم. وهذا يفرض في المقابل، أن اليونانية قد استوعبت الروح المشرقية. فالشرطان متظافران متكاملان واقعا. وكيف لا يكون الأمر كذلك؟ كيف يمكن لشعب أن يستعير أبجدية شعب آخر، إن لم يكن له صلات به فكرية وثقافية؟

هذا وفي الواقع إن البلاد التي تسمى فينيقيا والتي هي مقاطعة من كنعان التي سمّيت فلسطين، كانت قبل أثينا بمدة طويلة، مركزا كبيرا يونانيا عربيا إذا كان للفظين معنى، نظرا إلى أنهما مندمجان متحدان، إلى حد لا يمكن الفصل بينهما. فاليونانية لغة عربية كما أن العربية لغة يونانية، مع وجود فرق معتبر هو أن اليونانية كانت لغة ناقلة، فالمدد الثقافي والعلمي والديني الكبير، إنما كان من العرب. فلا يجوز على هذا أن نقلب الأدوار، وأن نجعل من اليونان الذين كانوا ورثة فقط، آباء لأسلافهم الروحيين، وتجاه التخريب القريب المهدد لصرحنا الثقافي الذي لا يكفي لحمايته الإستظهار بالصيغ التقليدية، يجب أن نعلم أن الخلاص لا يكون إلا بتأكيد إيماننا بالقيم التي هي قيمنا، ولكن لابد لهذا الإيمان من الاعتماد على الحقيقة والنزاهة قبل كل شيء.

لهذا نستسمح أهل العلم لنقول لهم إن وثائق الفلسفة محشوة بالنظريات العاجلة المحبوكة أكثر مما هي سليمة. ولابد من استئناف النظر في قضية دراسة اللغة اليونانية وتاريخ اليونان لبحثهما انطلاقا من جذورهما. ولا يجوز حصر حدود خريطة اليونان عند الضفة الشرقية من البليبونيز (Pélépoinèse) بل يجب نقلها إلى أبعد من ذلك بكثير، لإدراج فلسطين وافريجيا، (Phrygie) ومصر وسوريا، ويجب خاصة ألا نخشى من التحدث عن العرب، وأي مختص في الدراسات الهيلينية لم يتأسف من عدم

إحكام معرفته لتاريخ المشرق العربي وللغاته ليمكن الشرح الأوفى لنصوص هومير وأفلاطون وأوكسيل Eschyle وبندار (Pindare) إننا نؤكد أن أوروبا ليست سوى رأس من القارة الأسيوية، ومن الأصح أن يقال أيضا أن اليونان ما هي إلا جزء صغير من آسيا الصغرى.

إن أغلب الصحف الكبرى في بلادنا، أكثر احتراما للحقيقة من أغلب العلماء، وبناء على ذلك فإنها أدرجت اليونان في دائرات اختصاص الشرق الأدنى ووكلت دراسة القضايا اليونانية إلى الصحفيين المتخصصين في القضايا العربية. وهذه حكمة نفضلها على النظرة المحدودة المتعصبة المبثوثة في الكتب المدرسية. ومن الأفضل أن نتحدث عن الحضارة الإيجية بدل الحضارة اليونانية. ذلك أن النفوذ الذي ساد به الكنعانيون من صُور وصيدا في بحر إيجي ليس ذا أهمية لغوية فقط، بل هو نفوذ في جميع المجالات، وخاصة في مجال الدين والأساطير والفلسفة والعلوم والفن. وقد كانت "جزر البحر" تستوعب عن طريق فلسطين الثقافة النيلية البابلية، وعن طريق إزمير وميلات (Milet) الفيوض الأناضولية التي ترجع هي الاخرى إلى أطراف البلاد الهندية الفارسية.

وبطبيعة الحال لا يمكن لأي شخص أن يدعى أنه قادر على تمييز العناصر التي تتألف منها هذه الحصيلة (الثقافية المحكمة). ويجب أن نقتصر على تحليل تياراتها عن بعد وبلا مهارة، "على غرار نفوذ النور في الماء أي من غير أن يجزئه" وفق كلمة دانت (Dante). إن اليونان كانوا يسمّون مجموعة النجوم "الدب الأصغر" بمجموعة "فوينيكة" (Phoinike)، لأنها هي التي كان يسترشد بها بحارة صور وصيداء في رحلاتهم البحرية الى مضيق هرقل (جبل طارق). ويترجم الرومان كلمة "فوينيكوس" بكلمة

"بونيكوس" (Puniques)، والحروب البونيقية "حروب عربية" ممهّدة للنزاعات وللحروب التي سيّرتها أوربا في إفريقيا الشمالية عشرين قرنا بعد ذلك بالتقريب. ولنتوغل في تحديد معنى كلمة "فينيقي". فمن أين جاءوا؟ تفيد رواياتهم التي نقلها هردوت، بأنهم هاجروا في الألف الثالثة ق.م، من الخليج الفارسي، وتوجّهوا إلى البحر الميت ثم إلى ساحل البحر المتوسط، وكانت هذه الرواية شائعة إلى حد بعيد، إلى درجة أن الإسكندر فكر في معاقبة صور على مقاومتها، "بارجاع الفينيقيين" إلى بلادهم، أي إلى بلاد البحرين (Bahrein). وبمناسبة المؤتمر الدولي الخامس والعشرين للمستشرقين الذي انعقد في موسكو سنة 1960، قدمت المدرسة الأركيولوجية الدنماركية، معلومات غريبة تتعلق بشبه جزيرة هذا البلد.

فقد اكتشفت البعثة الدانماركية نحو مائة ألف قبر، حملت العلماء على التفكير في أمرها، والقيام بتنقيبات تجري منذ عشرين سنة. ذلك أن هذه القبور تمثل مدنا. وبالفعل اكتشفت سبع مدن بعضها فوق بعض في رأس الولاعة (Ras El Ouala'a) غير بعيد من ميناء المنامة في الغرب.

وترجع أقدم هذه المدن إلى الألف الثالثة ق.م وغير بعيد من هذه المدن، قرب قرية بربر (Barbar) اكتشف معبد غني بالحلي، والتماثيل الصغيرة وأواني مرمرية، ومسبح، وطاولات تضحيات. وكانت الأواني الخزفية الطينية التي اكتشفت في المنطقة جميلة رائعة. كان لهذه الأشياء وللبناءات طابع هندي سومري واضح كالطابع الذي كان على بعض الأختام والتماثيل الصغيرة التي اكتشفت في ببلوس (Byblos) بفينيقيا. وتفيد الوثائق التجارية الكلدانية بالفعل بأنه كانت لمملكة دلمون (Dilmoun) الإسم السوميري للبحرين، مخازن غنية وأن البطل جلغامش (Gilgamech) لجأ في طلبه للخلود إلى دلمون.

وفي دلمون نزل زيُو أودرا (Ziu-Udra) الشخص الوحيد الذي نجا بعد الطوفان، حسب التوراة السوميرية، وعلى هذا فإن نوحا (عليه السلام) أرسى بمركبه على جبل "الدّوخان" الذي ينتصب وسط جزيرة المنامة، لا على جبل أرارات (Ararat)، وتعتبر الروايات الأورفية من جهتها هذا المكان مقاما للسعداء والفردوس الذي يسود فيه أبولون (Champs-Elysées)، إن جزر البحرين بصفتها مقبرة مقدسة شبيهة في ذلك بأرض بابل، التي يأوى إليها المتوفون من الشيعة. ومما يحمل على الحيرة أن المذهب الشيعي يسود اليوم في البحرين. إن التنقيبات بصدد الانطلاق في شبه الجزيرة العربية، ولنراهن بأنها ستؤدي بنا إلى مفاجآت وستكشف لنا العلاقات المتينة المختلفة التي ألفت شبكة العروبة منذ أقدم العصور. إن فينيقيا لم تظهر ذات يوم ما نابعة من العدم، مسلحة بلغة وبثقافة وبعلم أشاعتها في كل جهة من الغرب. لقد ظهرت عن ملتقى أنهار عديدة، ووديان ثقافية أخصبتها من أعماقها. وقد تحوّلت هي الأخرى إلى منبع فتفرعت إلى تيارات عديدة، جذبت إليها المجموعات اليونانية.

وبدل اللفظ الغامض "الفينيقيين" الذي يعبر عن قوم (أو جنس)، أو "اللفظ الكنعانيين" فلنستعمل التسمية الحقة المبنية على الجغرافية، ولنقل منذ الآن "الفلسطينيين". ذلك أن الوحدة الجغرافية تطابقها الوحدة الثقافية. وقد كانت البلاد معروفة "بامورو" (Amourrou) عند البابليين وعينت في المنقوشات المصرية باسم "أمو" (Amou) "هارو" (Harou) كارو، "رتونو" (Retenou) و "أمورو" أيضا. ولكن طريقتنا في البحث هي التي فككتهم وجعلت منهم شعوبا بينها قرابة مثل المؤابيين والأراميين والسوريين إلخ، إلخ. ولماذا؟ لأننا نحرص كل الحرص على

التمييز بين الخاصيات الجنسية (الإتنية) أو الدينية لنتمكن من إقحام العبريين ولتبرير أساطير التوراة بأي ثمن كان. فكأن جميع العلوم قد تظافرت جهودها من أجل غاية واحدة هي إثبات القيمة التاريخية للكتاب (التوراة)، على أنه من المستحيل العسير التمييز بين سكان أمورو (Amourrou). سواء بلغاتهم، أو ثيابهم أو أسلحتهم أو عقيدتهم ولا بشكل هياكلهم.

إن إعطاء هذه الأرض تسميتها الفريدة أي فلسطين، ليس معناه الامتثال للقاعدة التاريخية الأكثر سلامة فقط، لكن معناه أيضا رفض تحكم العلم التائه، إن الطبيعة لم تفضل قوما دون قوم، ولا دينا دون دين، ولكنها فضلت البلاد نفسها، أعني فلسطين، التي منحها موقعها الجغرافي على ساحل المتوسط مكانة ثقافية ممتازة.

إن فلسطين كانت أرض الأبجدية وكانت مع أرض الجزر الإيجية والقارة، بلد "الحصيلات" الدينية الكبرى. فلا اليونان ولا جودي (judée) أبدعت شيئا. ولكن الهيكل المصري البابلي هو الذي كان فيما بعد هيكل اليونان والرومان عن طريق فلسطين والاناضول، فالآلهة اليونانية آسيوية كما أن أديان اليهودية والمسيحية والإسلام عربية. إننا نعرض هنا لقضية دخلت عليها أخطر التحريفات التي يعسر تصحيحها، خصوصا وأن مبادئ تفكيرنا ونظرنا خاطئة تتنافى كل المنافاة مع الحقائق الثابتة.



الكـــواكـــب السبعـــة

يجب قبل كل شيء أن نبدد نوعا من الغموض. إن الوثنية الإغريقية الرومانية تقابل بعقيدة التوحيد الفلسطينية؛ وتقابل الآلهة الحجرية والخشبية باللّه الصمد الواحد الذي لا يُرى. إن الأمور ليست بهذه البساطة. إن الوثنية الظاهرة في الممارسات الشعبية، توجد من ورائها دائما عقيدة توحيد باطنية بقدر ما، والتراتيل المصرية والبابلية تعظّم الربوبية الواحدة وان تعددت مظاهرها، لأنها هي وحدها النور والشمس والأبد والسلام. فالربوبية واحدة كما أن السماء واحدة. ومن الصحيح أن الشعوب اتخذت وسائل عديدة، وطرائق منحرفة أحيانا لتتوجه إليها. وقد أعطت لكل وسيلة من هذه الوسائل صورة ظاهرة عادية. ألم يكن للمسيحية رسل حواريون، وقديسون وقديسات، وشفعاؤها المصّنفون حسب المهن المختلفة، والأمراض المطلوب شفاؤها، والذنوب المطلوب غفرانها والأمال المرجوتحقيقها؟ فالقديس بليز (St Blaise) قد وكلت إليه أمراض الحلق، والقديس لونجان (Longin) وكلت إليه أمراض العيون، بينما وكلت القديسة سانت أوفيمي (Ste Euphémie) بالحيوانات المفترسة. وللمسيحيين وليّ للصائدين وولي للشعراء، وللجنود. فهم لايعبدون عشرات الأرباب لأنهم يتّخدون عشـــرات الأوليـــاء والقديسيـــن.

إن هؤلاء الأولياء وسائط يدنون من اللّه، ولكنّهم لا يقومون مقامه، وفي الحقيقة إن العقيدة الصحيحة لا تحتاج إلى تماثيل وصور.

إن الدين ليس سوى الإعتراف بوجود الروح وصلتها باللّه خالقها. والتمثال سواء في مصر أوفي دلف (Delphes) أوفي أولمبي (Olympie) ليس هوالإله. والتمثال لا يعبد بصفته تمثالا، بل هوالذي يعبُد؛ وهويصور إنسانا أوحيوانا في حالة عبادة، أي بالغا مستوى من الكمال البدني واليقظة، قريبا من الكمال الذي يريده اللّه لنا. إن التمثال عابد وليس معبودا ويرمز إلى المخلوق المتعبد، ويقلد موقف الرجوع إلى اللّه. وهوساكن سكون اللّه ويصور بخشوع وخنوع وضعية المتوسّل، ويضرب للجماهير مثالا في السلوك الديني بحثهم على مثل هذا السّلوك. والتمثال هوقبل كل شيء وبصورة خاصة تعبير عن ثقافة لا عن ربوبية. يقول بعض المتصّوفين لتفسير تقلّب الإنسان من الخشوع المطلق إلى العبادة العادية: "إنني أبدي في بعض الحالات، وأعود في حالات أخرى إلى الزمن المعدود". إن التأثيرات والمظاهر، إنما هي من الممارسة العادية، بينما الخشوع والتأمل العميق يمحوهذه الصور. وتكفي المقارنة بين ترتيل أمنوفيس الرابع (Aménophis IV) الموجه للشمس، ونشيد الشمس لفرانسوا داسيز، (François d'Assise) لنرى كيف تنمحّي الحدود المصطنعة، بين الوثنية وعقيدة التوحيد. فلا يوجد دين أكثر أو أقل توحيدا من دين آخر. ولكن توجد مفاهيم جمالية مختلفة للتعبير ولتمثيل الربوبية. ولسنا نجد أوتتمثل الدين صورة بل نتصوّره إيمانا.

وعندما يتد ى الدين في الصورة، فهويتحوّل إلى خرافة ويفنى، لأنّ خاصية الخرافة هي أنها جدباء. فالحيوية العجيبة الدائمة التي كانت

للأديان في العصور القديمة، تدل بقدر كاف على أنها كانت شيئا آخر غير مجموعة من الصور. إن الإسلام لم يغير شيئا، ولكنه سعي نحوالكمال. وقد استوعب أصل التقاليد العربية وحاول أن يعبر عنها تعبيرا كاملا.

وماهي هذه التقاليد؟ هنا يجب أن نتقدم خطوة خطوة، لأنه من العسير أن نرتب الأشياء التي لم يكن فيها ترتيب، إن الناس كانوا ينتقلون بحيواناتهم وآلهتهم؛ ويعبدون معها آلهة أخرى، ويتخلّون عنها أحيانا لمدة فصل أوطيلة حياة؛ ويعوضونها بآلهة أخرى، ويجلبونها ويصّدرونها وهم على يقين من أن الكواكب في السماء لا تتحرك، وأن اربوبية موجودة في كل مكان، وأنها سائدة بكل مكان. وكيف كان هيكل الآلهة المصرية والبابلية في أول الأمر، ثمّ في التسجيلات الفلسطينية أوالأناضولية التي نعرفها؟

إن المصريين كانوا مولعين بالعالم الآخر : وهمّهم الأكبر هوالبعث. وكانوا يريدون أن يعيشوا من بعد الحياة. إن مصر كانت ترحب إلى حدّ بعيد، بجميع القوات الممثلة للحياة، وحتى بالوهمية، واستقبلت في هيكلها جميع الآلهة والعباقرة. فلا يوجد أي إله هيليني، أوإفريقي أوآسيوي إلاّ وله هيكل على ضفاف النيل لتكريمه. ووفاء لهذه النزعة فإن البطالسة، ورثة الإسكندر، رحبوا بالديانة اليهودية بنفس الإحترام أونفس الشك الذي كان لأسلافهم، عندما رحبوا بديانات الهند والكلدان وإثيوبيا. إن التفاصيل والانحرافات وأخطاء التوجيه أو المذاهب لا أهمية لها؛ إن المصري متعلق البصر بشمس البعث ومتأكد من أنّ خصم الحياة يوجّه إليها كل إنسان ذي نيّة صادقة. إن كتاب الحكمة الذي نسميه كتاب الموتى، يسمى في الواقع كتاب طلوع النهار، أو كتاب مولد النهار.

ويلاحظ أن السورة القرآنية التي تقرأ على المحتضر عند المسلمين هي سورة الفجر، فكتاب الموتى على هذا، أنشودة حياة دائمة موجهة إلى اللّه الواحد، الذي يحكم إلى الأبد باسم راع آمون أو أتون بن نوت (الليل). أي الشمس، وهذا مقتطف ذو معنى :

"إن قداستك أيتها الشمس، لا مالك لها؛ إنك المسافر العظيم في الفضاء؛ وليست الملايين ومائات الملايين من السنين في تقديرك إلا لحظة. إنك تغيبين ولكنك باقية، إنك تعدّدين الساعات والأيام والليالي، على نسق واحد، وتبقين وفقا لقوانينك، إنك تشعين على الأرض وتتقدمين إليها في شكل راع. إنك الكوكب الطالع الضخم بروعتك الساطعة، تشكلين أعضاءك وتتولّدين في الآفاق من ذاتك وما أنت مولودة. أيها النور الأسمى في السماوات، إجعلني ممن يصل إلى السماوات العلا لأحظى بالخلود ..." إن تحليل هذا النّص باختصار، يبين لنا ما يتضمنه من مواضيع عديدة تنطوي عليها الديانات اللاحقة.

فهذا الربّ الواحد الأبد الجبار، مشفوع بتثليث يتضمن أوزريس (Osiris) (وهوآمون راع عند حلول الليل) وإزيس (Isis) زوجته، وهوروس (Horus) إبنهما الذي يمثل برأس صقر. إنّ إوزيريس الضحية الأبدية يفنيه أخوه العدوسات (Set) عند كل مساء، فتبكيه زوجته، ويعظم عند كل صباح بانبعاته. فالإله الواحد يتمثل في ثلاثة أشخاص؛ ويفنيه أقرب الناس إليه، وينبعث من بين الموتى؛ فما أجّله درسا لتأمل المسيحية! إن المأساة الأوزيرية ستعم جميع بلاد المشرق، وستردد الأصداء الصوفية زمنا طويلا في شروح مواضيع العقائد والأديان المنزلة أو الباطنية.

وقد اجتمع الأب والأم والإبن في مأساة انتصار، ويحف بهم أشخاص مقدسون مختلفون، مرافقون أومشاهدون، أودعاة. ومن بينهم الثور (Apis) العجيب، الذي يحرسه القساوسة في هيكل ممفيس. إنّه ولد من أمّ حملته من صاعقة. وقد حزنت مصر جميعها عند وفاته، ولبست ثوب الحداد. ويعتبر كأوزريس، فصار أوزريس آبيس، (Osiris Apis) الذي تحوّل عند اليونان إلى سرابيس (Sérapis). وقد وصف هردوت هذا الثور دون أن يوضح لنا أنه صورة ومزية، وقال : "إن آبيس هذا عجل صغير لا تقدر أمه على ولادة عجل آخر، والمصريون يقولون إنه قد نزل عليها برق من السماء ومن هذا البرق حملت الإله أبيس؛ ويعرف هذا الثور ببعض السمات. إنه أسود الشعر، وعلى جبينه غرة بيضاء مثلثة الشكل؛ وعلى ظهره صورة نسر، وتحت لسانه صورة جعران ..." ترجمة غسطاف لوبون 1889 .

ويسمى رفقاء الثلاثية الربانية؛ تاحوت (Tahout) رسوله وكاتبه، وأسترت (Astart) الربة النجمية، وافتاح (Phtah) الجعران، وثوت (Thot) الذي يمثله إبيس (Ibis) وذوالرأس الكلبي وأنوبيس (Anubis)، الذئب على أنه يوجد أيضا العدووهوالحيّة أباب (Apap) التي تشخص الشّر؛ وبالرغم من أن العادلين يدوسونها ويقتلونها، إلا أنها تنبعث فيها الحياة باستمرار.

وهي ملفوفة حول الأرض، منتصرة على جميع التناقضات، وتجمع بين الأحداث المتعارضة بالتقاء رأسها بذنبها. وإذا التفت حول نفسها، تكون رمزا للبداية والنهاية، وللمبدأ الأسمى الذي يصطلح الروح والجسد على أساسه في التنافي. وهي على هذا الموت، إذ أن العالم لا يمكن أن تمتد حياته إلا بدفع من الخلافات بين النظريات ونقائضها. وهذا الثعبان الكوني تمثله على الأرض حيّة المقابر.

وقد شيدت لها مقصورة في نواحي الكرنك، حيث كانت ملكة "اللغرب الأعلى" ويسميها الشعب باسم مارتساكرو (Maritsakro) أي "حبيبة الصمت". ولجسمها رأس إمرأة، أو ثلاثة رؤوس حيّة (ثعبان) كما لو أنه يرمز إلى أن (التثليث) المقدس لراع، يعارضه بتثليث أشرار الظلمات. ولنذكر دائما الشارات والرموز النيلية؛ الشمس والنور والثعبان والأم التي حملت من السماء دون إدراج الكبش.

سنعثر عليها في المعتقدات التابعة. ومن الآن نتخيل بوضوح زوس آمون (Zeus Ammon) أبولون والثعبان، وثور جزيــرة كريت (Crète) أرتميس توروبولس (Artémis Taurobolos) مثــرا (Mithra) التي تكررت الإشارة إليها في التوراة والإنجيل. وقد يكون من السّهل اليسير، ومن المغرى أن نبحث عن طريق جدلية تؤدي إلى تفسير المسيحية بالديانة المصرية لا غير.

إن الأناجيل تتيح لنا ذلك بالفرصة النادرة المتمثلة في رحلة الأسرة المقدسة إلى مصر. ثم ألا توجد حجة الصليــب ذي العروة (Croix Ansée) رمز الحياة الخالدة الذي نعثر على رسمه على أضرحة وادي الملوك؟ ألا يوجد الصليب الكلداني الذي استعملته أيضا مصر .وهو صليب محاط بدائرة ويرمز به إلى النصر وإلى روعة الآفاق الأربعة التي ترتكز عليها قبة السماء؟ إنّ التفسير الحديث الذي يفيد بأن الصليب دليل على التعذيب الدنيئ وعلى مكابدة الضعفاء، لا يتفق في شيء مع التفسير الذي تتأوله الشعوب الشرقية، التي ترى أنّ الصليب صورة للقوة الكونية. فلنتجنب طريق التفسيرات المختلف بشأنها، ويكفي أن نشير إلى أن الديانة المصرية، كانت تنطوي بملامحها الكبيرة، على عدة مواضيع جديدة بأن يتأملها شراح التوراة. وقد اعتبرت الحالة الوجدية التي عرفها الفرعون أخناتون (Akhounaton)

وهوأمينوفيس الرابع (Amenophis IV) ثورة دينية حقيقية، واعتبرت عاصمته العمارنة (Amarna) المقر الأول لعقيدة التوحيد بدل وثنية آمون. لا شيء يسمح بهذا التفسير الذي يرجع إلى الذوق القصصي لدى بعض شعراء علماء المصريات. إن اخناتون لم يغير شيئا وأنشودته الموجهة إلى الشمس أتون (Aton)، ماهي إلا شرح لكتاب الموتى، إنّه لم يزعزع شيئا من العقيدة المصرية، لسبب واحد بسيط، هوأنّه سما في دفعة واحدة إلى مستوى الخلود، ونكران الأنا وإلى الصفاء الكوني؛ لذا لا يمكن أن نعرف ما كان يجوز للدّيانة المصرية أن تنقصه أوتضيفه إلى اطمئنانها. وقد محت بالفعل هول المصير الإنساني، ووجّهته إلى "طرق الهدوء" وبقيت هذه الرغبة في السلام والثقة والوداعة هي مطلب مصر اليوم، وتقول روح المتوفى أمام المحكمة الإلهية المكلفة بوزن الحسنات والسيئات لتبرير ما سلف منها : "لم أوذ أي شخص عن غدر ومكر؛ ولم أتسبب في بؤس أقربائي، ولم أجوّع أحدا، ولم أقتل ولم أتسبب في بكاء ما، ولم أكذب، ولم أحرم الرضيع من لبن أمه؛ ولم أمنع الماء في وقت الفيضان، ولم أطفئ الشعلة وهي تضيء". وقد أجابت المحكمة وهي راضية : "إن ما فعله يشهد عليه الناس، والآلهة راضية عليه. وقد نال رضا اللّه بحبه. إنّه منح الجائع خبزا، وسقى الضامئ وكسا العريان. إنه منح مركبا لمن كان في حاجة إلى مركب ..." (كتاب الموتى فصل 75)، ألم تكن هذه النصوص التي تعبّر عن البر والإحسان ممهدة لأوامر الإنجيل وحكمة تعاليمه، خمسة عشر قرنا قبل نزوله؟

أما فيما يخص الإلتقاء بالأبد الذي يصوّر على أنّه إبتهاج حقيقي للروح، فإننا نجد صداه في التوصية التي ألقاها الشاعر الصّوفي جلال الدين

الرومي إلى أتباعه وهو في الإحتضار، إذ قال لهم : "ينبغي اليوم أن تكونوا سعداء، لأن اليوم هو يوم عرس بالخلود" إن الأشواق واحدة في جميع أطراف المشرق. إن البر العربي يدعونا عند الإحتضار، إلى التخّلي عن كل خوف للإستعداد للقيام مع اللّه بالرحلة الكونية، عبر الكواكب والنجوم، كما لوأننا هلكنا وابتعثنا في أوزريس. وهي دعوة كررها دانت (Dante) في ختام كل كتاب من الكتب الثلاثة، في الكوميديا الإلهية.

وهذه الديانة والعقيدة في الكواكب نفسها كانت ذائعة في الكلدان وآشور، وإن كانت مطبوعة بكآبة أعمق، وبشعور أقسى بالكفاح الأليم، الذي ينتظر الإنسان ليفوز بالدنيا والآخرة. ويوجد نحو مائة ألف من النصوص المسمارية تفيدنا بالضبط، بما كانت عقيدة الكلدانيين وآلهتهم، دون الإشارة إلى التفاصيل التي تركها لنا المؤلفون اليونان الكثيرون، مثل ديودور الصقلي (Diodore de Sicile) الذي قال : "إن الكلدانيين يعتقدون بأن العالم أبدي بطبيعته وأنه لم تكن له بداية ولن تكون له نهاية، وبناءً على فلسفتهم إن ترتيب المادة وتنظيمها محددان بالقانون الإلهي؛ فليس ثمة شيء مما يجري في السماء، هومن فعل الصدفة؛ وكل شيء يقع وفقا لإرادة الآلهة الدائمة السائدة".

ويقول هرقليت (Heraclite) اليوناني من بعد هذا : "إنه توجد قطعا قوانين صدفة" ويضيف الرواقيون (Stoiciens) (أتباع زينون): قائلين: "إنّ كل شيء يجري طبقا لإرادة الربّ الأعلى" فهنا، كما في مصر اعتقاد بالربّ الأبدي المهيمن المجيد، ويدعى "أل" التسمية التي تطورت بعد ذلك إلى اللّه. وإلى هل (Hel) في اليونانية البدائية، ثم إلى هليوس (Helios) في اليونانية الكلاسيكية، أي الشمس. ونجد هذه الكلمة نفسها

في إسم الإمبرطورية الإيرانية القديمة إلام (Elam) الذي نلمس فيه بوضوح كلمة "الإسلام".

وتأتي بعد ذلك الألهة الإثنتان وعشرة وفقا لتقسيم دائرة البروج (Zodiaque). وهي مجموعة ثلاثة ثلاثة بمطابقة الكواكب القارة، أوالعناصر؛ وحول أل (الأبدي) يمثل آنو (Anou) وإيا (Ea) الحكومة ذات السيادة، على غرار هادس (Hades) وبوسيـــدون (Poséidon) حول زوس (Zeus) السائد على ممالك البر والبحر. ويبرز من بين الألهة الأخرين ثلاثة هم : مردوك (mardouk) إبن إيا (Ea) وشمس (Le Soleil) وإشتار (Ishtar) نجمة الليل ونجمة الصباح في آن واحد، الأم والحبيبة، الثنائية الجنس، التي يذكر إسمها باسم سطار (Star) السنسكريتي، وأسطر (Aster) اليوناني، أي النجم (Astre). فهذه هي محركات الكون وسيستمر ذكرها في الأساطير التي تغمر جميع بلاد الغرب بعد ذلك بالتدريج. وليست نظرية نشأة الكون (Cosmogonie) البابلية أقل أهمية. إنها مأساة في ثلاثة فصول هي : خلق العالم، والطوفان ونجاة الإنسانية، وهي النظرية التي نكتشف أبلغ مواضيعها في سفر التكوين في التوراة، وفي سلسلة الألهة التي وضعها الشاعر اليوناني هزيود - (Hésiode). وأبوه من آسيا الصغرى- وحتى في القرأن الذي اعتمد نظرية نشأة الكون كما وصفتها النقوش المسمارية في الألف الثالثة والثانية والأولى ق.م، وكذلك أخبار القس الكاهن بيروز (Bérosc)، ففي البداية كان السديم، ومنه ظهر زوجان من الآلهة. ومن الزوج الثاني تولّد آنو(Anou) ربّ الأرض والسماء، وإيا (Ea) رب البحار.

وقد إنتصر مردوك (Mardouk) إبن إيا، على السّديم وخلق الإنسان من خليط من الدّم والحمأ. وتلقى هذا الإنسان الأول العلم من مخلوق لا

طبيعي هوأوناس (Oannès) الذي نجم من البحر في صورة حوت برأس إنسان برمائي، خبير في الزراعات والصناعة والبناء والقوانين التشريعية. وهوالذي نصب الملوك فيما قبل الطّوفان، ومنهم ألوروس (Aloros) الذي ملك طيلة ثلاثة آلاف وستمائة سنة، وبما أنّ الإنسان أغضب الإله -أل- فتح الإله سدود السماء، وكان الطوفان الذي أغرق البشرية باستثناء الملك العاشر، أم نبيشتي (Oum Napishti) وزوجته، اللذين نقلا إلى جهة أمنة من الأرض، فولدا ذرية كثيرة. وليس من داع إلى التأكيد على الصلة الواضحة بين يونس الوارد ذكره في التوراة وأوناس السوميري، وعلى المجرى المأساوي لنشأة البشرية ولا على قائمة الملوك والقادة (الأباء) الذين يبدو أنّ التوراة نقلتهم عن روايات بلاد ما بين النهرين. ولا ننسى مع ذلك أن نلاحظ أنه في الوقت الذي أمر السلوقيون الكاهن بيروز بتحرير أخباره العجيبة باليونانية، وفي الوقت الذي أصلحوا مكتبات المسماريات، فإنّ البطالسة بمصر طلبوا من جهتهم من علمائهم أن يجمعوا روايات التوراة.

إنه تصادف في الوقت، وتصادف في الإرادات وتصادف في ابتعاث الأساطير وإحيائها.

وقد كانت إزيس المصرية ذات الأنوثة الشفقيـة تقابل إشتار (Ishtar) البابلية، رمز الأنوثة والأمومة (كازيس)؛ أي القدرة الخلاقة في الزمن، والعبقرية الشعرية التي تصوغ الحياة، واستمرارها الأبدي. وكإزيس إنّها النادبة التي تفهم وتدنومن "الموت" والتي تعطف على البشرية لأنّها ترى في كل مخلوق حيّ، صورة الموت واضحة، وهي تكبر معها، وتتغذى من مادّتها الكاملة، وحتى من أفراحها.

إنها ربّة الفجيعة وربّة الرحمة القصوى كما أنها تلهم الصبر وتشيع الحب البدني الذي يؤدي إلى التكاثر البشري ومحاولة قهر الموت.

إن إشتار (Ishtar) ربّة غامضة، ولا يمكن أن نحصر أدوارها وصفاتها، فهي حاضرة بكل مكان ولا مأساة إلاّ وهي محركها الخفي أوالمحمود، وبصفتها القادرة على التوفيق والجمع إنها ربّة الرغبات الممنوعة أوالمستجابة. وهي سهم الموت الذي يجعل كلّ مخلوق في مأساة بتكدير أفراحه وابتهاجه، هذه هي إشتار. وما ينسب إلى أفروديت وإلى فينوس من طبيعة إنما هوصدى لطبيعتها، وبتزاوج الروح والجسد فيها، فهي تمثل ائتلاف الزوج وهي الزوج، وكيف يمكن أن تعرف الحب معرفة عميقة، لولم تجربه كأنثى وكذكر؟ فهي تملك هذه التجربة وتمثل بذلك التعارض والتناقض والتآلف؛ وهي بذلك أسمى من جميع الآلهة الذكور؛ وبصفتها ربّة بنات الهوى ستكون ولية قياصرة الرومان، ولأنها النجمة التي تبشر بالصباح، وتطلع بالليل، يلمع الظلام ويزول الصمت. إنّ ديانة الكلدان البابلية كما تشهد هذه الأنشودة، قد رفعت إشتار وعقيدتها إلى الكمال:

"إن النجمة الأنثى هي الكوكب إشتار، وهي أنثى عند مغيب الشمس؛ والنجمة الذكر هي الكوكب إشتار، وهي ذكر عند طلوع الشمس، وهي عند طلوع شمس، وليها وإبنها في آن واحد، وهي عند طلوع الشمس ربّة أغاديس (Agadès). وعند غروب الشمس إنها ربّة أوروك (Uruk) عند طلوع الشمس إسمها إشتار بين النجوم. وتسمى عند غروب الشمس بليت (Belit) بين الآلهة".

فكما نرى إنّ ثنائية الطبيعة يلتحف بنشيد مبهم وفي لغز لا يدرك معناه إلا العارفون، لأن إشتار تعتبر طريقا سرية، إن الحّب بجميع أشكاله يحتفظ بصفته المقدسة. وقد لاحظ هردوت بهذا الصدد ملاحظة مفيدة، مؤكدا استمرار العادات الآشورية؛ وقد قال: "إذا جامع البابلي زوجته فهو يحرق بعد ذلك

البخور ويجلس إلى جنبها. وتفعل زوجته مثل فعله؛ ويغتسلان عند طلوع النهار؛ ولا يسمح لهما بفعل أي شيء قبل الإغتسال". ويضيف قائلا: "إنّ العرب متمسكون بهذه العادة" ومن القصص البابلية قصة رائعة غير محرفة تحكي مغامرة إشتار التي نزلت إلى سقر، لتخرج إبنها (وحبيبها) تمّوز؛ وقد استقبلتها ملكة "عالم الناحبين" باستياء، غير فاهمة معنى هذه الزيارة، إلى عالم الموتى "الذين يشبهون الكلأ المحشوش، بينما الأحياء من الفلز (البرونز)؛ الموتى الذين يشبهون النبات الذابل، بينما الأحياء هم الشجرة المزهرة" على إشتار أن تجتاز أبوابا سبعة، وتترك عند كل باب قطعة من حليها أومن ثيابها، بحيث تجتاز الباب السابع وهي عارية. وبعد وصول إشتار إلى الجحيم، يغلق عليها وتصاب بآلام قاسية. وبما أن الأرض محرومة من فرحها، فهي في حداد وحزن والزروع فانية، ولا يتزاوج الناس والحيوانات. ويبادر ربّ البحار إيا (Ea) لإنقاذ العالم، فيرسل مبعوثا إلى ربة "الظلمات" ويأمرها بتسريح إشتار. ولا تمتثل إلاّ مكرهة، وتدلي إلى وزيرها بالأمر التالي:

"إذهب إلى مقامات الخلود، وأخف ألواح العلم بالمستقبل اسق إشتار ماء الحياة وأقصها عن نظري" وكذلك كان الحال فاخضرت الأرض وازدهرت الأشجار وتزاوج الناس من جديد؛ واستعادت اشتار ثيابها وصورتها؛ ولكن القصة لم تذكر كيف كان مصير إبنها تموز. وقد نقل اليونان سيرة هذه الحكايــة في أنشودة دمتير (Déméter) وإن كانت الربّة لم تسع للبحث عن إبنها، لكن عن بنتها برسفون (Perséphone) وبالإضافة إلى ذلك، إن أسطورة النزول إلى الجحيم تنطوي في آن واحد على مصورات وعلى مغزى صوفي يستلهمها دانت (Dante) (في الكوميدية الإلاهية) بعد أن اندمجت في عقائد البحر المتوسط وفي ألوان فنونه.

وقد أفاد هردوت بأن الفرس سمّوا إشتار باسم مثرا (Mithra)؛ فإذا كان ذلك صحيحا فإن دراسة "الأسرار" "Mystères" يمكن أن تتجه إلى منظور جديد. ومهما كان، فإننا نعلم أن جميع الآلهة البابلية كانت في المعبد الفارسي قبل عهد سيروس (سارا) (Cyrus) كما كانت قبل ذلك في المعبد المصري.

وثمة مصدر آخر للروايات الإغريقية الرومانية والكتابية (التوراة) والإسلامية، هوأسطورة جلغامش (Gilgamesh)، التي ذكرتها نصوص ترجع إلى القرون، السابع والرابع عشر والثامن عشر ق.م واكتشف بعضها في آشور، وأخرى في الأناضول أوفي مصر؛ الأمر الذي يدل على سعة انتشار الأسطورة.

وهي قصة ملحمية تشتمل على اثنتي عشـرة أنشـودة (صور البروج 12) تتوالى فيها الأدعية والقصص، والمعارك والألغاز الدينية، وتستعرض أعمال البطل جلغامش، ملك أوروك (Ourouk) أحيانا وحده، وأحيانا بمساعدة وبمرافقة صديقه وأخيه في الكفاح أنكيدو (Enkidou)، ولنختصر فصولها الرئيسية الخمسة إذ أن الأسطورة جدّ معروفة عند الجمهور الكبير :

الفصل الأول : جلغامش الصياد الكبير، ومطهر الأدواء يذهب إلى بلد الأرز (لبنان) برفقة أنكيدو (Enkidou) ويقطع رأس وحش كبير كان يرهب السكان.

الفصل الثاني : يقتل الثور السماوي، الوحش الآخر الذي كلّفته الآلهة باضطهاد البشر؛ وينتزع منه قلبه ويهديه إلى الشمس؛ ولكن إشتار تلعنه وتستجيب لها السماء بالقضاء على أنكيدو.

الفصل الثالث : جلغامش يرحل للبحث عن "نبتة الحياة الأبدية" عند سلفها أم نبيشتي (Oum Napishti) (نوح في التوراة) الذي يسكن ببلاد مصب الأنهار، منذ نجا من الطوفان.

يجتاز جبل ماشو (Mashou) الذي تسهر فيه العقارب ثم يصل إلى الحديقة العجيبة التي تملكها الحوريـــــة (أوالجنية) سابيتـو (Sabitou) فتحاول إقناعه بالبقاء عندها، قائلة : "إن الحياة الأبدية التي تبحث عنها لن تجدها؛ إنّ الآلهة عندما خلقوا البشر، خلقوا معهم الفناء... وعلى هذا اغتنم ما وهبت من الحياة، ولا تفكر إلا في التمتع ليل نهار" وعلى غرار أوليس (Ulysse) الذي تبرأ من كلبسو (Calypso)، فإن جلغامش لم يصغ لهذا الإغراء، وصنع مركبا وهبط إلى مصب الأنهار.

الفصل الرابع : وصل بعد رحلة خطيرة إلى سلفه الخالد أم نبيشتي (Oum Napishti) الذي حاول أن يغيّر فكرته، ولكن بدون جدوى. إذاك يدله على الحديقة الموجودة في قعر البحر، التي تعيش فيها "نبتة الخلود" إن بطلنا يغوص مثقلا بحجرين مربوطين إلى رجليه فيقطف فرعا من شجرة الحياة، ويرجع وهو سعيد.

الفصل الخامس : إن الرجوع إلى أوروك لا يتم على ما يرام، بينما كان بطلنا يروي ظمأه من منبع عين، كان بالقرب ثعبان أبصر به، فاختطف فرع الشجرة واختفى به، تأكد بعد ذلك أنه مهدّد بالموت، وحنق على الثعبان الذي سيعرف الحياة الخالدة، وأغرق في الحزن.. لا داعي إلى أي تعليق نظرا إلى وضوح النقول التي ترجع إلى هذه الأسطورة المعروفة منذ ساعة مبكرة في اليونان، والتي رددها الكهان والشعراء والقصاص، وما أكثر الألفاظ العربية التـــي يتألف منهـــا النص الآشوري البابلي. فإسم الربّة سابيتو (Sabitou) مثلا له صيغة عربية حديثة، وأمش (Amesh) إسم معروف اليوم في العراق.

إن الوهج الكبير الذي سطعت به المزدكية في فارس منذ انتشار دعوة زرادشت قد سطع أيضا على بلاد ما بين النهرين. إنها دعوة إلى دين خالص مجرد، مبني على عبادة إله واحد، أهورا مزدا (Ahura Mazda) أوأرموزد (Armuzd)، المسمى أيضا بالخالد، (الأبدي)، بدون إقامة معبد وبدون صورة .. وهوخالق الكون، الموجود في كل مكان، الجبار؛ وكان يجوز أن يسمى آمون راع، أل، اللّه أويهوا.

ويقابله إبليس الشرير، أغرا منيوس (Agra Mainyous) أوأهرمان (Ahriman). والحرب بينهما لا نهاية لها. فهذه الثنائية التي تطّورت في القرن الثالث ق.م إلى المانوية،والتي تذكر بالكفاح الدائم بين راع وسات (Set) بمصر، قد كان لها أثر على الأفكار في بلاد ما بين النهرين. وعلى هذا اعتنقت عبادة النار مع المزدكية.

- أيتها النار، أيها الرب الأكبر الذي يسمو في هذه البلاد! - أيها البطل إبن المحيط الذي يسمو في هذه البلاد! - إنك النّار بوهج شعلتك، توهج النور في دار الظلمات ..."

هكذا تقول أنشودة آشورية بينما تعرب أنشودة أخرى عن الخنوع أكثر من التمجيد، وتشكو من بؤس الإنسان الذي يركع تحت نور الإله الواحد الغفار.

يا ربّ! ليهدأ غضب قلبك! ليهدأ هذا الربّ الذي لا أعرفه إنني لجهلي أتقلّب في العصيان ياربّي. إنني أعارض ربّي وأنا جاهل ياإلهي، إنّ خطئي كثير، وذنوبي كبيرة ... فلتذهب الرياح بالأخطاء التي اقترفتها، ومزق ما فهت به من كفر كما يمّزق الحجاب.

– إنّ ذنوبي الكثيرة (سبعة × سبعة) يارب أسألك غفرانك،
– إغفر أخطائي؛ فمن أناب إليك إهده. فليكن قلبك رحيما كما تكون الأم مع ولدها.

(غ. لوبون ص 565. / G. Lebon. P 565.)

أيّ فرق بين هذا الدعاء وسفر أيوب أوالمزامير؟ (الزبور). وأعمق منها أيضا، هذه الشكــوى من الملـك تابي أوتول أوليل (Tabi Utul Eulil) من بلاد نيبور (Nippur)، كما نقلتها إلينا لوحات نينو: "قد أظلمت عيناي كما لوأنهما مغلقتان برتاج؛ إنني أقضي ليلي في زبلي كما يفعل الثور؛ إني أتلطخ بغائطي كما يفعل الكبش".

وما رأينا في هذه العبارة الأخرى الإبراهيمية المسيحية المنقولة من لوحات نينو: "إن الخروف يعوض الإنسان، ويضحي بحياته مكانه" ويُسمى تموز الضحية والمبعوث إلى الحياة، المعّطر، ومسيح اللّه، بناءً على هذا ينبغي لنا أن نبحث عن أصل عقليتنا الغربية فيما هو أبعد من اليهودية والمسيحية إن منبعها هو الروحانية العربية.

وقد اجتمعت في فلسطين الكنعانية أمداد من عقائد بابل وسوريا ومصر، تألفت من رواسبها عبر العصور القاعدة الثقافية، التي انطلق بها في كل اتجاه، المعمّرون والمبشرون والجنود، والمنشدون، والدعاة والأبطال نقلة الأسماء والأرباب، والبحارة والمهندسون وأرباب الأموال والبنوك والتجار. وقد وصلت أساطيل صور وصيداء إلى ما وراء أعمدة هرقل (Colonnes d'Hercule) إلى الكرنواي (Cornouaille) وجلبت منها القصدير؛ بينما كانت قوافل العنبر تنطلق من ضفاف بحر البلطيق (Baltique)، وتهبط مسايرة نهري الرّان (Rhin)

والرّون (Rhone) إلى موانئ البـروفـنـس (Provence) وإيطاليا. وكانت قوافل أخرى تنطلق من قلب إفريقيا، وتتجه إلى المخازن الفلسطينية في ليبيا وتونس. وعبر هذه الطرق كانت تسري حضـــارة كنعان. وأوضـح فرانــز كومــون (Franz Cumont) في كتابه "الديانات المشرقية في وثنية الرّومان" أن "السـوريـيـن نشـروا عـقائـد أدونيس، وأتيس (Attis) وبـعـل وسـيـبـال (Cybele) من جبال الأستوري (Asturies) إلى مصب نهر الدانوب، وأن سويسرا نفسها قد نفذت إليها آثار عديدة من هذه الدعوات. وفي سيون (Sion) مثلا خرائب لمعبد خاص بسيبال. وقد عرفت بلاد الغال (Gaule) وإسبانيا وهولندا، وإفريقيا إزيس، وإشتار، ويهوا وأل، وأبناء الإله، وعقيدة البعث، في عصر أقدم بكثير، من عصر التوسع اليوناني أوالروماني.

ولم يكن ثمة من داع إلى هدم معبد هيرود (Hérode) لإتاحة إقامة جماعات من الأوزريين أواليهود أوالمردوكيين في بلاد الغرب. إننا نكتشف في كل يوم صلات غريبة بين الديانات السلتية (Celtes) والفلسطينية، وبين الدرويد (Druides) ومعابد العاصي بسوريا وفلسطين (Judée).

وهل الرب الغالي (Gaulois) بليم (Bélèm) إله آخر غير بعل؟ وقد كان المشرق واليونان مدرسة نشرت عقائدهما بين أمم كاملة من بلاد الغرب. وليس من الضروري أن يكون أتباع بعل أويهوا أوالمسيح أوالإسلام في بلاد الغال، وفي إفريقيا الشمالية أوفي إيطاليا ممن قدموا من فلسطين؛ وفي العالم تلاميذ كثيرون لأفلاطون. وهل أدعوا لذلك أنهم من أثينا؟ إن اللّبس الذي شاع بين مفهومي الأمة والعقيدة والذي نجمت عنه في أوربا نظريات تمييزية عديدة، يرجع إمّا إلى الجهل بالواقع التاريخي البسيط، أو إلى تضليل متعمد. ومن البله أن نزعم أنّ ألمانيًا أوفرنسيًا فلسطيني، لأنه يدين

بدين ظهر في فلسطين؛ لأن جميع الأديان تقريبا، إنما ظهرت في فلسطين. وكذلك لا يمكن إرجاع جميع المسلمين الموجودين في العالم إلى مكة، لأنّ ذلك يطرح مشاكل لا حل لها.

إن تداخل الديانات في فلسطين العصر القديم، لا يمكن أن نتصور مداه؛ وهو تداخل مضاعف باختلاط من أجناس مختلفة يجمع بين اليونانيين والأناضوليين والأفارقة والكلدانيين، وكلّهم يتحدثون لغة واحدة هي الآرامية، مع التمسك بلهجاتهم الخاصة. وقد كانوا يعرفون بعضهم بعضا ويعترفون بذلك. على خلافنا نحن. وقد غطى كر اللّيالي والأيام على المسالك. ومن خرائب ببلوس، وأراد وأمريت، وتسور، استخرجنا تماثيل لإزيس، وهوروس، وأوزريس ولإشتار، واكتشفنا بصورة خاصة دلائل على وجود ديانة واحدة معقدة، استطعنا أن نستخلص منها بعض المسائل الأساسية بفضل لوحات رأس شمراء.

إن النظرية الكونية شبيهة بالنظرية الأشورية البابلية، ومطابقة أيضا لملحمة جلغامش.

إن الإله الأكبر هوأل، (الذي يعبد في كل مكان ولا سيما في الأنصاب وفي بيوت أل)، والذي فوض سلطته في الأرض إلى ثلاثة أرباب هي : دانيل (Danel) وكريت (Keret) وبعل. أما دانيل فهوربّ الزراعة ويحكم في شعب الرفاييم (Raphaim). ومن يكون هؤلاء الرفاييم؟ هل هم عماليق؟ أم ملائكة؟ أم أعوان؟ إنهم معروفون في التوراة؛ ثمّ إن الجذر رفا (Rapha) وارد في رفا أل، رفا بعل. وإذا رجعنا إلى العربية فقد يكون معناها "رفع إلى السماء" و"أعلى" و"عظّم". ومعنى رفائيل ورفا بعل، هوتقريبا معنى واحد؛ أي عابد أل. وعابد بعل.

أما كريت (Keret) فهو نصف إله؛ إنه إبـن أل وأشــرات (Achrat). وقد تزوج بنت ملك الإدميين (Edamites)؛ وذكرت ألواح رأس شمراء وصف هذا الزواج ومن الغريب أنه يذكر بمشاهد التوراة المتعلقة بحياة الآباء الشيوخ إن بعل ربّ جميع الطاقات الأرضية؛ وهومعبود في كل مكان؛ وكل مدينة تتخذه وليّا لها؛ باسم بعل هرمون، (Baal Hermon) أوبعل فيقور (Phégor) أوبعل تسورو (B. Tsonron) (صور) أوبعل سيدونو (Sidounon). أوبعل بك (B. Bekk) إلـخ... وهويدعى باسم أودناي (Odonaî) أي الــرب (الأب) والملك، (ملك) وهي أسماء عربية كلاسيكية وليست عبرية.

ولـن نـعود إلـى هـذا الـتحقيق. ليس بعل ربّا سهل الحياة. إنّه يحارب باستمرار، ضد أمير البحر مثلا زبل يم (Zabel yam) المتحالف مع "نهار" أي النهر؛ وهذا نزاع يجب أن يبث فيه أل نفسه وملائكته أوإليم (Elim). ولبعل قرينة أنثى تساعده وتحبّه، وهي أخته الجميلة أنات (Anat) التي اشتق إسمها من الكلمة العربية "عين" (عين الماء). وما أعجب هذه "الأنات" التي تسمى أيضا أستارتي (Astarté) المطابقة لإشتار البابلية. وكان رمسيس الثاني في مصر، ينعت أحيانا بأنه "ربيب أنات أستارتي"؛ ولهذا الفرعون نفسه بنت تسـمـى "بـنـت أنـات" ولـلـربـة طـابع أخـيـهـا بـعـل، الـنـفور الـجسور؛ وتشبه "بسخمت" الـربـة الـمصريـة ذات رأس الأسـد. وسـنعلم أن أنات أسـتارتـي تقضي على شعوب كاملة، لأنها تخلت عن عبادة أخيها الحبيب. ونراها وهي تغسل يديها في دمهم. وهي تفتخر بأنها قضت على الثعبان ذي سبعة رؤوس أي ليتان (Litan) الذي يبدوأن التوراة اشتقت منه لفياتــان (Leviathan)؛ وأنها قضت على "التنين" (Tannin) و"وضعت كمامة على خطم كلبة ألهة النار". إنها تبكي كما تبكي إزيس، وتهبط إلى سقر لتنقذ أخاها بعل، الذي

قتل في كمين. وتخوض في معركة ضارية بمساعدة الشمس، ضد "موت" إله الموت وتقتل في آخر المعركة قاتل أخيها بضربة منجل؛ وإذّاك يمكن أن يحيا أخوها ويبعث من جديد. إن أنات أستارتي هي أيضا رمز الحياة الدائمة، والقوة القادرة على تبديد الظلام، ورمز الصفاء والطهارة ومفتاح البعث. وشارتها هي الصليب ذي العروة.

فأسطورة إزيس وأوزريس، واشتار وتموز تنبعث من جديد في بعل وأنات. وتعتبر المرأة التي بها يقهر الموت، ويحطّم الثعبان، ويشفى العالم، الشخص المركزي في الديانة العربية المشرقية.

وفي العربية مثال حديث يقول ناصحًا: "الجنة تحت أقدام الأمهات" وهومثال يختصر الطابع النسائي العميق في مجتمع حاول علماء الإجتماع المتأخرون، أن يسموه بأنه مجتمع رجال، خلافا للواقع. إن تمجيد المرأة من المواضيع الأساسية في تعليم المسيحية التي تتميز بها بصورة بيّنة عن اليهودية، إستجابة لدعوة من أقدم وأعمق دعوات المشرق. وهذا مقتطف من دعاء لدانت بعبارة يجوز لعابد إزيس أو إشتار أن يتصوّره كذلك:

"أيتها الشمس في منتصف النهار، أيتها الأم العذراء، يا إبنة إبنها، إنك تحرقيننا بخيرك المضطرم؛ إنك منبع أمل كبير لأبناء الهلاك. أيتها المرأة إنك عظيمة وإنك قديرة، ولوأنّ راغبا في نعمة لا يلجأ إليك، لما نال مرامه.

إنّ إحسانك لا يستجيب فقط لمن يدعوك. إنه يرتضي الطلبات ويقبلها بكل سخاء، فيك الرحمة؛ فيك الحنان؛ فيك العظمة؛ وفيك جميع الفضائل التي تتّسم بها المخلوقات" (الجنة أنشودة 33).

ومن بين الأولياء وأنصاف الألهة، ورفقاء الألهة الفلسطينية وأتباعهم من يحظون بالإعجاب، مثل ملقارت (Melkarth) مبدع الكتابة ومسخّر الأساد

الذي يذكّر بجلغامش؛ ونكتشفه بعــد ذلك في صورة هرقليس (Heracles) الـذي اسـتطاع بقـوة سـاعديـه أن يـبعّد بيـن اعمـدة مضيـق جبـل طارق (جبرلتار) ليفسح الطريق للمراكب الفلسطينية؛ ويهوا ومعناه بالعربية يا هو؛ وكاشيرْ " (Kashir) المعماري الأكبر" الذي كان بشكل مّا إله العلاقات الخارجية إذ كانت كافتور (Kaftor) (وهو اسم اقريت في التوراة) وممفيس وما كان وراء مصر تحت نظره .

ومن العناء أن نذكر جميع العقائد والألهة؛ والأسرار السحرية والتأملات العميقة التي نقلها اليونان عن تقاليد العرب، وشاركوهم علاوة على ذلك في تصوّرها في بلاد يتساكنون فيها معا، وليست هي غير الوطن الفلسطيني الإيجّيى.

ومن التفاهة أن نعدّد صور الشبه العديدة الكثيرة بين الأديان الفلسطينية والمواضيع الأساسية اليهودية المنقولة من الترات العربي كما هوجليّ. وهذا ما يقوله غسطاف لوبون (Gustave Lebon) الأستاذ الكبير السديد النظر، الذي أعرض الشراح الأعلام عن أرائه دون أن يعوّضوه :

"إن سفر التكوين (التوراة) والهباء السابق، وفوق الظلمات المائية روح الإله، والتفريق بين مياه الأرض ومياه السماء، وخلق العالم بما فيه من حيوانات قبل ظهور الإنسان والطوفان، وسفينة نوح وبرج بابل، واختلاط الألسن إلخ، قصص نكتشفها وهي شبيهة كل الشبه بما في أقدم النصوص المسمارية. وإسم الرب عند اليهود، كإسم الله عند المسلمين، **اسمان** بابليان بجذر أل (EL-AL) الذي يطلق عند الكلدان على الخالق الأكبر" (الحضــارات الأولــى نشر فلامريون ص 555) (*Les premières civilisations*. Ed Flammarion. P. 555).

إنّ علينا مهمة واضحة غايتها ترتيب وتصنيف مواضيع الأساطير التي اتفقت فيها العروبة والهيلينية. ولنتحدث قبل كل شيء ما دمنا بصددها، عن

اشتار أنات أستارتي أفروديت. وبسرعة تحضر ببالنا أسطورة أدونيس البطل الفلسطيني الذي كان يعبد في لبنان، عند عين أفقا (Afka) التي ينبع منها نهر أدونيس. ففي العصور القديمة كان بهذا المكان معبد خاص بأفروديت أفسيد [Aphrodite Afcide] وكان أدونيس بطلا غامضا لسببين، لأنّه أولا ولد من أثنتي عشرة ليلة سفاح، (العدد إثنا عشر من الأعداد السحرية عند البابليين) من الأميرة السورية مسرا (Misra) أوسميرنا (Smirna) وأبيها نفسه؛ ثم لأنه أقتســم بقرار من زوس (Zeus) بين برسفون (Persephone) وأفروديت، كما كان لأوزريس الذي قسم بين إزيس والليل أوبالأحرى كما كان لتمّوز، الذي قسم بين إشتار وموت (Mout)، ان ادونيس بطل دوران فصل الغناء، والربيع المجدّد للحياة؛ وهويجعل من أفروذيت أحيانا الأم الباكية التي تندب وفاته (وتسميها الأساطير اليونانية إذاك باسمها البابلي وهوسلامبو) وأحيانا المرأة التي تحسنت هيأتها بعد عودتها. وقد نشأ أدبٌ غزير غنائي أساسا، في جميع جهات البحر المتوسط للإحتفال بهذا العيد الأسطوري. ففي أسبانيا وصقلية وبروفنس وإيطاليا وأثينا، وأنطاكية والقدس (حسب حزقيال) وفي بيت لحم (حسب سان جروم)، تنظم مواكب وطوافات احتفاء بذكرى وفاة أدونيس وكذا في الإسكندرية.

ولنقل عرضًا، أن أدونيس ماهو إلا اسم أدوناي الذي نتوجّه به إلى الإله. ولنلاحظ أيضا الطابع العربي البارز في هذا البطل الذي ولدت أمّه في سوريا؛ وفرارا من غضب أبيها تلجأ إلى "الجزيرة العربية" على أن دور أفروديت، غير محصور في مصير أدونيس، فعلى العكس، إنها ولدت من البحر، وأسكنها الفلسطينيون في قبرص وفي سيثار (Cythère)، إريكس (Eryx) في صقلية، ويمنحها اليونان من الأسمــاء سبريــس (Cyprès) وسيتيري (Cytherée)

وإريسنا (Ericina)، وهي كإشتار، ذكر وأنثى نظرا إلى أنّ روما عرفت ربّة باسم فينوس برباطة (Vénus Barbata)، وبالإضافة إلى ذلك إنها تزوجت بصفة موقتة مع هرمس (Hermes) وأنجبت المزدوج الجنس هرم أفروديت (Hermaphrodite) وفي هذه التسمية شيء آخر غير التلاعب اللفظي الخالص. إنّ أفروديت ربة من آلهة طروادة؛ وهي والدة إيني (Enée) ذات الصلة مع أدونيس. إنها لم تستطع إنقاذ مدينتها، طروادة العزيزة، فاقتفت طريق الأساطيل الفلسطينية، ونقلت إيني (Enée) وذويها إلى أطراقيا، (Thrace) وإبير (Epire) ونزلت عند الفلسطينية إليسا (Elissa) (ديدون) في قرطجنة، ثم في صقلية، وعند الإتروسك بعد ذلك في كوم (Cumes)، فساقته كاهنتها إلى الجحيم. وبعد أن أخبر بمصيره انتهى إلى ضفاف التبر (Tibre) فأسس لافنيوم (Lavinium) المدينة التي كانت بعد ذلك هي روما.

ولما توفي إيني (Enée) رفعته أمّه أفروديت إلى السماء ومجده الرومان باسم جوبيتر أندجات (Jupiter Indigète) وهذه هي باختصار قصة الأنييد (Enéide) التي حبرها فرجيل (Virgile). على أن المدينة الخالدة، روما، ليست هي المدينة الوحيدة التي اعترفت بأن مؤسسها هو هذا الأسيوي إبن الربة الأسيوية. وبكل غرابة، فإن قبيل الإدوانس (Eduens) من أوتان (Autun) في بلاد الغال (Gaule)، يدّعون ذلك أيضا. والمدن الثلاث من الإمبرطورية التي أعفيت من الضرائب مدة طويلة، هي أوتان (Autun) وروما وطروادة. فالنسب الأسيوي لم يكن على هذا أسطوريا فحسب، وشيء غريب آخر؛ إنّ أفروديت والدة إيني (Enée) كانت أيضا الوالدة والولية الإلهية "الفينوس المنجبة" لأسرة جول قيصر (J. César). أليس من الهام أن نعلم أن قيصر هذا، قد دعاه أهل أوتان (Autun) إخوته في

العقيدة، إلى أن يقوم بفتح بلاد الغال معهم؛ إن الأساطير اليونانية تعرف "نادبة أخرى هي دميتر (Demeter) ربة الخبز والفواكه. ومغامرتها تساير عن قرب مغامرة إشتار؛ فقد انتزع منها ربّ الهالكين إبنتها برسفون، (Perséphone) بينما كانت تقطف الأزهار، في سهل نيسا (Nysa) باليمن، الذي ينبت الكرمة الخالدة ذات المعجزات. وقد استغرق بكاؤها تسعة أيام، ثم وصلت إلى ألوزيس (Eleusis) بالقرب من أثينا، فهدّدت العالم بالمجاعة إن لم ترد إليها إبنتها. فارتاع لذلك زوس، وأكره أخاه هادس (Hadès)، إله الموت الجبار، على أن يستجيب لطلب دميتر (Demeter)؛ ولكن هادس كان يحب يرسفون، فأطعمها سرًا عجم (حبة) رمان لتتعلّق به بصفة نهائية.

إن برسفون ترجع بعد ذلك في كل ربيع إلى الأرض ولكنها تعود إلى زوجها في فصل الشتاء. واحتفاء بما كان سببا لبكائها وفرحها، فإن دميتر (Demeter)، تعرف سكان الوزيس (Eleusis) بأسرار الحياة والبعث، إنّنا نجهل كل الجهل الطريقة التي تلقّن للأتباع، ولا ما كانت شعائرهم، ولكن نصوص العصور القديمة الكلاسيكية تشير بكلمات غامضة إلى أسرار إلوزيس، موضحة أحيانا إنّها ترجع إلى "وحي أسيوي".

وهذه سيبال (Cybele) الأسيوية أيضا؛ إنها ربة الطاقات الأرضية، المبجلة في آسيا الصغرى، القهارة المرهوبة إلى درجة أن مجلس شيوخ روما، أمر في سنة 204 ق م، بنقل "الحجر الأسود" رمز الربة من بسمونت (Pessimonte) إلى البلتان (Palatin) وقد جنّ زوجها أتيس (Attis) فجب عضو تناسلة؛ ومن هنا نعلم أن أسطورة الجنس المزدوج (l'Hermaphrodite) المنسوب لعبادة

إشتار وأفروديت، كان منتشرا معروفـا من بابـل إلى روما، أمّا هيرا (Hera) أخت زوس وزوجته، فقد تزوجت في فـريـجيـا (Phrygie) على جبل إيدا (Ida) وهي ربة التزاوج والأرض الخصبة. وقد ولدت أثينا العذراء في ليبيا على ضفة بحيرة ترتيون (Triton). وتملك أرتميس (Arthemis) أخت الشمس أجمل معبد لها في إفيز (Ephèse)، إحدى المدن الأسيوية المشهورة، التي أقام بها الحواري يحي (جان) بعد عيد العنصرة (côte Pent)، وبها أول كنيسة بلغ فيها آيات القيامة (Apocalypse) (من التوراة) (أوالإنجيل).

إنّ المرأة، الرمز الأسمى للحياة والموت في عقيدة اليونان تمثل في صورها الثلاث كعذراء ووالدة وعشيقة، وبصفاتها الثلاث، الإطمئنان، والأمل، واللذة، المرأة الأسيوية الحقّة. ومعروف أن المسيحية تعلّم أن المسيح هو ابن المرأة والروح. وكذلك القرآن. ومعنى ذلك أن فكرة الأنوثة الخلاقة فكرة عميقة تدخل في إيمان الإنسان المشرقي وعقيدته. حقا إنّ الثلاثية اليونانية: زوس هاديس (Hades) وبوسيدون (Poseidon) ثلاثية ذكران نظريا، ولكن ثلاثية روما تضم ربتين إلى جنب جوبيتر (Jupiter) تتصدّران معه العرش.

وثمة ربّان عظيمان مشرقيان بالتحقيق لامعان في قبّة المعبد الهيليني؛ أبولون (Apollon) وديونسوس (Dionysos)، والأول كاف ليختصر وحده جملة الأديان والأساطير والعبادات التي ظهرت في مصر وفلسطين وفي آشور وبابل إنه أمير شمسي يمثل في آن واحد أوزريس (Osiris) وأرموزد (Armouzd) وآنو (Anou) وهو بالإضافة إلى ذلك نظرا لاسمه أل يوس

(El-IOS) قريب أل الإله البابلي الذي سمي بعد ذلك في العربية اللّه (Allah) ويشار إليه برقم سبعة، وهوعدد الكواكب. وقد ولد في اليوم السابع من الشهر، وحيّته سبعة أسراب من طيور التم (Cygne) تمثل أيام الخلق السبعة. ويسميه أوشيل (Eschyle) سبتيم (Septime) في مأساته "السبعة ضد طيبة" (Thèbes). وتكريما له تسمى أطفال اليونان والرومان بـ "سبتيم" الذي تسمى به بعد ذلك قياصرة الرومان. وأبولون هوإبن الإله من أمه ليتو (Leto)؛ فرارا من هيرا (Héra) الغيور، لجأت منفردة إلى جزيرة ديلوس (Delos) حيث كابدت آلام الوضع طيلة تسعة أيام وتسع ليال عند جذع نخلة. وماذا يقص القرآن؟ إنه يقول إن مريم العذراء ابتعدت عن عائلتها في الجانب الشرقي وجلست بمكان قصي تحت جذع نخلة، وأنها وضعت المسيح بهذا المكان، فلا يوجد في أي مكان آخر مثل هذا التصادف بين الولادة الإلهية والنخلة الصحراوية. وتصادف آخر لكن هذه المرة مع أصل مدينة روما التي يقال أن الذّئبة هي وليتها. فبمجرد وضع أبولون، نقلت والدته ليتو (Leto) إلى آسيا الصغرى، حيث إنقلبت إلى ربّة ذئبة، تسود على قطيع من الذئاب.

ومن بين الهدايا الأولى التي قدمت إلى الولد أبولون، تاج أسقف، وأول معجزة أتاها، هي أنّه قضى على الثعبان الأصلة الذي كان يجتاح مقاطعة دلف ولذكرى هذا الحدث، انقلبت دلف سرة العالم، إحدى عواصم الكهانة في البحر المتوسط مع بيتي (Pythie) المشهورة التي تتجه إليها جميع الشعوب وتطلب تنبؤاتها؛ وبأية لغة دولية كانت تنطق هذه البيتي؟ إنها لا تنطق بأية لغة على ما قيل. وإنما كانت تعبّر عن تنبؤاتها بأصوات يفسرها المترجمون التابعون للمعبد بلغة المستفسرين. إن أبولون إله القتل المطّهر،

والمؤاسي الكبير، وهوأيضا المبشر، أي الملك المكلّف بالتبليغ. وهوبهذه الصفة يقوم بدور هامّ في التقاليد الأورفية. إنه يتحكم في الجنّة الفيتاغورية بجزيرة السعداء، التي يعيش فيها أخيل (Achille) وهيلينة الجميلة خالدين منعّمين. وبصفته إله الحب تزوّج بالحورية (المائية) سيران (Cyrène) وأهدى إليها المقاطعة الشرقية من ليبيا. ويتزاوج مع هكوب (Hécube) زوجة بريام (Priam) لتنجب منه ولدا يؤسس مدينة ميلات (Milet)، وتتحد الرّوح الأبولونية القدسية أخيرا بعذراء تنجب فيثاغور، إبن العذراء والإله كما أخبرت بالمعجزة بيتي نفسها (Pythie) بدلف (Delphes).

وإذا كان أبولون ربّ الموسيقى فذلك لأنه خبير بسّر الأعداد، إنّه يؤلف بين الأصوات علاوة على أنّه يستشعر الألحان، ويقود موكب آلهة الغناء بعلم ودراية محكمة.

وإذا كانت دميتر (Demeter) ربة الخبز، فديونيسوس (Dionysos) ربّ الخمر، فسر الخبز وسر الخمر هما مفتاحان لديانتين ذاتي أسرار وتلتقيان بعد ذلك في آسيا أولا، ثم في اليونان وروما، وفي المسيحية أخيرا. إن غنائية فردريك نيتش (Frédéric Nietzsche) قد أشادت بعقيدة ديونيسوس وقابلتها باطمئنان وهدوء أبولون. وقد اصطنعت بهذا الشأن فلسفة عريضة استخدمت الجنون الأسيوي لإبراز السّداد الأوربي. وهذه دعوى قديمة شائعة ولكنّها غير مرتضاة عن يقين. ذلك أولا لأنّ أبولون وديونيسوس كليهما أسيويان، ثم لأن عربدة ديونيسوس قربان أتباع أكثر مما هوفجور؛ فكل احتفال بالربوبية قد يكون مناسبة لوليمة طقسية.

ومعنى ديونيسوس اشتقاقا :"إبن الإله" وهومن زوس الذي تزوج بالفلسطينية سميلة (Sémele) أوشملة بالعربية، بنت كدموس ملك صيداء،

مؤسس مدينة طيبة في بيوتي (Béotie)، فهوفلسطيني بالام وعربي برحلاته وسكنه بمصر وسوريا وفريجيا، حيث عرف وأحب سيبال (Cybele)، وفي الأندوس حيث كان فاتحًا ومشرعا. وقد قضى طفولته في اليمن بأرض نيسا (Nysa) الأسطورية، المنتجة للأعناب، فرارًا من غيرة هيرا (Héra) الزوجة الغضوب الشرعية لربّ الألهة.

ذلك أن ديونيسوس إله خفي [1] (مجهول) وهوالإله الرحّال، وهو أخيرًا إله الوجد والزيـارة إلى الجحيم. وقد عاش في نيسا (Nysa) ومسخه زوس إلى جدي؛ فهوالجدي أوالخروف المستلهم. ولما كبر تجوّل في عالم آسيا، لينشر الأسرار، ولا يوجد مكان بالأرض لا يذكر مرور ديونيسوس به. فل ولم يكن هذا العالم موحّدا روحيا من قبل، بدعوة بعل أوأوزريس، لوحده هو بالتحقيق.

على أن رحلاته لم تكن دائما رحلات سلمية، ففي إطـراقيا (Thrace) اصطدم بالملك ليكرج (Lycurgues) الذي حاول أن يمنعه من اجتياز الدردنيل (Hellespont) والمضي إلى أوربا، قادما من آسيا. وقد قهره ديونيسوس وفقأ عينيه وصلبه. ويرى بعض المؤلفين أنّ هذه المأساة إنما وقعت في اليمن، عند مجاز باب المندب. إنّ ديونيسوس كان يعلم الوجد (النشوة الروحية) والغيبوبة والفناء في الألوهية العميقة عن طريق الرقص والقربان والخمرة المقدسة، لكانهات باخوس اللائي يعبدنه. إن تخليص الروح بممارسة حركات بدنية، وسيلة يشترك فيها أتباع الطرق الصوفية؛ ويجوز أن نتصّور كيف كانت المعابد الديونيسوسية بما نعرفه عن "الدراويش الراقصين" الذين يمكن أن يكونوا ورثة هذه المعابد. بالجذب والفناء نرتفع إلى اللّه .

وبالجذب نعود إلى الحياة ونغادر عالم الموتى، وقد هبطت إشتار إلى

1 - Le Deus Absconditus des Ecritures,

الجحيم لتنقذ إبنها؛ وهبط ديونيسوس لينقذ والدته. ويردها إليه هادس مقابل فرع من الآس، وبناء على ذلك فإنّ أتباع عبادة دمتير في إلوسيس (Eleusis) يشركون ديونيسوس في تراتيل قداساتهم. إن الموكب الليلي الذي ينظمه الأثينيون في كل سنة إلى إلوسيس ترافقه الكاهنات الخاصة بابن سميلة (Sémélé) وهي الثياد (Thyades).

ففي كل سنتين تقصد هذه الكاهنات في شهر نوفمبر في موكب لإيقاظ الربّ بالقرب من جبل البرناس (Parnasse)؛ وتحتفل من جديد بوفاته بعد ثلاثة أشهر. وهن كاهنات لأبولون أيضا ويرقصن لتمجيده.

وبينما يجتمع الأتباع في إلوسيس (Eleusis) في قداس الخبز والخمر، يرقص الأنصار في دلف (Delphes) رقصة الشمس ورقصة باكشوس (Bacchos) ديونيسوس (Dionysos) وهم في حبور سماوي، ويستنطق سوفوكل (Sophocle) أجاكس قائلا : "أيتها الظلمات، يانوري!" وهذه الصيحة التعجبية تعبّر باختصار، عن الاتحاد الذي يؤلف بين أبولون وديونيسوس؛ وكانت المشاعل التي تشيع الأضواء في أفراح الكاهنات المتحمسات تنويها رائعًا بأبولون أي يال يوس (El-IOS).

ولد يُونيسوس بن زوس وحفيد الفلسطيني كدموس، يرجع ما كان لأثينا من مسرح لا مقارنة بينه وبين مسرحنا.

وقد أذاعته أسرة بزسترات (Pisistrate) في أثينا في القرن السادس ق.م، وكان يمثل في صورة رسمية وشعرية القداس العمومي والطواف، كما كانت الكاهنات تقوم به بصخب، تمجيدا للربّ الأعلى. وكذلك كانت "الأسرار" في العصور الوسطى الأوربية لوحات حيّة لآلام المسيح. وفي عصرنا ولد المسرح الإيراني العراقي هو الآخر من مظهر حالات الحداد

الشعبي على استشهاد البطل المسلم الحسين بن علي، الذي قتل في كربلاء على نهر الفرات. وعلى هذا فإنّ المسرح اليوناني، كان في بدايته، وعلى صورته التي بقي عليها، رغم التغييرات الخارجية التي طرأت عليه، أعني نشيدا دينيا، ومأساة موسيقية دينية : أي صلوات لديونيسوس. وكل يعرف أن كلمة مأساة "(Tragédie) التي يسمى بها هذا المسرح تتألف من ترغوس (Tragos) أي الجدي، وأود (Ode) أي النشيد، إشارة إلى طفولة الإله الذي عاش مستخفيا في البلاد العربية السعيدة (اليمن)، في صورة جدي، فكلمة "تراجيدي" (Tragédie) يمكن لهذا أن تترجم أوتفسر بمعنى "نشيد الجدي" أو نشيد للجدي" ذلك لأن التراجيديا اليونانية هي قبل كل شيء نشيد ودعاء موجّه إلى السماء من بشرية قهرتها الأقدار الكونية. ولا يكاد يمثل الفنانون على الخشبة إلا تمثيلا قليلا، لكنهم ينشدون. فالمنشدات من الجوق : يرتلن ويرقصن بينما رئيس الجوق يشارك الممثلين ويصرف الإنشاد. وكانت الموسيقى شرقية، وقد أكد سوفوكل في رسالة "الرقص الغنائي" التي كتبها في شبابه، غلبة الألحان الفريجية، ويمكن تحديد الترجيديا اليونانية أحسن تحديد بأنها غناء وتساوق بطيء، وصلاة وملحمة وقربان.

فلا تعبر هذه التراجيديا عن حيرة فكرية، ولا عقدة مسرحية أواهتمام تمثيلي، وعلى العكس من ذلك إن "التراجيديا" اليونانية تستدعي توترا كبيرا في الأعصاب وافتتانا بدنيا ظاهرا. وغاية المشهد في التراجيديا هو اشراك كل مشاهد في المأساة العالمية، لا توفير ملهاة له، لأنه مهما كانت الحال، يعرف عن ظهر قلب ما يعرض عليه من المواضيع.

وهل كان المشاهدون لتراجيديات أوشيل وسوفوكل ينشدون مع

الممثلين (المنشدين)؟ وهل كانوا يرقصون معهم؟ نعم في الغالب، وعلى كل فأنهم يشاركون في الحركات وفي الترتيل، وكذلك الأمر في الحفلات العربية في عصرنا، فلا نرى الممثلين في جهة، والمشاهدين في جهة أخرى؛ كل الناس يمثلون، والحفلة مظاهرة للمشاعر المتجاوبة. وليست مشهدا ونزهة وبالأحرى مشهدا بأجر، فالمجانية طابعها والغاية هي التجاوب والتعبير عن اتحاد المشاعر. إن الحفلة العربية كالمسرح اليوناني الكلاسيكي، لا تمثل لكنّها تمجد وتحتفل.

وهي ليست ترويحا وتلهية بل تدعو إلى المشاركة والإلتزام؛ ولا تحمل على الجمود، بل تدعوإلى الحركة. وهي الإحتفال بمعناه الأفضل إذ كل واحد يقوم فيه بدور وفقا لتنظيم دقيق. وهي في الجملة عكس المشهد المتلفز، الذي يقدم الصور النائمة، للأعين التي يغشاها النوم.

إن الحفلة (أوالفرح) العربي والمسرح الديونيسي بهذا المفهوم حفلتان عموميتان، لا يجوز للممثل فيهما أن يتميز بحركة بدنية أوصورة غير عادية. والممثل عند أوشيل ليس له قد ولا وجه ولا إسم، إنه يحتذي أخفافا مسرحية، ويتنقب بنقاب من خشب أوحديد، ويكتسي ثيابا كهنوتية؛ وهوالإنسان أوالإله الممثل لجميع الناس لا لأي واحد منهم، إنّ مجموعة الإنشاد اليونانية تستوعب ولا تعترف بعزلة الإنسان؛ وهي حاضرة في كل مكان. وحتى إذا لم تتكلم فهي تستقصي وتعير الأذن، وتحكم. وهي تساير الممثلين بانتباه ولا تفارقهم ولو لحظة باهتمامها أوبنظرها. ذلك لأنها إنسان العين (الحدقة) والشاهد، والضمير الجماعي والأشخاص طوع أمرها، والمؤلف واجب عليه التواضع.

فكل شيء للأثر (أي التراجيديا) ولا شيء للفنان، وهذه هي قاعدة

النظام الفني فيها كما يبدو أما في مسرحنا الأوربي، فإن هوى همليت (Hamlet) أوهرميون (Hermione) من المغامرات الشخصية المتبوعة بالغناء الفردي (مونولوغ) أن شكوى أنتقون (Antigone) أوبروميتي (Prométhée) هما إنشاد جماعي (جوق) للتعبير عن المأساة (الترجيديا) الإنسانية، وهما وتر مكلف بتحريك جميع الأوتار الأخرى في الآلة، أي مجموعة الإنشاد، وجميع المشاهدين. وقد لمس فكتور هوغوفي مسرح أوشيل "توراة يونانية" وتوسّم في بروميتي (Prométhée) أنوارا مسيحية فلنستمع إلى أوشيل :

"ليخرب وليزعزع إلهكم العالم؛ وليرسل طيوره الثلجية ورعوده القاصفة الزلزالية فلا شيء يمنع انهياره. لا شيء؛ نعم لا شيء يفرض على أن أكشف عن إسم من سيأتي يوما ليطيح بسلطانه". إن أوشيل كان من إيلوسيس (Eleusis) ولا شك أنه كان عارفا "بأسرار" ديونيسوس ودميتر. ومن الصحيح أن الشعور الديني القوي الذي يشيع في المسرح اليوناني، يدعوإلى الإقتناع أكثر مما تدعونصوصنا العادية المستوحاة من المسيحية الأوربية.

وفي ذلك دليل على أنّ الإيمان لا يتحقق بالعقيدة ومضمونها، وأن العقلية الفلسطينية واليونانية كانتا في العصور القديمة البعيدة، تنطويان على استعداد خاص للترحيب بالمسيحية الحقيقية، لأنها نابعة منهما. ونضيف أن فكرة الثلاثية الساحرة بقيت مدة طويلة متحكمة في التأليف المأساوي اليوناني (Drame) إذ أن المشهد بقي مؤلفا من ثمثيل ثلاثة آثار، لا أثر واحد. فالمسرح اليوناني يقوم على هذه الثلاثية (Trilogie) وهويتجاوز الظروف، ويطرح القصة في أبعادها التاريخي والشعري والغيبي. وهي

الأبعاد الثلاثة التي تتطابق مع طبيعة الحياة، كما كانت تحياها المدن في العصور القديمة.

إن الأسطورة الفلسطينية الطيبوية (Thébaine) لم تكن منحصرة فيما كان يبثه ديونيسوس من تعليم ووعظ في تيهانه. وقد تطورت إلى سلسلة بطولية. وكانت كسلسلة حرب طروادة وسلسلة الأرغونوت (Argonautes) الأورفية من أهم أساطير اليونان التي ردّدت أسماء أوروب (Europe) ونيوبي (Niobé) وأوديب، وأنتغون (Antigone) وترزياس (Térésis) وإتيوكل (Etéocle) وبولنيس (Polynice)، ولا سيما هرقليس (Heracles)، المنقذ الذي كان كديونيسوس مقاتلا حربيا وناصرًا للعدل، ومعتديا على الجحيم، ورحالة، اتفقت رحلاته في العالم القديم، مع رحلات ديونيسوس. ولد في طيبة (Thébés) من زوس، ويشبه بملامحه وقامته وقوته البدنية والأخلاقية، جلجامش وملقارت (Melkart) الأسطوري البابلي الفلسطيني، المدعوأيضا سلمان المنقذ. ولسلمان هذا مقابل أنثى هي سلامبو، الإسم الذي يطلق على أستارتي إشتار. وتكفي المقابلة بين الكلمات العربية سلام وسلمان، والكلمتين اليونانية واللاتينية سوتير (Sauter) وسالف (Salve) لنتبين أن التفرقة بين اللغات المدعوة بالسامية واللّغات المدعوة بالهندو-أوربية باطلة وتعّسف ظاهر. إنّ هرقليس على هذا هوالمنقذ كما أنّ طيبة هي المدينة المقّدسة؛ المدينة التي جمعت الحيوانات الرمزية الثلاثة في الديانات المشرقية: أبوالهول في مصر الذي يخاصمه أوديب، والتنين الذي قتله كدموس، مؤسس طيبة الفلسطيني، وأخ ثعبان لرن (Lerne) الذي حز رأسه هرقلس؛ وثور بعل الذي خطف أوروب أخت كدموس ونقلها إلى جزيرة أقريت (Crète) (كريت) فأُنجب المنتور (Minautore)، وكانت منه أسرة مينوس (Minos)، وعقيدة الثور الذي قتله

هرقلس. وقد كانت أكنوسوس (Cnossos) عاصمة أقريت ومينوس إحدى عواصم ديونيسوس، دالّة بذلك على أنها تدّعي النسب الفلسطيني لأوروب والثور وديونيسوس وهرقليس. إنّ الأعمال الإثنتي عشرة التي قام بها بطل طيبة المطابقة لمنازل البروج الإثنتي عشرة، كما كان يتصورها البابليون، هي الإمتحانات التي يجب أن تتكبدها الرّوح قبل أن تنال المقام الأعلى. وقد كان في ليبيا وفي مصر وإفريجيا، والجزيرة العربية في حرب دائمة ضد الأباليس، على غرار القديس سان جورج عند المسيحيين.

وقبل أن يهبط إلى الجحيم ليسترجع تيزي (Thesée) وألسست (Alceste) احتاط لنفسه وطلب تعريفه بأسرار إلوسيس (Eleusis). وكانت نهايته الأليمة بسبب عدم احتياط زوجته الأخيرة ديجانير (Dejanire) بنت ديونيسوس ذات الاسم العربي الصريح. فقد أهدت إليه عن غفلة وبلاهة قميص نيسوس (Néssus) فتآكل جسده وتهرأ، فجمع هرقلس نفسه كومة الحطب لإحراقه على جبل أويتا (Oeta) وامتدّ عليها وأوقد النّار، وهلك بعد احتضار قاس. وفي الحين رفع جسده إلى السماء، وأله معظما، والرعود قاصفة، وقد قدّر زوس أنّه حقيق بالسماء، لما اجتازه من الامتحانات، ولفضائله ولما قاساه خاصة من الآلام، ومن هنا كانت شخصيته توحى بفكرة الافتداء والخلاص بالآلام (Rédemption)، والإيمان ببعث لا تحظى به إلا الأرواح المعذبة؛ لا غير. ولذلك نكتشف صوره في الرسوم الجدارية على اللّحود الجماعية المسيحية. أما الكاهن الأعمى ترزياس (Tirisias) الذي يذكر في أحداث طيبة، فقد عرف مصيرا لا مثيل له، فقد غيّرت الثعابين (الحيات) مجرى حياته، إذ كان بالتوالي أمرأة ثم رجلا. وتكرم عليه أخيرًا ديونيسوس فمنحه زوس قدرة التنبؤ حتى بعد وفاته. وهومن

أنبياء البشرية وله مكانة ممتازة لأنه "الأعمى الذي يرى" وقد قصد أوليس إلى بلاد السيمريين الباردة ليستشيره، فجمع له مجلس الموتى.

إن أسطورة طيبة (Thébes) غمرت بلدان البحر المتوسط وتسّربت إلى العقائد الشعبية وإلى الفلسفات الباطنية ولا تزال تسري هنا أوهناك من بلاد المشرق والغرب.

ومع ذلك فلا يعلم إلا بعض الناس أنها ترجع عن طريق كدموس الفلسطيني إلى زواج بوسيدون (Poséidon) بالحورية ليبيا، حفيدة زوس، بأبيها، والنيل بأمها منفيس. فشجرة نسب اليونان على هذا ترتبط بشبكة غير محصورة من الجذور العربية. ومن الغريب أن يقبل شراح ديانات التوحيد الثلاث بكل عجل، جدية الأنساب الواردة في التوراة لإستخلاص نتائج هي محل نزاع، ويتهاونوا مع ذلك في الإعتراف بالأنساب التي ضبطتها الأساطير اليونانية، والتي لا تقل قيمة عن الأنساب التي تعزي لسامويل (Samuel) أوللملوك أولإنجيل سان متي (Matthieu).

ونغادر ميدان الآلهة لنعني مع أورفي (Orphée) بالقساوسة الكبار والإلاهيات الباطنية.

إن أورفي هوفي آن واحد صاحب تراتيل الأحياء والموتى : وهوالحامي والرئيس الأكبر للأديرة الأولى. وقد تلقى تعليمه في مصر؛ وهومع ديونيسوس مؤسس "أسرار" إلوسيس. وعدا ديونيسوس، نجد معه هرقليس و"الكابير" (Cabires) أي الكواكب البابلية السبعة، والنجمة القطبية أشمون (Eshmoun) وميدي (Medée) الساحرة، والثعبان والكبش المقدس الذي كانت عبادته شائعة في وادي النّيل، وقد نجمت حول اسمه قصة سابقة للعصور التاريخية نشأ

من وحيها أدب مزيف غزير، وأناشيد ونذور شعبية وصيغ سحرية لاصقة بالأشياء المقدسة من أثار وتمائم، على غرار ما يباع في لرد (Lourdes).

وأكثر من ذلك أهمية التأويلات الكونية التي ترجع إلى تنبؤاته؛ وكذا الأشعار الغزيرة "الأرغونوتيك" (Argonautiques) التي تستعرض رحلاته الصوفية، من القوقاز (Caucase) إلى كمبانيا (Campanie) وهي الأشعار التي نظمها أبولودور (Appolodore) وأبولونيوس (Appolonius) الرّدوسي اللّذان كانا عارفين بعقيدته. ومن السخرية التي نتجنبها، أن نحاول شرح عقيدة الأورفيزم، (Orphisme) وهوكجميع عقائد العصور القديمة، غور لا قعر له. وقد وضع له مع ذلك الفيلسوف المشاء أوديم (Eudème) مختصرا مفيدا، فريدًا في الواقع، فأطلعنا في آثاره على أهّم التفسيرات الكونية الأورفية؛ وخلافا لهزيود (Hesiode) الذي يرى أنّ السماء والأرض تمثلان الزوج الأول، فإن أتباع أورفي يرون أن الليل سابق النّهار وأنه يمثل مع "الفراغ" المتمثل في المحيط، أصل كل شيء وكل حياة.

فإذا كان أبولون يشيد بالنّور، فإن أورفي كاهن الظلمات. إن الملاحم والأناشيد التي تمجّده ليلية وبحرية في آن واحد، فقد كانت مغامرته الجهنمية للبحث عن أورديس (Eurydice) التي قتلها الثعبان مغامرة ليلية إستطاع بفضل قيثارته الساحرة وصوته الخلاب أن يغري الأغوال والآلهة المستخفية تحت الأرض. فتنفس المعذبون؛ ونسي طنطال (Tantale) جوعه وعطشه، ونسي إكسيون (Ixion) الدوران حول عجلة الثعابين. وقد أوشك أن يرجع زوجته إلى الأرض ولكنّه نسي وعده لهادس (Hades)، فاستدار لينظر إلى وجهها المحبوب لغلبة شوقه إليها. إذاك غابت أورديس (Eurydice) هذه المرة بصفة نهائية. وقد كانت مغامرة البحث عن هذا الحب الضائع مغامرة

ليلية. وكانت ملحمة الأرغونوتيك (Argonautique) ملحمة بحرية تروي قصة المقاتلين الذين استقلوا السفينة "أرغو" (Argo) وتوجّهوا إلى الآفاق المظلمة الباردة في القوقاز، (Caucase) للاستيلاء على الكبش الذهبي. وكان معهم أورفي (Orphée) يحدو الجدافين، ويطرد الشياطين العارضة على الطريق، ويقصي العراقيل ويقف مع رئيسهم جازون (Jason) موقف بياتريس (Beatrice) مع دانت (Dante)، وموقف سيبيل (Sybille) مع إيني (Enée).

ولنقتف عن قرب الطريق الأسطورية التي سلكها، والتي لا تزال مرسومة في ذاكرة الشعوب، كعقيدة دينية. كانت سفينة "الأرغو" (Argo) من خشب مقدس وتبحر تحت حماية مقدّسة، حماية أثينا (Athéna) التي تسهر أيضا على أوليس.

إن السفينة تقوم بمهمة مقدّسة، وتفوه بالكلم، لأنّ أثينا منحتها صفة النبوة. وقبل الشروع في رحلتها، تتجه إلى سموتراس (Samothrace)، المكان المقدس الذي يوجد فيه معبد "الكابير" (Cabires) المحفوف بالأسرار. فمن يكون هؤلاء الكابير؟ (جمع في الأصل)؟ إن التسمية عربية خالصة، وفي ذلك دليل على أن الألفاظ العربية كانت مستعملة في اليونانية، ودليل ثان على أن اللغة الآرامية في عهد هومير، لا تختلف كثيرا عن عربية اليوم، ونذكر عرضا أن كلمة "كبير" مستعملة في العبرية الشعائرية بنطق محرّف في عبارة "يوم كيبور" (Yom Kippur) بمعنى اليوم الكبير. إنّ الآداب اليونانية واللاتينية تذكر بحذر كبير هذه الآلهة. إنها آلهة بابلية فلسطينية ذات مكانة كبيرة. ووالدها "صادق" الفلسطيني ذو التسمية العربية ومعناها "الذي يقول الحق" (الحقيقة) إنّها آلهة تتحكم في المقادير من أعلى السماء، بصفتها

قوات كونية فلكية، وتتحكم أيضا في الملاحة، لأنّها تتصّرف في الليل وفي المياه، التي تمثل وتعكس المعالم اللامعة في السماء خلال الليل. فالمراكب المحمولة على السماء التحتاتية، (البحار) المنارة بالسماء العليا، تحظى بحماية "الكابير" (Cabires)، وأورفـي (Orphée) أحد كهانها مع "الديسكور" (Dioscures) ولهؤلاء "الكابير" معبدهم في مصر وفي الكلدان، وافريجيا، وفلسطين وعلى سواحل البحر وفي اليونان. وقد نقل إني (Enée) والإتروسك (Etrusques) هذه الآلهة الوصية إلى روما، وشعارها الكوس (Equèrre) والسرو وهي تشيع الخضوع والخوف بحيث لا تذكر إلا بالهمس، دون التجرؤ على ذكر أسمائها؛ ولا يشار إليها إلا أنها الآلهة الكبرى؛ وهي الآلهة "الكابير" (بالجمع). هؤلاء هم أبناء "صادق" الإسم العربي الصّريح الذي يستعمل في صيغ مختلفة في أيامنا، مثل "صادوق" و"صدقة" من المحيط الأطلسي إلى الأندوس. وقد ذكر توسديد (Thucydide) من جهته ملكًا باطراقيا،يدعى صادوقوس (Sadokos).

اتجهت سفينة "الأرغو" بطاقمها إلى البحر الأسود، واجتازت الدردنيل، وتوقفت في أفريجيا، وحيّت السيدة "سيبال (Cybèle)، واستأنفت الإبحار، ووصلت بعد عناء وأخطار إلى بلاد كولشيد (Colchide)، شمال القوقاز المظلم. إنها بلاد غريبة، تفيد الروايات بأنها سكنت بها جنود سزوستريس (Sesostris)، رمسيس الثاني المشهور.

وقد نزل بها كبش طائرٌ، عرضت جزته الذهبية في القصر الملكي بعد التضحية. وعندما وصل الأرغونوت (Argonautes) كان ملك البلاد هوالملك أيتس (Aétes) أخ باسفاي (Pasiphaé) زوجة مينوس (Minos) ملك جزيرة أقريت، وحفيذ أجينور (Agénor) ملك فلسطين. ولما كان

جازون (Jason) يطالب بالجزة الذهبية، ألزمه أيتس (Aétes) بمواجهة الثور والتنين. وبفضل حماية الأميرة ميدي (Médée) بنت الملك، التي يحبها جازون، انتصر هذا وخرج من البلد ومعه الجزة الذهبية والأميرة ميدي، المتواطئة معه. إذّاك بدأت رحلة القفول الطويلة مرورًا بالدانوب والرّون (Rhone) والبو (Pô) والأنهار والسواحل الإتروسكية في مقاطعة الكمبانـي (Campaine)، وفي بحار العرائس الفاتنات، المغنيات الساحرات اللائي ينجو منهن أرغو (Argo) بتعزيمات أورفي.

وكان للسفر محطة في جزيرة الفياسيين (Phiaciens) ثم في ليبيا، بالقرب من بحيرة تريتون (Triton). وبعرض هذه الجغرافيا الثقافية، يتحدد ما يسمى بالمشرق (الشرق)، تجاه العالم الجرماني الذي تسود فيه عقلية أخرى.

ويكون الصعود أخرا إلى اليونان بعد المغامرة الغريبة خلال الليل بجزيرة أقريت. وقد غشيت الظلمات فجأة في عرض الجزيرة، السفينة وركابها، وفقد البحارة الأمل في الخروج من هذا الجحيم البحري ولكن أدعية أورفي وميدي (Médée) حفيدة الشمس استجيب لها، فظهر أبولون نفسه لينقذهم وليبدّد الظلمات. وقد استطاع البحارة الإرساء بالقرب من جزيرة أسبوراد (Sporades) التي تسمى في النصوص الأورفية أناف" (Anaphe) جزيرة الوحي، أوبالأحرى جزيرة الإنكشاف" لذكرى توسط الآلهة.

ومن الصدف أنها غير بعيدة من جزيرة باتموس (Patmos) حيث كشفت للحواري يحي (St Jean) حقيقة القيامة". وأنهت السفينة "أرغو" رحلتها في كورانث (Corinthe) وفي كورانث انتهت قصة غرام جازون وميدي، فغضبت الساحرة غضبا شديدا فقتلت أبناءها وهربت إلى أثينا حيث تزوجت بإيجي (Egée)، قبل أن تعود إلى آسيا حيث قضت باقي حياتها.

وقد عرف أورفي مصيرا مأساويا أقسى، إنه بعد خروجه من الجحيم وهو أرمل إلى الأبد، بعد أن فقد أورديس (Eurydice) فتجنب كل علاقة مع الإناث، وأسس لأتباعه معابد للذّكر والتأمل لا تدخلها النساء. فهل يجوز أن نرى في هذا، أصل الرهبانية؟

وقد كان النازلون في هذه المعابد يتحاشون أكل اللحوم والبيض، ونتساءل أيضا إن لم يكونوا يلتزمون بالعزوبة. ومهما كان، فإن أورفي هو البطل الأسطوري الوحيد الذي لم يخلف ذرية. وقد بقي رجلا في عزلته. ولما عاد إلى أطراقيا، مسقط رأسه، استاءت النساء من سيرته فقتلنه وقصّبنه (سلخنه) ورمين برأسه وقيثارته إلى البحر. وأخذت القيثارة ورأسه في إنشاد أحزان أورديس للعباب، وانتهيا مدفوعين بالأمواج إلى جزيرة لزبوس (Lesbos) فدفنت أيدي الأتقياء الرأس، بينما ارتفعت القيثارة إلى السّماء لتنقلب مجموعة نجوم.

والتحقت روح المرثل بمقام السعداء وبقيت تشيد بنعمة الجنّة وهي بثياب بيضاء، كملك من الأملاك. ويعتبر أورفي جدًا وسلفا للشعراء؛ وكان لهذا ملهم هومير وهزيود (Hesiode) على ما يشاع. ولم تزل الرسائل الأورفية تتحكم في عالم البحر المتوسط طيلة ألفي سنة على الأقل.

ومما يتصل بالقوقاز، وبأسطورة الطوفان، بروميتي (Promethée) الجبّار، الشبيه الحقيقي بالبطل البابلي أدابا (Adapa) الذي تروى النصوص المسمارية من مكتبة، نينوى مغامرته الأليمة. وهو من خدمة إله البحر إيا (Ea) فتلقى منه العلم إلى أن تجرأ على مجابهة إله السماء وأدعى بأنه من الخالدين. وقد طرد من السماء وقضى حياته يكّد في الأرض كما يكد الفقراء. عرف بروميتي (Promethée) مصيرا أسوأ إذ غضبّ عليه

زوس فربطه إلى القوقاز. ويلاحظ أن والدة بروميتي كانت تسمى آسيا، وأن ولدها ذوكليون (Deucalion) استطاع كنــوح، والبابلــي أم نابشتي (Oum Napishti) أن ينـقـذ البشـريـة مـن الطوفان بفضل النصائح التي تلقاها من والده. ولشخص آخر، هو إيكار (Icare) البطل صاحب الجناحين من الشمع (؟) جد من بابل يسمى إيتانا (Etana) وقد رغب إيتانا هذا في الحصول على الحشيشة السحرية الخلاقة التي تنبت في أعلى السماء، فحاول أن يصل إلى هذا المكان متشبثا بريش صديقه العقاب. وبعد أن وصل إلى السماء الأولى، أصيب بدوار أمرت به إشتار. وقد وقع إيتانا على أرض الهالكين، ولم يتمكن من التمسك بالعقاب.

وهكذا أيضا تنتهي قصة إيكار بن ديدال (Dedale) كما نعرف. ومن هو ديدال ؟ إنّه أمير من أسرة سكروبس (Sécrops) مؤسس أثينا، وإبن المصري إرشتي (Erechthée) الحاكم الأول للآتيك (Attique).

ومـا نـقـول عـن هـيـلانـة الـطـروادية (Helène) زوجـة الـمـلـك مـنـلاس (Ménélas)، وأخت كـلـتـمـنـسـتـر (Clytemnestre) وكـاسـتـور (Castor) وبولكس (Pollux)، حلفاء "الكابير"؟ إن قصتها لا تنتهي بسقوط طروادة، وقد عرفت هي الأخرى الفرار إلى مصر، وفي طريق الرجوع إلى إسبارتة، أفلتت من رقابة منلاس ولجأت إلى ضفاف النيل حيث كانت لها مغامرات عديدة عجيبة. وقد اشتهرت هناك بقتل الثعابين، وبحبها للبحار فاروس (Pharos) الذي سميت منارة الإسكندرية باسمه. وأحبت أيضا بحّارا آخر على ما يروى إسمه كنبوس (Canopos) البطل المؤسس لمدينة في الدلتا. وذهبت بعد ذلك إلى برقة، وقرنية (Cyrenaïque) الواقعة على خليج سرت الكبير، وإلى طرابلس، وإلى الدانوب.

وقد شوهدت في كلّ مكان. وما أكثر ما يمكن أن نقصه عن هيكوب (Hecube) زوجة بريام (Periam)؟ ولنذكر فقط هذا الأمر العجيب : إنّها حملت من باريس (Paris) فرأت في المنام أنّها تلد مشعلا. وقد أفادت الأسطورة الذهبية (Légende dorée) بأنّ والدة سان دومنيك (St Dominique)، رأت في المنام مثل هذه الرؤيا المنذرة : "إنّها قبل أن تلد هذا الإبن المشهور، رأت في المنام أنها حاملة بكلب صغير يمسك بفيه مشعلا أوقد به النار في سائر العالم" ونلاحظ مرة أخرى أنّ الزمان والمكان لا ينقسمان وفقا لما يفرضه تحكمنا وحسب التعليم المتحيز المبثوث في الفكر المعاصر. ويمكن أيضا أن نتحدث عن الدنابيد (Danaîdes) بنات ليبيا وعن سرسي (Circé) أخت ياسفاي (Pasiphae) وبلورفون (Bellérophon) الذي قتل الوحش المسمى "شيمار" (Chimère) بناحية أنطاكية، وحارب شعب السوليم (Solymes) في أسون، أو أسوان، وغيرهم وما أكثرهم!

وقد نشأ هيكل العقائد اليونانية الرومانية في بحر إجي (Egée)، وبتأثير فلسطين، وبآلهة وأبطال قدموا من ليبيا وصقلية ومصر والأناضول والجزيرة العربية وبلاد بابل، وذلك تراث لم يزل اليونان يفتخرون به. وهو في الواقع تراث في جميع الأديان والفلسفات والجماليات المنسوبة إلى الغرب.

وفي الفصل السابع والعشرين من التوراة (فصل حزقيال) تنويه معتبر بفلسطين التي سحرت بسمعتها صاحب الفصل؛ ولا يوجد في أي مكان آخر من التوراة ونصوصها مثل هذا الحماس في التنويه: "لقد قلت ياصور: إني رائعة الجمال. إن أطرافك متصلة بقلب البحر، وقد جعلك من شيّدوك رائعة الجمال" ويأتي أيضا التنويه بثروة وسعادة بلد له علاقات مثمرة مع جزر بحر إيجي (Egée) واليونان وإطريقيا، وسوريا وبلاد إسرائيل، والبلاد

العربية والهند، والكلدان وآشور (حران هيدن وآشور) وإثيوبيا إلخ. "إنك وزعت في أسواق ما وراء البحار من البضائع ما أشبعت به شعوبا عديدة؛ وقد أثريت ملوك الأرض بتجارتك وثرواتك الوافرة". وهذا دليل على ما كانت تمثله فلسطين في نظر اليونان، لأن محرّر سفر حزقيال يوناني طبعًا، كما أنّ نصوص التوراة كلها يونانية.

وكما أنّ التقاليد الجمالية والتزينية، واللّباسية والدينية المشرقية (كالختان مثلا المعروف في مصر منذ أقدم العصور) حافظت عليها ونقلتها كنائس جميع الأديان، لحرصها على حفظ مرجع أصولها، فكذلك حفظت القصص والأساطير الشعبية بذكرى حية عن الأزمنة الخرافية (!). لهذا إننا ننتظر بكل شوق تدوين التقاليد الشفاهية المنسوبة لمدن شرق البحر المتوسط وأريافه، وكذا تقاليد ومرويات إفريقيا الشمالية، وصقلية وشبه جزيرة إيبريا (إسبانيا) وشبه جزيرة إيطاليا. ولبعض هذه المرويات سذاجة ذات مغزى بليغ. ومنها ما يروى من أن مريم العذراء استخدمت مال الملوك المجوس (Rois mages) لتؤدي تكاليف إقامتها سبع سنين في مصر. ومن هذه المرويات رواية أخرى تعتبر أفلاطون وفرجيل من الأنبياء الذين بشروا بإرسال عيسى (عليه السلام) كما بشر بذلك اليسع.

فلو أجرى شرح متين للنصوص وللرسوم الجدارية وتماثيل المدافن المسيحية في روما، لعرفنا من غير شك ما كان من تأثير كبير للعرب، وفيها نجد كرمة ديونيسوس اليمني، وحمامة إشتار، وسمكة أوانيس (Oanès) وسفينة إزيس، وشمس أل أوهوروس وقد صورت مريم بملامح دمتير (Demeter) في بلواها؛ وبان (Pan) الإله اليوناني الفلسطيني بالنعجة على كتفه إنما هوالراعي الصّالح. ويشبّه أورفي بالمسيح. وكذلك أنّ قائمة

الدعاة الكبار في المسيحية قائمة مدهشة وهم من العرب؛ فذاك ترتليان (Tertullien) وسان سبريان (St Cyprien) القرطجنيان، والقديس أوغستين النّوميدي؛ أما أورجين (Origène) وسان أنسطاس (St Anasthase) فهما مصريان، بينما سان بزيل (St Basile) القيصري وسان إفريم (St Ephrem) وسان جان كريسوستم (St Jean Chrisostome) فلسطينيون سوريون، وسينيزيوس القرني (Synésius) المشهور من ليبيا.

وما هذه إلا بعض الأسماء أخذناها بسرعة دون بحث. وقد وصف لنا كسيودور (Cassiodore) في تاريخه عن القوط (Goths) أتيلا (Attila) وهو مشبع بالتقاليد العربية اليونانية. ونعرف أنّ التراتيل الغريغورية هي ثمرة التزاوج بين الإنشاد الدّوري في الترجيديا اليونانية المؤلفة وفق الذوق الأناضولي، والأناشيد الفلسطينية؛ وقد أمر البابا غريغوار (Grégoire) الكبير، بتأليفها في القرن السادس الميلادي في ديوان الأنتفونير (Antiphonaire) الذي وضع ليوحي شعائر العبادات في روما. ومن الصحيح أنّ الصيغة النهائية الحديثة للتراتيل الغريغورية إنما هي نتيجة ضبط ودراسة قامت بها كنائس فرنسا؛ ولا سيما كنائس كمبياني (Campiègne) ومتز (Metz) وسانليس (Senlis)؛ أوكنائس وادي اللوار (Loire). ولكن العناصر التي نسقت ونقلت ترجع إلى الجوقات العربية القديمة التي ردّد اليونان صداها.

وبدون الرجوع إلى تفاصيل البحوث العلمية التي تثير مشاكل أكثر مما تسوي، يجدر بنا أن نعلم بأن النصوص الدينية التي تعتمدها الجماعات اليهوذية والإسلامية والمسيحية لا تمثل إلا جزءا يسيرا من القائمة الضخمة التي تعدّد التقييدات الأسطورية أوالشعائرية التي نملكها.

وهي نتيجة حصيلة حقًا، ولكنها حصيلة توضيحات لم تتمسك إلا بالجوهر مما هو أساسي.

إن التقييدات المشرقية تعدّ بالآلاف، باليونانية وغيرها من اللغات، (وإن كانت اليونانية في الغالب نقلا صوتيا لنص فلسطيني، بابلي أو مصري) تتحدّث عن أسرار الألوهية، وسواء كانت تنبؤات وتكهنات أو وصفات أورفية أو لوحات مثرا (Mithra) أوألغازا سحرية، أوتنبؤات بالقيامة، فهي نصوص يلاحظ عليها أنها تدل على التوفيق التام بين سفر التكوين (التوراة) والكونيات البابلية الفلسطينية وبين الفداء الديونيسي والبعث المسيحي وبين موسى (عليه السلام) وهرقل (Hercule)، وقد جمعت حوالي القرن الثالث الميلادي بالإسكندرية، العناصر السميكة لهذه المعارف الدينيات، ولكن تأويلها غير سهل دائما، وترد فيها، في صورة حكم وأمثال، معلومات سابقة لما نسميه بالأديان المنزّلة، كما لو أن الأديان الأخرى ليست منزّلة... ومن بين ما تنص عليه قضية نهاية العالم. وتصورنا نحن المسيحيين لهذه النهاية هو التصور الذي ذكره سان جان (St Jean) في فصل القيامة (Apocalypse). والإسلام يقترح تصورا شبيها به تقريبا بينما لا مرجع لليهودية بخصوص هذه القضية. فالإسلام والمسيحية متفقان على هذا في المسألة، إلى حد أن كنيسة روما، تعتبر هذا التصور مشرقيا ظاهرا ينافي الذوق الأوربي، فأقصته، وفضلت عليه الأناجيل ورسائل سان بول (St Paul)؛ بينما المسيحيّون المشارقة بقوا متمسكين برواية سان جان .(St Jean) هذا وخلافا للرأي الشائع، أنّ صورة القيامة في الإسلام غير مستوحاة من رواية سان جان، لكن من رواية أقدم منها، نجد أثرها بالتدقيق في مجموعات النصوص الدينية.

ويبدوأنه لا شك هنا أيضا في أن اليونان والعرب المؤمنين بالإسكندرية وفلسطين والحجاز واليونان وغيرها من البلاد، إنقسموا اعتمادا على ميراث ديني مشترك إلى من "يعتقدون" بنهاية العالم وإلى من لا "يعتقدون بها" إن الجزء الذي نورده فيما يلي من صورة القيامة في الروايات الدينية، والذي ترجمه روبير برازيلاك (Robert Brasillac) في "مختارات الشعر اليوناني" يرجع إلى القرن الثالث الميلادي مبدئيا؛ ولكنه يتضمن تعابير وتذاكيرات وردت في النصوص المسمارية والمصرية أواليونانية التي يرجع تاريخها إلى ما قبل القرن الخامس قبل المسيح (عليه السلام).

"عندما تظهر العلامة فوق الأمم، وإذا ما ولد الأطفال بشعور بيضاء،... فويل لكم يا من تشهدون هذا اليوم... إن النجوم ستهبط من كل جهة من السماء لتقع في البحر... وستصطك أسنان جميع أجناس البشر... إذاك يظهر الوزراء الخالدون أعوان اللّه الأبدي ميخائيل وجبريل ورفائيل وأرييل (Uriel)" وهذه الأملاك الثلاثة منصوص عليهم في "الجنة المفقودة" لملتون (Milton) وفي نشيد هايدن " (Haydn) الخلق" (أوالخليقة)، وفيه يردّد رفائيل هذا التهديد:

إنك تحوّل نظرك

إذا كل شيء يرتعش ويجمد

وتنزع النفس

فيسقطون منثرين كالغبار

كل هذه النظرات، والنداءات واللعنات ترجع إلى الأزمنة الأولى التي كان فيها (المشرق) شرق البحر المتوسط أهلا في السماء والبر والبحر، باله حاضر يتمثل في صورة قديسين ومخلوقات غير طبيعية، وأبطال قريب بعضهم إلى بعض في النسب. وقد لاحظ الفيلسوف طاليس (Thales) قائلا: "كلّ مكان حافل بالألهة".

هذه الألهة كانت تتنقل في العالم كما تسري فيه اليوم أمواج الإذاعة أو التلفزة؛ إنها كانت تحييه وتنظمه وتواسيه، وقد كانت هذه الأزمنة في مفهومها عصورا تشيع فيها الحياة، وتتحكم فيها تيارات خالية من القيم الفكرية، ولكن تنطوي على الطاقات الإيحائية ذات القدرة على الإبداع. ولعّل الإنسانية كانت تعتبر هذه الأزمنة، العصر الذهبي لأشواقها، وتعتقد بأنه كلما مضت وبعدت عن الكمال الروحي، كانت حياة المجتمعات أكثر فسادا وانحلالا، غارقة في فوضى عارمة، هدامة مجدّدة في آن واحد.

إنّ الخراب يدعو حسب العقائد الدينية لرجوع الأزمنة الأولى، كما أن الموت يدعو إلى الحياة. إنّ الوجود الكوني كما كانت تتصوره العصور القديمة في منطقة البحر المتوسط، يجري على نظام يتكرر دوريا بالضرورة، بحيث أن لكل بداية نهاية، وأن كلّ نهاية تنبئ عن بداية. وفكرة البعث موجودة في هذا التصّور كما يوجد الهواء في الهواء. وكل تطور يخضع للقانون الرياضي، قانون الرجعة الأبدية الذي يتحكم فيه تطور الكواكب.

وهذا بالضبط، ما يقوله أورفي وتلاميذه، وأزيس وأوزريس، وتنقله الأساطير الأساسية في مشرق يمكن أن يتسمى بوطن أورفي، أو وطن إزيس. إنّ أورفي يمثل في الواقع أكمل صورة تقريبا للتدين المشرقي المفرط، في نظر الغرب. وهي أي الصورة تجدب إليها من إزيس إلى ديونيسوس كلّ ما يذكر بالمرأة والصفاء والبعث والحساب والجنة الجحيم.

ولا يزال هذا التيار حيّا يوجه حضارتنا ويحث على التأمل والتفكير في منابع رجائنا. إن صلب الفلسفة اليونانية هو قلب أورفي كما أنه قلب إزيس والكلمة والوحي الإسلامي أو النبوءات اليهودية. كل شيء متماسك وكل شيء يمكن تفسيره إذا أمعنا النظر في الإيحاءات.

إن شعر فرجيل أفضل مختصر يمكن أن نعطيه عن التنظيم الربّاني، والأسطوري لمجتمعات البحر المتوسط؛ وهو أكبر حجة مقنعة عن نقل عقائد وعبادات المشرق إلى الغرب. وديوانه الإنييد (Eneide) يقص علينا بدقة وتوضيح، كيف كان ذلك، وديوانه الجيورجيك (Géorgiques) إشادة بالأرض الأم، استلهمها من دائرة (أوكتاب) معارف الفلاحة التي ألفها ماغون (Magon) القرطاجني، بالآرامية، وترجمت بالتوالي إلى اليونانية ثم إلى اللاتينية. وفي ديوانه "البوكوليك" (Bucoliques) نسم من التقاليد اليونانية العربية الشائعة في الإسكندرية وفي صقلية. وهذا الطابع الباطني المشرقي في شعر فرجيل، لم يخف عن قرائنا في القرون الوسطى ولا عن فكتور هوغو(Victor Hugo) الذي ألمع إليه قائلا:

- إن الله يكاد يكون أحيانا في (شعر) فرجيل ملكًا
- والبيت (من شعره) يرفع إلى سمائه نورًا غريبا ...
- ذلك لأنّه إحدى هذه الأرواح، بدون علمه،
- هذه الأرواح التي يلقى عليها المشرق البعيد شعلاً غير واضحة.
- ذلك لأنه من ذلك الحين من "القلوب" التي يشيع فيها النور تحت السماء بإشراق يوم المسيح المحفوف بالأسرار.

إن الشاعر الرومانتيكي (أي فيكتور هوغو) كان يفكّر من غير شك، في النشيد الرابع من "البوكوليك" المطبوع فعلاً بشعور ديني فلسطيني، على غرار النشيد الرابع من ديوان "الجيورجيك" (Georgiques) (لماذا هذا الرقم المتكرر أربعة؟) الذي تجتمع فيه مغامرة أرستي (Aristée) إبن قرنية (Cyrène) الليبية، ورحلة أورفي إلى الجحيم. وقد وضع النشيد الرابع من "البوكورليك" من التمهيد تحت شعار الآلهة الصقلية، وهو يتنبأ "بنهاية

الزمان التي أخبرت بها سيبيل (Cibylle) كومس (Cumes)، وببداية قرون جديدة يجري حسابها ابتداء من الصفر" (جملة باللاتينية).

ثم يتنبأ "برجوع العذراء وساترن (Saturne) والعصر الذهبي في الوقت الذي يهبط من السماء مولود جديد" وبفضل هذا المولود تمحى الذّنوب وتسود السّلم الدائمة على العالم.

ويوجّه الشاعر بعد ذلك دعاءً وتمنيات إلى هذا الطفل : "من أجلك أيها الطفل، ولإبتسامتك، إن الأرض سيعمها الخير، وسيمتد عليها اللبلاب مع "البكّار" (Baccar) والآكنت (الأقنثة)؛ وستأوى المعزات إلى الحضيرة مفعمة الأثداء باللبن (الحليب) ولن يبقى إذاك للقطعان أي خوف من السباع. وستنبث في مهدك أزهار "تداعبك بلطف؛ إن الثعبان نفسه سيهلك؛ وستهلك الحشيشة ذات السّم الغدار؛ وسينبت في كل مكان لبان آشور "(Encens) ويساير النشيد الطفل وهويكبر بين المحصولات والجنان؛ ويتوقع حملة جديدة من الأرغونوت (Argonautes) وحربًا طروادية جديدة، وانتهاء كل ذلك بسلم بين العباد؛ وقد اصطلحوا مع الأرض والبحر والحيوانات "اصعد إلى المقامات العليا، لأنّ الوقت قد حان يا إبن الآلهة العزيز، يا ابن الأب الجبّار. أنظر إلى العالم وهو يميل بثقل إنحنائه؛ انظر إلى القارات وإلى البحار الهائجة وإلى السماء البعيدة وهي تتأرجح، انظر إلى الطبيعة وهي تهتز كلّها فرحًا لنبأ الأزمنة المنتظرة" ويتمنى فرجيل بعد ذلك أن تمتد به الحياة مدة طويلة، ويبقى له من الجهد ليحتفل بمعجزات هذا الطفل وسيفعل ذلك بكل شوق ويفوق أورفي ولينوس (Linus) بفرحه ولو أعانهما كاليوب (Calliope) وأبولون وسيعترف بان (Pan) نفسه بعجزه وانهزامه. "ولتبتسم لوالدتك أيها الطفل الصغير ..."

لقد لاحظ جميع المفسرين الشبه الظاهر بين النشيد الرابع من "البوكوليك" والآيتين 11 و66 من سفر اليسع في التوراة. وأي استنتاج يستخلص من ذلك؟ أن كثيرا من الناس من بين المتعلمين، كانوا على علم بالإيحاءات العجيبة المتعلّقة بسيرة غير واضحة، وذلك بقطع النظر عن الديانة الشكلية السائدة باسم الدولة الرومانية، (وإن كنّا غير متحققين في هذا الشأن). وليس من الضروري أن يكون فرجيل قد انتحل سفر اليسع؛ وهل كان عارفًا به؟ لا شيء يؤكد لنا ذلك، إن التعديلات الكثيرة والتأويلات والتنقيحات والإضافات التي أدخلت على نص التوراة خلال تقلباته، لا تسمح لنا بالبت في ذلك، والثقافة الدينية التي كانت لفرجيل خاصة، مضافا إليها التقييدات والطقوس المختلفة النابعة من المشرق العربي واليوناني أو الصقلي، كانت كافية إلى حد كبير، لإيحاء أشعار شبيهة بالنشيد الرابع من "البوكوليك" وينبغي أن نعتقد أن مثل هذا الفيض من الاستشعار ليس غريبا، إذ أن قراء فرجيل الكثيرين في إيطاليا وخارج إيطاليا في القرن الأول ق.م. قد تقبلوه بكل ارتياح. وقد يكون من الفائدة أن نذكر بأن فرجيل كان من مانتو(Mantoue) المدينة الإتروسكية ذات الصّلة المتينة بالمهاجرين الليديين، والواقعة في إيطاليا الشرقية التي تهيأت خلال القرون إلى اتخاذ وجه عربي، واضح كمدينتي رافين (Ravenne) والبندقية .(Venise) وإلى يومنا هذا أيضا فإنّ قصر كونزاق (Canzague) العجيب بمانتو، الذي لا يزال منذ القرن الثالث عشر أكبر أثر رمزي لعصر النهضة بأسراره المعمارية وهندسته بالأرقام، يشير إلى الرموز والأسرار الدينيّة. وقد أكثرت المركيزة إيزبيل (Isabelle) زوجة فرنسوا دست

(François d'Este) في وسم القصر بالإلماحات المشرقية، لأنّها كانت محاطة بجمع من السحرة والشراح اليهود أوالمسلمين، الذين لقنوها تأويل معنى الأوراق (أوراق اللعب) واستفسار النجوم والقديسين. وقد كانت هي أيضا مشغولة بقضية البعث. ومن بين الرموز التي غمرت بها القصر، نلاحظ بصورة خاصة الشمعدان المثلث ذا الفرع الواحد الذي يذكّر بالصلاة الفصحية كما كانت من قبل.

وقد وضع شمعدان شبيه بالقرب من الهيكل ويحمل خمس عشرة شمعة تطفأ واحدة بعد الأخرى، حين تؤدي الصلاة، باستثناء شمعة واحدة، موضوعة على قمة المثلث. هذه الشمعة تخفي بعد ذلك وهي منيرة، وراء الهيكل بينما المصلون يأخذون في إنشاد "المزرير" (Miserère La) وترجع الشمعة إثر ذلك إلى مكانها بالشمعدان، وينفجر الفرح لهذه الإشارة بانبعاث المسيح (عليه السلام).

ثمة سؤال يمّر بالخلد : فهل كان اليونان يعرفون حرم مكة؟ إنّ تأسيس هذا الحرم يرجع إلى أقدم العصور، إذ أن الروايات تقول بأن الكعبة، أي البيت المربّع، نزلت بها الملائكة من السماء قبل ميلاد آدم عليه السلام؛ وقد أعاد إبراهيم عليه السلام بناءها بعد الطوفان وأعانه على ذلك إبنه إسماعيل وجبريل، الذي أهدى لهما الحجر الأسود من عند الله، فركبه في البناء.

وقد يكون الحجر الأسود من هذه الأحجار المعبودة، مثل الحجر الأسود المخصّص لسيبال (Cybelle) في بسيمونت (Pessinonte) أو حجر إميس (Emèse) (حمص) الذي نقل إلى روما في العهد الإمبرطوري. وقد علق على الحجر الأسود قرنا الضحية التي افتدى بها إبراهيم إسحاق (بل إسماعيل).

وقد تضررت الكعبة عدة مرات بسبب الفيضانات وأصلحها أخيرا ربان باخرة يونانية وهو نجار وبناء، استعمل خشب مركبه في عمله. هذا ما أمكن أن نعرفه من الروايات الكثيرة المتعلقة بهذا المعبد وحرمه بالقرب من جبل أبي قبيس حيث دفن آدم (عليه السلام) في رواية.

لم يكن بإمكان اليونان أن يجهلوا حرم الكعبة بمكة. وخاصة لأنه كان معبدا للألهة المصرية والبابلية قبل أن يكون كغيره من هياكل ذلك العصر هيكلا نصبت فيه تماثيل مريم والمسيح (عليه السلام) وفي اللغة اليونانية الكلاسيكية كلمة مكاي .(Makaî) ويبدوأنها حسب سطربون (Strabon) مدينة بالجزيرة العربية. هذا كلّ ما نعرف بهذا الشأن.

لكن نذكر بأن الأبحاث الأركيولوجية لم تبدأ إلا منذ الآن، واتجه تحليل الآثار إلى مواقف أقل تعصبًا لحسن الحظ، بعد أن كانت أوربية صرفة.

انتهينا بعد هذه الجولة القصيرة في التقاليد الدينية والأساطيرية اليونانية الفلسطينية، ونستخلص حتما أن الديانة اليونانية الرومانية، متأثرة في صميمها بالمشرق من النيل إلى ما بين النهرين، كما نستنتج أن اليهودية والمسيحية والإسلام يعبّر كل منها ويختصر على طريقته، العقائد الجماعية التي كانت تمارسها شعوب ذات لغة واحدة وعادات واحدة وعبادات متشابهة. وقد كان الإسلام، آخر الديانات الثلاث الكبرى، شائعا خلال عشرات القرون السابقة لعهده، كما أن المسيح عليه السلام كان متمثلا في أسلاف إبراهيم عليه السلام. ومن الضروري هنا أن نغيّر مفاهيمنا العادية للنقد والتاريخ.

ذلك لأن فكرة سبق التصور -والتمثيل- إذا كانت تحتل مكانة عميقة في العقلية الدينية المشرقية، فلرغبة شديدة في الإعتراف بالوحدة

الجوهرية غير المادية بين الإنسان والله، بالرغم من الفوارق الطارئة. وفي القرآن آيات تدلّ على ذلك وتغني عن التعاليق.

ومنها قوله تعالى : ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (سورة الحج 25)، وقوله : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة 136)، وقوله : ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ (الإسراء 2)، وقوله ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ (المؤمنون 50)، وقوله : ﴿إِذْ قَالَ لَه رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة 131).

أما الأمل في البعث الذي كان من أشواق البشرية المشرقية والذي نقلته من مكان إلى مكان حتى إلى أقصى الغرب، فالقرآن يقول بشأنه دون أي تغيير في لفظه وروحه :

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (الحج 6 و7)

وقد لاحظ القديس أغسطين من جهته "إن هذه الحقيقة التي تسمى بالمسيحية كانت معروفة عند الأولين واستمرت موجودة منذ بدأت حياة البشرية، ولما بعث المسيح (عليه السلام)، سميت الديانة الحقة التي كانت معروفة من قبل بالمسيحية".



الــــدروس الإلهيـــة [1]

"الإنسان محروم بالفطرة من العقل"
(هرقليت)

الدين هوالفلسفة، والعبارتان متفقتان إن الفلسفة اليونانية جزء لا يتجزّأ من الدين، وبالتالي، فهي جزء لا يتجزّأ من الفكر المشرقي، كان مهدها هومدينة ميلات (Milet) الآسيوية التي تلاقت فيها التيارات الفلسطينية، والأناضولية والبابلية الفارسية. وقد تجنّبت اللغة الباطنية، فتجاهلت الأدب؛ وهي قائمة على فضيلة شعبية تفرض الاتصال الدائم مع الأرض والسماء. إنها ليست علما بالغيبيات (ما وراء الطبيعة) ولكنّها طبيعة وسحر وحكمة. إن الفلسفة اليونانية لا تتضمن أي بحث أومطلب عقلي؛ ورؤوس مفكريها رؤوسٌ عامرة لا يوجد من بينها رأس فارغ. والفلسفة عندهم تهدف بالدرجة الأول إلى إبطال التفكير الفردي، لحمل الإنسان على الانسجام الكامل مع الواقع، بحيث لا تبقى أية فجوة بينه وبين العالم، ولا أي احتكار نظري أوفراغ. والأفكار في معناها الذي نفهمه، غريبة عن الفلسفة اليونانية لأنها غريبة عن الوجود. فالمقولة "أفكر إذن أنا موجود" عبارة تتعارض كلّ التعارض مع عقلية العصور القديمة، التي تتجه إلى عكس ذلك أي: "أفكر إذن فأنا غير موجود" وذلك لأن الأنا في نظر المشرق الكلاسيكي عدم صرف.

---

1 - يتعرض المؤلف في هذا الفصل للفسلفة ويوضح أنّ منابعها مشرقية.

وقد بحثنا عن نصّ يستطيع أن يختصر روح الفلسفة اليونانية في سطور قليلة فاخترنا النص التالي الذي يقول إن الفلسفة اليونانية هي: "التفكير قبل كل شيء فيما لا نهاية له؛ وتجنّب الرغبة في كل ما لا يبقى؛ والتفويض إلى القدر وقبول كلّ ما يريده كما يريده، وحين يريده؛ هذه هي طريق السّلام الوحيد، والأساس المتين الوحيد للأمل عند آخر ساعة". ومثل هذه النظرة يمكن أن تكون نظرة إسلامية أورواقية (Stoïcienne) أوأفلاطونية أومسيحية. وهي مسيحية بالفعل، منقولة من "أسوة المسيح" (عليه السلام) (Imitation de Jésus Christ) الأثر الذي ألفه سان فرنسوا داسيز (St François d'Assise) في عصر النهضة.

إن اليوناني يعتقد بوجود اللّه وأنه لا شيء بعد اللّه. ولا فضاء إلا فضاء الكون ولا زمن إلاّ الأبد. وكل شيء لا يتسم بالكمال لا معنى له. ومن مهمّة الفلسفة لا أن تعدّد بكل مجاملة حالات فكر الإنسان، لكن أن تبرز ما هو متين ورائع في البشرية ومن هنا كان أسلوبها ونظرتها السائدة؛ ومن هنا أيضا كان تجاهلها الحاسم لعلم النفس، وعلم الاجتماع والاقتصاد. معنى ذلك أنّ الفلسفة اليونانية كانت غير معنية إلى حدٍ بعيد باهتماماتنا المعاصرة، لأنّها طريقة إلى النجاة، وليست ممارسة مذهبية.

ومن المؤسف أنها آلت إلى أيدي علماء كيّفوها وفقا لذوقهم، وقدموها في صورة مفككة، إنّ الفيلسوف اليوناني ليس أستاذًا يدرّس من منصبه العالي (Ex. Cathedra) وفلسفته إنما هي حكمة دينية لا يعبّر عنها الناس ولا يمارسونها في الشّارع فقط، بل إنها تتلقى تعليمها من الشارع الذي لا تزال متصلة به يوميا. إن أفلاطون وأرسطوكانا من عامة الناس إنهما كانا فاهمين لمجتمعهما، ومجتمعهما كان فاهما لهما. والشيء المعتبر فيهما هوسيرتهما وعلاقاتهما مع مواطنيهما أكثر من مؤلفاتهما أوتأملاتهما، إننا لا

نفهم ذلك بسهولة لأنّ التطور وتقدم الكتابة والتأليف والخطط الجامعية ودوائر التفكير، قد دفعت المجتمعات الغربية إلى الانقسام إلى "طبقات جاهلة" و"طبقات عارفة" وبما أن كل طبقة جاهلة للغة الطبقة الأخرى، لم تبق بينهما معاشرة ومخالطة في الواقع. فالشعب يعيش بعيدا عن الفلسفة، بينما ينصبّ عليه التمذهب من قبل من يشكّلون طبقة "الأساتذة الجامعيّين". إنّ ثقافة العصور القديمة كانت غير ذلك؛ إنها كانت ثقافة جماعية، وملكًا لكل فرد؛ ولكل فرد أن يلقي نظرة شاملة على جميع الديانات والفنون والمعرفة التي كانت من ممتلكاته. لم تكن ثمة موسيقي للعارفين وفلسفة للمتخصصين، ولغة خاصة بالعلماء. وكلّ ما كان أرسطوقراطيا كان أيضا شعبيا. ولايتم تمثيل أي أثر في العصور القديمة في قاعات مغلقة. إن المفكرين عندنا يحترفون حرفة تعليم الشعب بينما كان الشعب هوالذي يعلّم المفكرين فيما مضى، ويفتح لهم النظر. والفنان الأكبر ليس شيئا آخر غير محترف (يدوي) مكلف بتبليغ الصّور والأفكار والإنطباعات التي تلقّاها من الشعب منبع الفيض والفرح والإرتياح. وكان المجد إنما هوالتأييد والتعاطف من المواطنين.

كانت العزلة مدعاة إلى الفشل ولوكانت عزلة عبقرية. وإذا حفظت التقاليد أسماء أمبدوكل (Empedocle) وأفلاطون وأرسطوعدا العدد الأكبر من الفلاسفة المجهولين الذين غمروا العصور الكلاسيكية القديمة، فتلك مجرد صدفة وليست من اختيار الرأي العام.

جميع فلاسفة اليونان بدون استثناء يعترفون بانتمائهم إلى المشرق، وبكونهم من تلامذته. وكلّهم تقريبا قد ولدوا بالمشرق أوجالوا فيه مدّة طويلة، لإكتشاف ماضيه أوالرواية ونقل مذهب زرادشت بصورة خاصة، كما فعل

أفلاطون في أسطورة بامفليان (Pamphylien) في ختام الجمهورية. ويفيد الحوار المحرف "الماجكوس" (Le Magikos) بأنه قد حضر ساحر سوري قصدا إلى أثينا، ليخبر سقراط بوفاته. ويرى الشارح نومنيوس (Numénius) في القرن الثاني من الميلاد، أن أفلاطون نبي، كموسى يتحدث باليونانية.

وقد أشاد غزنفون على سقراط، يخبرنا بأن الفيلسوف المشهور يذكر من بين الأبطال الذين يرغب في لقائهم بعد الوفاة، أورفي (Orphée) في المقام الأول.

إن الفلسفة اليونانية تبينت وتهيكلت ابتداء من القرن السادس (ق.م) خارج حدود شبه جزيرة اليونان، في آسيا وفي المراكز الفلسطينية بايطاليا الجنوبية، وكان فيثاغور ساموس (Pythagore de Samos) وهرقليت إفيز (Héraclite d'Ephèse) وبرمنيد إيلي 'Pamrénide de l'Elée' هم كبار الممثلين لها. إننا لا ندري أي هؤلاء الثلاثة يختاره ويفضّله ورثتهم، ولكن من المحقق أنهم رفعوا الفكر اليوناني من البداية إلى مستواه الأسمى؛ ومن غير شك لأنهم كانوا أوّل من استمد مباشرة من المنابع. ومن الجائز أن نسأل لماذا كان ظهور الفلسفة اليونانية متأخرا إلى هذا الحد، في حين أن اليونان كانوا منذ أكثر من ألف سنة بل كثر من ذلك، في اتصال متين مع أنظمة العقائد الرّوحية القوية بمصر والأناضول وبابل.

وكيف أولماذا كان ظهور هذه الفلسفة مصادفا لتأسيس المركزية الحكومية في منتصف القرن السادس ق.م في عهد سارًا (Cyrus) وقمبيز (Cambyse) اللذين امتد ملكهما إلى جميع البلاد العربية؟

هذا سؤال لن يكون له جواب. وقد يقال : "إنّه كان لا بدّ من انتظار تهيّؤ اللغة اليونانية، لكن معنى ذلك هو تحويل المشكلة لاتسويتها، ومن

المعقول على كلّ حال أن نعتبر بأنه قد وجدت فلسفة بلغة عربية لدى اليونان قبل أن تسلك الطريق بلغة اليونان. وبدل أن نتحدث عن الفلسفة اليونانية" فالأصوب هوأن نقول "الفلسفة بالتعبير اليوناني". وذلك يجنبنا مثل هذه السذاجات (بالنص المنقول) :"ليست -الفلسفة اليونانية- مستحدثة من عدم كما هوواضح إذ أن الفكر اليوناني قد وجد في الفكر المشرقي مادة غزيرة قديمة الوجود؛ ... على أنّه كان ثمة إبداع بظهور مبدأ جديد، هو: الروح إنّ الفكر اليوناني إنما هو ظهور "الروح. وقد نبعت هذه الروح في اليونان من الروح الغامضة العميقة التي كانت بالمشرق. هذه الروح التي كانت شعورًا بنفسها وكيقين بطبيعتها اللامتناهية؛ هذه الروح باعتبارها مستقلة عن جميع الأشياء الخارجية، وكيقين بحريتها. إن الحرية هوهذا الشيء الذي ظهر باليونان وهذا ما دافع عنه اليونان ضد المشرق" (شارل فرنير : الفلسفة اليونانية بايو1962)

(Charles Werner : *La philosophie Greque Payot* 1962)

لا يوجد أي تعليم جامعي عندنا دون أن يتقمص بنية دعوة رسالة ديمقراطية أخلاقية ودينية. والدليل على أنّ الفكر اليوناني لم يكن إلا درسا منقولا عن المشرق، وأنه اختصار مصغّر وإنعكاس لفكر آسيا، هوأنّ آسيا لم تأخذ شيئا من الهيلينية، بل إنّها أمدتها بكل شيء، إنّ أثينا قد أخصبت روما، لكن لم تخصب لا الإسكندرية ولا بابل ولا مكة، ولم يقدّم أفلاطون أيّ شيء إلى العالم العربي، كما لم يفعل أرسطو.

إن اليونان لم يسهموا بشيء في اليهودية ولا في الإسلام ولا في المسيحية بسوى بوسيلة تعبير وانتشار، إنّ المشرق كان يعمل لمستوى

آخر غير مستوى هيلاد الصغير (Hellade) وقد كان أفلاطون وبركلاس (Péricles) والإسكندر شاعرين بذلك تماما، ولكننا نحن الذين جعلنا من اليونان بلادا مصدرة للمعرفة البشرية، لا هم. كان أفلاطون يعترف بكل تواضع بأنه تلميذ مطيع. وقد ذكر في التّيمي (Le Timée) أن قسا مصريا قال لصولون (Solon) كأب نصوح: "أنكم أيها اليونان أطفال لا غير" فلتقدر الأمور حق قدرها ولا تكن أحرص على سمعة اليونان من اليونان.

والحقيقة قد تكون هي هذه بكل بساطة: لقد عرفنا عن طريق اليونان الذين نشروا أسرار المشرق، ما كان يتلقاه القساوسة من تعليم في مصر وفي آسيا. وكذا الطلبة والجماهير، في صورته التي كانت معروفة حتى عهد جلال الدين الرومي، أوفي جامعات القرون الوسطى. إن أفلاطون وأشباهه الذين كيّفوا وجمعوا المعلومات لم يؤلفوا أبدًا إلا على صورة تقليد (كمقلدين) وقد كانوا من الشارحين العباقرة على غرار القديس طوما الأكوني (St Thomas d'Aquin) أوالغزالي . وقد استخدمنا مع الأسف مجدهم لتمويه آفاق المشرق الذي كانوا من الناطقين باسمه وبكل احترام.

إذا عرضنا للحديث عن فيثاغور فإننا قد لا نصل إلى جدوى، لأنّنا لا نعرف عنه أيّ شيء، ولا نملك من آثاره إلا بعض النّصوص المفرقة، نقلها لنا أمبدوكل، والدّوكسوغراف (Doxographes)[1] وفيلولاوس (Philolaos) وأفلاطون وأرسطو أوديوجين لايرت (Diogène Laerte).

فيثاغور كنية ومعناها "دلاّل لنبيّة بيتي (Pythie) وداع لبيتون (Python) أوبالأحرى "محام لأبولون" الأمر الذي يفسر الرواية الشعبية التي تفيد بأنه ولدته عذراء ألقت عليها الشمس بنورها. إنه أسيوي، من أصل فلسطيني

1 – أي أصحاب النظريات ونقلة النظريات.

غالبا، وكان من أسباب تمجيده أنه إبن إله، وقس لمذهب أورفي وزعيم مدرسة. ويبدوأنّه عاش طيلة عشرين سنة مع أستاذة طيبة ومنفيس في مصر.
فماذا كان يعلّم فيثاغور بالضبط؟ إنه كان يعلّم ما كان أهل المشرق يعرفونه منذ زمن طويل: وهو: "إنّ اللّه ليس له جسم ولا رأس كالبشر، ولكنه عقل مقدس لا يمكن وصفه"؛ وإن الجسد فان والروح خالدة؛ أن العالم المشهود وراءه عالم غير مشهود؛ وأن الإنسجام والتناسق في العالم واحد لا يطرأ عليه تغيير؛ ومعنى ذلك أن عالم الجماد وعالم النبات وعالم الحيوان متداخلة خاضعة للحركة الأبدية، حركة العناصر الأربعة الماء والهواء والتراب والنار؛ وأن هذه الحركة بما أنها أبدية دائمة فإن الموت والحياة متجانسان، كل منهما يؤدي إلى الآخر.

وقد فهم البعض بدون أي احتياط من هذه الفكرة الأخيرة، الإعتقاد في التناسخ الخيالي الذي يتحوّل القط بمقتضاه بعد الوفاة، طائرا، أوتحوّل الوردة إلى سمكة، إن فيثاغور لم يقل شيئا من هذا؛ وإنما اقتصر على التأكيد بأن الجسم (أوالجسد) يحرّر بعد الوفاة والفناء، مبدأ خلوده الذي يعود إلى الكون الواسع العريض، الذي كان في اتصال دائم متفاوت معه بدون إنقطاع. ويكون صعود الروح إلى النعيم اللامتناهي أسرع وأسعد، خصوصا وأن الروح تكون قد "اندمجت في الرقم" منذ حياتها الأرضية. ولا بد باختصار من أن تكون الروح قد ذاقت قبل وفاة الجسد من سر الموت الذي لاخلود بدونه.

ذلك أن الحياة الأبدية (أي الخلود) إنما هورقم، أي رقم هذا؟ إنّه رقم السماء بطبيعة الحال، الرقم الذي يمنح قانونه لحركات الكواكب والشمس. إنّ هذا الرقم الذي لا يتغير، الصارم، الفريد، الموزع للأعداد

المكلفة بتنظيم سير المخلوقات والأشياء، أنما هونتيجة معادلة توازن إلهية بين جميع الطاقات الفاعلة في العالم.

إن فلسفة فيثاغور ديانة فلكية وعلم رياضيات، وتتمثل لذلك في شكل صورة هندسية تتحرك بالقوانين الأبدية. فالروح يجب أن تكون هندسية إذا أرادت أن تندمج في الحال وفورًا في الصورة السماوية. فإذا تحررت من الجسد، فلا توزن ولا عبرة بألوانها البيضاء أوالسوداء، ولكنها تقاس بالكوس (Equerre) وبالفرجار قبل أن تستحق اطمئنان الفضاءات الحقة. وقد حدّد الذنب (Péché)، بأنه تصدّع الرسم، أوانحراف في الخطوط. ومثل هذا التصور المجرّد للوجود (الحياة) لا يمكن كما هو واضح، أن يفسح المجال لعلم النفس أوالعلوم المسماة بالعلوم الذهنية (Mentales) التي أغرق فيها عصرنا. وهوفي صفائه يتناسب تماما مع التصّور المعماري الهرمي الذي كان المصريون يتصورونه في نظام الحياة. وقد كانوا سادة يتحكمون في الأعداد وفي الهندسة السماوية والأرضية وأوغلوا في فن الحساب إلى درجة أنهم جعلوه علم ألوهية. إننا نقرأ في الأمثال العربية مثلا يقول: "إنّ الروح يجب أن تذوق من الموت قبل الموت". وهذه الكلمةَ لا يرفضها فيثاغور الذي كانت الجماهير تنتظر منه "كلمة النجاة" كما روى ذلك تلميذه أمبدوكيل (Empédocle d'Agrigente) في هذا النص المنقول من "التطهيرات" " (Purifications). أيّها الأصدقاء أحّييكم أنا هو: لقد جئت وقد تحررت إلى الأبد من الموت؛ هذا الإله الخالد الذي يحترمه الجميع كما يجب أن يحترموه؛ وقد توجّتني العصابات وفتحت لي الأكاليل أزهارها. وبمجرد أن رافقني أتباعي أدخل المدن المزدهرة ويغمرني في الرجال والنساء

بالتشريف، ويمشون من ورائي... وأولائك الذين خرقتهم أمواس الألم يطلبون مني الكلمة التي تنجي وتخلص من جميع الأدواء"

إن الفلسفة اليونانية لن تتخلصّ بعد ذلك من الهندسة ومن تمجيد الأرقام. وقد استطاع العلم الحديث أن يبحث في تأليه النظرية (قضية رياضية) عن طريق شبيهة، وإن كان ذلك مع فارق ملحوظ. وجوابا وردًا على تعليم فيثاغور الذي يرى أن العدد هو مفتاح الإفتتان (والتعاويذ) بالمعنى الحقيقي، أي اجتياز قبة السماوات، فإنّ العلم الحديث يتجنب التضليل، ويرى في العدد غاية في ذاتها، وفي الظروف الأرضية الموقتة، أمرًا مطلقا منطقيا؛ وهذا تناقض في الحدود، ولكن إذا تخلّى المهندسون والبيداغوجيون اليوم عن روح فيثاغور ومن شادوا الأهرام، فإنّ الرّوح لا تزال سارية في المواد الفنية. وحتى إذا اختفت لإستهانة ظاهرة من أساتذة متمردين فهي تلجأ دائما إلى المثلثات وإلى أقواس الدائرة وإلى المساحة الذهبية Section d'or إننا نعرف كيف كانت القرون الوسطى تقدّر مخمّس الزوايا (Pentagone) باعتباره الشكل الوافي، الرباني الأصل: أليس المخمّس الزوايا صورة لنجمة الأنصار (Mages) ذات الفضائل الخمس المقسومة إلى خمسة فروع : فهي "مادية وروحية وفكرية ومنطقية وجوهرية عليا".

إن العالم الرياضي المشهور في القرن الثالث عشر كونبانوس دونوفار (Campanus de novare) شارح أوكليد، كان ملهم اثنين من قادة عصر النهضة، ألبرتي (Alberti) والقسّ الفرنسسكي لوكا باسيولي (Luca Pacioli) وقد أوضح هذا الأخير في مؤلفه المشهور (De divina proportione) الذي أهداه إلى لودفيك لومور (Ludovic Le More) أنه يؤيد ويتمسّك بنظريات فيثاغور المشروحة في كتاب التّيمي (Timée) لأفلاطون.

وقد دعا الفنّ إلى القيام حول النسبة الذهبية (Proportion d'or) المقومة في معادلة متأثرة بعلامة .V5 إنّه يرى أن هذه النسبة غامضة قارة وغير منطقية. وقال إنها على غرار التثليب المقدّس، فريدة ترجع إلى العلم الأسمى أو"الأسرار العلمية السامية. إننا نأسف من أنّ هذا الكتاب الفيثاغوري المبني على العقيدة الفرنسيسكية، لم يترجم بعد إلى الفرنسية. وهوكتاب يشهد بوضوح على أن ثقافتنا كانت تتغذى باستمرار بمبدأ لا يفرق أبدا بين الألوهية والعلم. ولا شك أنّ ليونار دوفانسي (Leonard de Vinci) كان يميّز من وراء تشكيلاته، السداسية السطوح (Hexaèdres)، والمربعات الوجوه (Tetraèdres) ورسوم المخروطيات، صورة اللّه بكل وضوح. وقد كان هوالآخر من أتباع الأرقام وفليسوف ساموس (Samos).

وإذا كان أبولون هوالأب الروحي لفيثاغور، فإن (أخاه) الأصغر هو قليت من إفيز (Heraclite d'Ephèse)، قد خصّ بهرقليس (Héracles) كما يدل على ذلك إسمه. فكل منهما قد تلقى تعليم زرادشت والمدارس الفلسطينية ولم تنحرف على هذا السلسلة الصوفية. فالمدينة التي ولد فيها لم تكن جد أسيوية من آسيا الصغرى فقط، ولكن قد كان لها من ساعة مبكرة "ملوك من إيونيا" بقوا محافظين على لقبهم في عصر المسيح. كانوا في البداية أتباعا للفلسطينيين بصور وصيداء، والحثيين والبابليين، وكانوا في عهد هرقليت، أوفياء لملك الفرس.

وقد كان لهم الحق في البرد الأحمر، وفي الصّولجان، ويشرفون على عبادة إيلوزيس (Eleusis). كانت فلسفة هرقليت تمثل قبل الإسلام بأكثر من الف سنة ما يعبّر عنه "بالمكتوب". إن مفتاح الكون ووحدته، إنّما هوفي

"الكلمة" .(Logos) فهذه الكلمة تتحكم وتسري في كل شيء وفي كل مخلوق بقانونها الصارم الذي يرفض أي حرية وأي إمكانية للصدفة "توجد بصورة قطعية قوانين قدر" (مقتطف 159) و"ليس للشمس أن تتجاوز الإعتدال والآفإنّ الإيريني (Erynies) التي تخدم العدالة قادرة على إصابتها" هذا ولا جدوى في إدّعاء أنّ للإنسان ميزة خاصة تسمح له بفهم مصيره، وبالأحرى تغييره؛ "إن الإنسان محروم بالفطرة من العقل" (مقتطف 148). ذلك أنّ الفكر والنجاة يرجعان إلى نظام الكون العالمي لا إلى الأفراد، إن حرية الإختيار، والشخصية والأصالة، والفكرة الخاصة كل ذلك من الأوهام، لأننا بالتعبير الصحيح "لا وجود لنا" والإنسان بمفرده من غير علم ولا مقدرة إنما هونار وهي وحدها "التي تتقدم وتحكم وتقضي على كل شيء". "فحيثما وجد الإنسان لا وجود للمعرفة؛ إنما هي حيث يوجد اللّه" إن الفلاسفة الذين أعربوا بكل هذه السخرية، وبمثل هذه الإستهانة عن زهوالإنسان قليلون. وباسكل (Pascal) هوالوحيد الذي يجوز تشبيهه بهرقليت الذي صرخ قائلا :"ياإلهي إن قلب الإنسان فارغ، عامر بالنفايات" وما أكثر انتقاصات هرقليت للإنسان! فقد قال :"إنّ أكثر الناس حكمة لايشبه إلا القرد، إذا قارناه بالألوهية" وقال : "إن اعتقادات الأدميين ماهي إلا من عبث الصبيان" فليس للإنسان إلا أن يخضع لله، ويفوض أمره إليه؛ وباختصار أن يستسلم نائما لأنّه لايستطيع أن يتحدى ما لا مناص منه، وبإيجاز نقول: إن هرقليت يرى أن الفكر شيء غريب كل الغرابة عن الوجود. وإذا صادف أن وقف أمامه مخاطب يفتح فاه ليناظره ويحاججه، اعتبر أنّه يخاطب غبيا أومضللا. "إن الآدميين إنما يعملون متآخين من أجل مصير العالم، عندما يكونون نائمين".

إن اللّه قد سوى وألف بين التناقضات والتضاربات الكثيرة في الزمان والمكان، فأدمج كل ذلك في فطرته التي تتحوّل وتتناقض في آن واحد.

إن اللّه نار لأنه ضمير "لاتأخذه سنة ولا نوم" إن اللّه جهاد كما هوفي عقيدة أنو(Anou) وإيبا (Ea) البابلية، التي تعتبر كل خلق نتيجة لنزاع في الكون؛ إن اللّه غير منطقي لأنه مطلق (لا حد له). وهو كإشتار أستارتي (Ishtar Astarté) مزدوج الصفة، ونور وظلام كأوزريس. فإله هرقليت "مجمع للأضداد" "وكل ما يتعارض بالتآلف الدائم واجب" "لاخلاف بين الظلام والنّور، ولا بين الشر والخير، وطبيعتهما واحدة متماثلة. ومن كلامه أن "الحياة من الموت، والموت من الحياة" وهي عبارة شعرية يمكن أن يتخذها سان جان لاكروا لنفسه .(St Jean La croix) ومن المؤكد أنّ الخوف مما لا يمكن تفسيره، قد جعل حياة البشر فقيرة أي فقر، وقد أراد هرقليت أن يحوّل هذا الخوف إلى عبادة وأن يعلم الناس قبول المحتوم وما لا بد منه، واعتبار الضرورات القاسية أحكاما عادلة، وباختصار تفضيل الكفاح على الإنتصار؛ وذلك لأنّ الإنسان مهما كانت الحالات، قد ينجومن النار الحسية لكنه لن ينجو من النار الفكرية".

ويرى بلوتارك (Plutarque) أن هرقليت، قد تأثر بعقيدة إزيس وأوزريس؛ فالقمر والشمس مصوّران عنده رمزيا بمركبين كما كان الأمر في مصر، كلّ شيء يتماسك في الواقع عند هرقيلت الإيفيزي (d'Ephèse) من عقيدة عبادة النار الزرادستية، ونظرية الأضداد السائدة في الفكر المصري البابلي، واستسلام الإنسان أمام وجود اللّه (في عقيدة الإسلام)، والبحث عن الإنسجام الخفي من وراء الإنسجام المشهود، والشك المبرّر للإيمان، ومن المؤسف أنّ آثاره لم يصل إلينا منها إلا أطراف ممزقة، في نقول بالمرتبة الثانية، وهي غامضة بسبب

اختصارات واجتزاءات صارمة تنبّه إليها صرخة من هنا أوهناك صادرة من أغوار العصور :"إن العرافة (أوالكاهنة) التي تهذي وتلقي كلمات مؤلمة جافية صريحة، تجتاز عبر القرون بفضل الإله الذي ينطقها" والشمس تتردد باستمرار وأبدا في تفكير هرقليت، باعتبارها منبعا ومتحكمة منظمة. وهوالقائل: "إن الشمس السائدة الحارسة للتقلبات الدّورية تبث وتقود، وتشجع وتكشف عن التغيرات" فكأننا نسمع فيثاغور، الذي قال: "إنّ الشمس جديدة كل يوم لأنّ سلطانها من سلطان ديونسوس".

إن هذا الكلام شبيه بنقل من شعر أورفي (Orphée). فآسيا ظاهرة هنا، ولا وجود لليونان، إلا في التسجيل والتقييد، إن أتباع هرقليت من المعاصرين المحدثين وعلى رأسهم هيغل (Hegel) إستغلوا تفرق آثاره المشتتة، فأخذوا منها بعض الكلمات والعبارات القوية المناسبة لخدمة قضية الماركسية والإشتراكية والجدليات الفكرية العميقة. وهذا من خيانة الثقة المنكرة، ولا سيما لأن هرقليت كان قبل كل شيء مؤمنا، وكل شيء عنده يتعارض مع رجل الفكر، وتصريحاته مبنية على الواقع المحسوس، ولا تقبل أيّة فكرة نظرية، لأنها لا تساوي عنده إلا الصفر. وهو بالأحرى مسلم من قبل الإسلام بدل أن يكون سلفا للنين (Lenine).

والفيلسوف الثالث من كبار الفلاسفة السابقين لسقراط، أعني برمنيد (Parménide)، لم يكن من آسيا، ولكنّ عائلة أبائه من مدينة إيلي (Elée) الصغيرة في لوكاينا (Lucaine) بالمقاطعة اليونانية الفلسطينية التي ذاعت فيها التأثيرات الإتروسكية. إنه معاصر لهرقليت، ويقوم تعليمه على مبدأ بديهي هو:"أنّ الكائن موجود؛ وغير الكائن غير موجود" (أي العدم غير موجود) وبما أن الكائن موجود حتما، وأنه لم يكن مخلوقا، فإنّ ذلك

يقتضي استحالة فنائه إذ إن خلقه مستحيل، لايتصوّر. إن اللّه عند برمنيد، دائم، كامل، جبّار قهار يصوّره في كرة رمزية لا تتحرك تماما.

وبما أن السكون أي عدم الحركة، ممكنة التصور، فالحركة ليست سوى تلهية، وبينما كان فيثاغور يحدّد واقع الكون كمعامل جبري (Puissance Algébrique)، ويحدده هرقليت كإرادة، إنّ برمنيد يتصوّره كجهاز ميكانيكي: فالكون يتألف من عجلات تهتز. وقد قورنت نظريته في الكائن الكامل بالتحوّل عند هرقليت (أوالتقلب). وذلك ليس سوى تلاعب بالألفاظ لأنّ كل شيء عند هرقليت يتغير إلا التغيّر؛ فلا وجود عنده للحركة إلا ضمن إنسجام كامل، لا يتحرك ولا ينقلب إلى عدم إنسجام، وسواء عند هرقليت أوعند برمنيد، إن مبدأ المبادئ إنما هوالنار، نار زرادشت.

أما كرة برميند فهي شبيهة بصورة السماء عند فيثاغور، المستوحاة هي الأخرى من البيضة الأورفية المنحنية المحكمة الخلاقة. وكذلك يرى برمنيد أن الأضداد تلتقي، وأن التناقضات تتعارض. وبمركز حلقاته النارية التي تمثل رموز الكون، تقف "الإلهة السائدة" إيروس (Eros) أوأفروديت، العنصر ذوالجنسين، والنّور والظلام، على غرار إشتار:

ولكن تحت الأرض طريق هلع عميقة عسيرة لما بها من وحل؛ وهي طريق تؤدي أحسن من غيرها، إلى عالم أفروديت الساحر الحافل بما يقدمه من نعيم (مقتطف 30).

وقد لاحظ هوالأخر أنّ نجمة الصباح ونجمة المساء ليستا إلا كوكبا واحدا، فإذا تركنا جانبا المظهر الشعري الذي يكسوبه الفلاسفة الثلاثة السابقون لسقراط، نظرياتهم، نعرف بوضوح أنّهم يعتقدون هم الثلاثة في الشمس والخلود، والتجريد الأسمى، والحياة الأبدية، وفي التصّوّر غير

الشلكي للكون الذي تبدّدت مادته ولا يمكن وصفه. وإذا لجأوا رغم كل شيء إلى استخدام "أشكال" (أوصور) لتفسير هذه الحقيقة السامية، فذلك على غرار الموسيقي الذي يستخدم صوتا لتسجيل صمت؛ أوالشاعر الذي يركب الكلمات؛ كلمة فوق الأخرى ليعبر عما لايمكن التعبير عنه. ولا بدّ ليؤيد الشعب فلسفة ما، ولتثير اهتمامه، من تقريبها بصورة بسيطة محسوسة، ولا سيما إذا كنّا نسائل فلاسفة طبيعيين، كما هوالأمر في حالنا بالإضافة إلى كونهم موسيقيّين وشعراء. وفي الحقيقة إنّ أحسن تفسير لفيثاغور وهرقليت، وبرمنيد، كامن في منبع أفكارهم: أعني في كتاب الموتى المصري، وفي النصوص المقدسة الفلسطينية والبابلية. وذلك لأنّ طبيعة طريقتهم التي تتمثّل في حصيلة شعرية (غنائية) لا تخضع لمنطقنا المعقّد الأسلوب إلى أقصى حدّ، كالسريالية تجاه الإنسجام الكلاسيكي. إن لغتنا تأسرنا وغبتنا في التوضيح تسوقنا إلى الغلوفي التحليل، لإكتشاف الفوارق، والنظريات الصّوفية الفلسفية المتماسكة ولا تحظى بميزتها النسبية إلا بجزئيات هينة. إن المعلقين الشراح في العصور القديمة لم يكونوا متشدّدين في تحليلهم كما نتشدد نحن اليوم.

وقد كتب أحد هؤلاء الشراح، وهو هيبوليت (Hippolyte) أسقف أوستي (Ostie) في القرن الثالث (م) قائلا :"إنّ برمنيد يؤكد هوأيضا أنّ الكل واحد، خالد غير مخلوق (مولود) كروي، ولكنّه يشاطر أغلب فلاسفة ذلك العصر، في اعتقاداتهم الباطلة، عندما يتحذ من النّار، ومن الأرض مبدأين للكلّ؛ باعتبار الأرض مادة والنار علة وفاعلا خلاقا" [1] إن الحوار الذي

1 - المقتطفات من آثار برمنيد وهرقليت منقولة من كتاب إيف باتستيني: (Yves Battistini) ثلاثة معاصرون (*Trois contemporains*) نشر غليمار 1955 (Gallimard).

عنونه أفلاطون "بالبرمنيد" والذي يجمع في قصة أدبية سقراط، برمنيد، وتلميذه زينون ينتهي باتفاق عام بين المتحاورين بعد لغط وثرثرة رائعة كلها سخرية بخصوص وجود اللاّكائن، وعدم وجود الكائن؛ وكل يعترف بأن خصمه على صواب، ... والكل في الكل والعكس كذلك.

إن أفلاطون يشيع باستمرار في كتابه (الحوار!) من البداية إلى النهاية ابتسامة استخفاف، وهل يجوز أن نكون أكثر جدّية في فهم أفلاطون مما كان هو جدّيا؟ ولا نتحرج من مثل هذا السؤال، لأنه يحق لنا أن نفكر فيه. فماذا يخفي هذا الحكيم العجيب وراء وجهه المسرحي؟ إنّه يصور سقراط بشيء من سمات همليت (Hamlet)؛ وبشيء من سمات المشعوذ أيضا.

ألم يكن للشعوذة عباقرتها؟ إن التيارات التي ذاعت في المشرق وفي الغرب لا تسمى الأفلاطونية ولا الأرسطوطالية، ولا الرواقية، بل إنها هي أساطير إزيس، وبعل، العقيدتان الشمسيتان والأورفية، والأسرار الغيبية الفلسطينية الأناضولية، واليهودية والمسيحية، والإسلام؛ هذه العقائد التي كانت تسري عدواها من بعض إلى بعض بصورة خارقة. إنّ الأفلاطونية سفينة تجذبها هذه التيارات الجبارة؛ وهي تسايرها ولكنها لا تتحكم فيها، خصوصا وأنه لم يكن ثمة أيّ إبداع جديد لأن هذا العمل، قد تمّ وأنجز بصورة عميقة في القرون السابقة. إن المشاريع السياسية والفنية والصناعية أوالروحية التقنية أوالأخلاقية إنما تنشأ في ظلال صمت الديانات الكبرى وتأملاتها، لا في صخب البحوث والمناقشات الفلسفية ولوكانت أفلاطونية.

إن حياة أفلاطون أكثر فائدة من غير شك، من مذهبه الذي يمثل - حسب ما يمكن أن يقال- شبه حصيلة للحصيلات التي أنجزها الفلاسفة السابقون لسقراط. لقد كان من أتباع هرقليت والأورفية وفيثاغور وقصد إلى

مصر لإستكمال دراسته. وقد أقام بها مدة طويلة، ثمّ رحل إلى ليبيا واستقبله في قرنية (Cyrène) تيودور الفيثاغوري، ثم إلى صقلية (التي كانت تشغل باله طيلة حياته) وإلى إيطاليا الجنوبية، وإلى مثل ذلك من البلدان العربية أوالبلدان المتأثرة بقوة بالفكر الفلسطيني والسياسة الفلسطينية. وقد بيع كعبد (رق) أثناء الحرب بين إيجين (Egine) وأثينا فاشتراه ليبيّ وأعتقه.

عاد أفلاطون بعد ذلك إلى بلده فأسس الأكاديمية وقضى حياته الباقية في نشر الفلسفة في شوارع أثينا، مشاركا في النضالات السياسية التي ألحقت ضررا خطيرا باليونان في بداية القرن الرابع (ق.م). وقد دارت آثاره الفلسفية التي نشرت في عهد متأخر أساسا حول شخص وهمي أوشبه وهمي إسمه سقراط، النّد المقابل للأبطال الأسطوريين الكبار مثل هرقليس، جازون وصولون (Solon) وترزياس .(Tirésias) إن آثار أفلاطون هي باختصار صدى لسقراط، كما أن الأوديسية صدى لأوليس. ومعنى ذلك أن فكر صاحب الأكاديمية كان إلى حد بعيد فكرا ذا صبغة ملحمية شعبية وأسطورية. فالمناقشة الفلسفية كانت دائما عنده مناقشة مسرحية. وهي تجمع بين متحاورين يتمتعون بهيئة مثالية طبيعتها مجردة رمزية. إن المشاركين في حوارات أفلاطون يتحدثون ويعبّرون بالحركات عن أفكارهم فوق الخشبات المنصوبة المرفوعة لإلقاء الشعر، وهم أشخاص يحملون أرقامًا كالألهة ويشاركون في الأدوار ممثلين لقوانين التمثيل الديونيسي، كما تصورها أوشيل (Eschyle) أوسوفوكل (Sophocle) إنهم يؤدّون شعيرة. وليس في ذلك شيء يوافق دروسنا الفلسفية الملقاة في قاعات مغلقة،

وبعنوان العقلانية اللاّ أدرية، بل إنّنا هنا في جوحفل ديني صريح. يقوم إلى جنب من يتناقشون أويتدبّرون أبولون وديونسوس، ودمتير، وأفروديت والآلهة الكبار ومينوس، وأورفي. وللكلمات التي تلقى معنيان أوثلاثة معان في الغالب.

ولا تكاد تفتح أبواب المعرفة إلا في صورة صيغ مقترحة، دون أن تكشف بكل وضوح، فالحوار يجري بملاحظات تقريبية تتبعها لمسات متكررة لا نهاية لها. وأحيانا تتوقف الجملة معلقة في القضاء حتى لا يفتضح معناها. فالصمت له معناه كالحديث، والأصوات خافتة لا يكاد السامع يميزها. هذه هي السخرية السقراطية، (هنا جملة تتعلق بمعنى ألفاظ يونانية، الغرض منها هوإثارة اهتمام المتطلع إلى المعرفة لا إقناعه). وهذا يذكر بامثال الأنجيل. إنّ الحوار الأفلاطوني حوار غامض لا يتبيّن معانيه إلا من كانوا من المحظوظين. ومن مأثور القول "لا تدل على السماء من لا يرى السماء".

إن طريقة أفلاطون طريقة دينية ويشرح هونفسه في رسائله أن حفظ الأسرار وتوخي الأناة ضروريان إلى حد كبير للتعليم والتلقين، وهو ينصح بالتحفظ من التقييد لأيّ شيء بالكتابة حتى لا يكون المكتوب موضوع تأويلات غير سليمة. وقد كتب إلى دونيس بسيركوز (Denys de syracure) قائلا :"إحترس من أن تتراجع يوما، عمّا تنشره اليوم بدون تحفظ. إن أكبر الحذر هوتجنب الكتابة وسلوك الحفظ عن ظهر قلب؛ ذلك لأنه يستحيل أن تبقى الكتابات مجهولة من جمهور القارئين. لهذا لم أكتب أنا شخصيا أي شيء في هذه المواضيع. لا يوجد أثر مكتوب منسوب لأفلاطون ولن

يكون شيء من ذلك. وما ينسب إلى اليوم إنما هومن آثار سقراط يوم كان شابًا وسيما، إلى الوداع. وأطعني. هذه الرسالة بمجرد قراءتها وإعادة قراءتها أحرقها" إننا نرى كيف أنّ سقراط (أوإسمه) يستخدم ليكون المؤلف مجهولا مع إعطاء الحوار بعدًا أسطوريا. إن رسم الشخص، كما قال بسكال، يمثل غائبا وحاضرا، وإن الرسم الخافت الذي يبدوفيه سقراط قد يتجاوب مع هذا التحديد.

إنّ أفلاطون يقدم اقتراحات متناقضة عديدة، ويعمد إلى الإصطدام بالأراء بصورة مقلقة، بحيث نتساءل غالبا ماذا يريد. فلا غرض لنا في إختصار أثار كلها تعلات، تسري فيها تلميحات خفية إلى تعليم مصري أوبابلي، على أنه يستخلص منها أحيانا أشياء يقينية عودتنا عليها أساليب الفكر الأسيوي، ومن ذلك، بادئ ذي بدأ التأكيد بأن الواقع المحسوس ليس سوى مرآة تعكس فكرة؛ وأن الفكرة أبدية كالألوهية التي تنتمي إليها، وكالروح المرتبطة بكل قوة بالألوهية، ويترتب على ذلك أن الروح التي صنعت على صورة الله، خالدة. وهي سجينة بصورة موقتة في جسد فانٍ وتتنفس الصعداء بعد وفاة الجسد وتتحرر. وكذلك طائر التم (Cygne) فإنّه ينشد قبل أن يموت، نشيد إقترابه من اللّه الذي يستعد للقائه.

والإستنتاج الثاني يقول بأن الروح تملك بالفطرة العلم الحقيقي الذي هو معرفة الآراء (أوالأفكار). ويكفي على هذا أن تبذل جهدا بالتأمل والتذكر لتجذب إليها المعرفة التي تملكها من الأبد، والتي لا يمكن أن تضيّعها، وإلا ضاعت هي نفسها. إنّ الروح لا حاجة لها في أن تتعلم؛ إنها تعرف والعلم الصحيح إنما هو في الخلق لا في درس ما يسميه بسكال "الأشياء الخارجية" على أنّ الروح تواجه عائقا في سبيل الفهم، بسبب

تدخل الجسد، وكلما تخلصت من سيطرة الجسد، أمكن لها الصعود إلى سماء المعرفة حيث تندمج وتذوب في اللّه.

فاللّه هو بالفعل - وهذا يقين ثالث ويقين أخير - ربّ الكائنات وخالق الإنسجام؛ وهو الغاية العليا والعلة الفريدة التي لا نستطيع تصّورها، ويستحيل تأملها بنظرة هالكين. إن أفلاطون إذ ينتهي إلى عبادة اللّه، يلحق بهرقليت وبرمنيد عن طريق فيثاغور، معربا بوضوح عن إنتمائه ستشهاده بهم. وقد أخبرنا في حوار "الشرميد" (Charmide) بأن سقراط (أي هوأفلاطون)، قد كان له في الجيش رفيق طبيب من أطراقيا، علّمه التطابق بين الجسد والروح، ونحن نذكر أن النصوص القديمة من المعرفة الدينية (Gnose) يدعي فيها أورفي بالفعل "طبيب الأرواح" أو"طبيب أطراقيا" وتتكرر مرارا في الحوار الأفلاطوني فكرة الكرة التي يقول بها فيثاغور وبرمنيد. وهي كرة تنطوي على التثليث :"تدور جميع الكائنات حول ربّ العالمين (الكون)؛ إنّه هوغاية كل شيء وعلّة كل خير (جمال). وتوجد حول "الثاني" الأشياء الثانية؛ وحول "الثالث" الأشياء الثالثة" (الرسالة II الفقرة 312). فهذه عقيدة مصرية بابلية، نجد أثرها في تاريخ الأديان المشرقية الطويل؛ ثلاثية، وثالوث، وتثليث ومثلث. وأفلاطون لا يكّف عن الرجوع إليها في كثير من الأحيان. وهويقسم الروح إلى ثلاث مستويات (وطبقات) ؛ الرغبة الأساسية العميقة، والشجاعة الأخلاقية، والذكاء الفكري.

وكذلك يتصور واقع العالم مقسما إلى ثلاثة أطراف "الخير الأساسي الأول هو اللّه؛ والثاني هوالعقل (الذكاء) المتولد عنه؛ والثالث هو روح العالم، الصلة بين الأب والإبن" ولنذكر هذه الكلمات الأخيرة؛ التي سيكون لها وزن كبير في تعليم المسيحية خلال القرون الوسطى. وسيكون المرجع

إلى هذا التثليث المشهور، بعد وفاة أفلاطون بما يزيد بخمسمائة سنة؛ وهو تثليث أعاد الإشارة إليه في "البرمنيد" في صورة "الواحد الأعلى، والواحد المتعدّد، ويستخلص فلوطين (Plotin) (إنياد .... Ennéades v. 1، 8، 490) بأن أفلاطون كان يعتقد هو الآخر في النظرية المسيحية التي تقول بثلاث طبيعات : "الطبيعة الأولى التي لا يمكن تصورها، والطبيعة الثانية من العقل، والطبيعة الثالثة من الروح" فالإيمان بالتثليث المقدس لم يكن شيئا جديدا في عهد أفلاطون ولم يكن قط يعسر عليه أن يفسر معناه الباطني، ولو كان ذلك بأسرار إيلوزيس (Eleusis)، وليس من الغريب أيضا أن تكون المسيحية قد ورثت مبدأه. وبما أن التثليث لا وجود له في اليهودية ولا في الإسلام، يمكن أن نفهم أن كل دين من هذه الأديان الثلاثة التي تنتمي إلى منبع واحد بقي متمسكًا بعقيدة خاصة مميزة عن التيارات المجاورة. وبدل أن نسلك طريق الفكر الطبيعية، وأن يشرح أفلاطون إنطلاقا من النظريات الكونيات والديانات المصرية البابلية، اعتبرت الأشياء في اتجاه عكسي وعمد إلى تبرير أفلاطون بالمسيحية ومنابعها. ومن الجائز مع ذلك أن نذكر أن أيّ معبد مصري إنّما شيد قربانا لثالوث من ثلاثة آلهة؛ الأول هومبدأ الذكورة والثاني هو الأنوثة، والثالث هو ثمرة المبدأين الأولين. على أن هذه الآلهة الثلاثة ليست إلها واحدًا. فالأب يلد بالصلة بالأم، ويصير إذاك الأب والإبن في آن واحد. ومن ثمّ يتبيّن عدم الخلق وأبدية الكائن.

وقد كان أرسطو تلميذ أفلاطون أكثر مما كان أفلاطون موضوع إستغلال مستمر من طرف المحددين لمذهب الكنيسة الكاثوليكية الرومية التي كانت تحرص على دعم جهاز عقيدتها بطبيعة (فيزياء) منسجمة وبكونيات مطابقة لما ورد في الكتب المقدسة. وقد كيّفت فلسفة أرسطو في صورة

نظام مصطنع مموّه، وأفرغتها من مادتها الحية واتّخذ منها هيكل التعليم المقّدس في القرون الوسطى. وكان من الآراء الأساسية عند بسكال (Pascal)، أنّه تهجّم على أنصار التعقلنية (Intellectualisme) ليبتعث روح الإيمان في الكنيسة، فرغب في إقصاء أرسطو لتعويضه بالمسيح (عليه السلام). ومن المؤسف أن بسكال انهزم أخيرا أمام مذهب ديكارت والفلسفة المذهبية. وقد صحّحت الجامعة أرسطو ونقّحته وجردته من ثقافته الأسيوية وعزلته عن المجتمع الذي ينتمي إليه، ونقش إسمه في واجهة هيكل الآراء الموروثة. وهوغير أرسطو الأصيل، بل إنّه مزيف، وكان طوما الأكويني أحد كبار المسؤولين عن هذا التزييف، وكتابه "المجمل ضد المشركين (*La somme contre les gentils*) والمجمل في العقيدة (*La somme théologique*) يدلاّن على تدهور بالغ للفكر إلى درجة أنه يمكن أن نعتبر عصره مبدأ لإنحراف الطبقات المفكرة بصورة لا تراجع عنها، وإذا أمكن للقيم السامية الإنسانية أن تزدهر مع ذلك وتثبت في الفنّ الرائع بأسلوب الرّومان .(Roman) فذلك لأنّ الشعب والشعب وحده، إستطاع بفضل ما كان له من إيمان بدائي، أن ينقذ أهمّ ما ورثه من التقاليد العربية والمتوسطية، وأن يقف في وجه عواصف وتيارات المتحذلقين الهذّامين.

وقد احترست الشعوب بغريزتها من الأساليب العقلانية المتطرفة لأنّها ترى أن جهنّم هوعالم الآليات، وأنّ السلام عالم الإنسجامات والتوافقات الملهمة. ألم تؤكد حكمة الأمم أنّ الجاهل الشجاع أولى وأسمى من العالم. وقد كان من موقف الشعوب ورد فعلها إزاء دعاة التعليم العقلاني المفخّم، المؤدّي إلى الموت الروحي، أنّها لجأت بحزم إلى الفطرة والطبيعة

ولا سيما أن قادتها جنحوا إلى التحرر من هذا التعليم. إنّ هؤلاء العقلانيين لم يستبقوا من أرسطو إلاّ صرامة طريقة تفكيره، ورفضوا ما كان يمثل صلب أثره (وفكره) وأساس حياته: ألا وهو تقديس الطبيعة والخليقة في تمجيدهما للّه. وقد وجه أرسطو تحذيرا شديدا ضد التجريد المتطرف الذي تمسك به تلامذة افلاطون، إن لم يتمسك به هو، وأعاد الانسان إلي الارض، وجسّد الفلسفة بصورة ما في طبيعيات جد صارمة تتمثل فيها القوى الحيوانية والنباتية والجمادية، كقوى متحكمة في الانسان، لا كمجالات طيعة لاحتكاراته وفكره.

إن الروح والغريزة، متماسكتان بشدة في نظر أرسطو، يشد بينهما التوازن الطبيعي المحسوس، ولا يمكن في نظره أن يحظى مجتمع مّا بالسعادة إذا كان رافضا لقانون الطبيعة، ولم يكن فيه وجود السماء والأرض والبحر، والبشر والحيوانات والأشجار ظاهرا محسوسا فها نحن نعود من جديد مع أرسطو إلى جنة النباتات والحيوانات المعروفة في الديانات المصرية والفلسطينية واليونانية، التي يعتبر فيها كل حيوان إلها لأنه من اللّه والتي تجدر في نظرها عبادة كل صخرة لأنّها آية وإشارة من الخالق، إنّ مصير الإنسان في تزاوجه مع الطبيعة. وهذه الطريقة هي الطريقة الوحيدة للإندماج في نظام الخلق. إنّ الحياة هي حبّ الحياة وسط مخلوقات نعرف قوانينها الباطنية، فلا بد من التعلّم لحصول المعرفة؛ ولكن ينبغي بعد حصول العلم التأمل في شأنه لتجاوزه إلى الفلسفة لمعرفة العلة والغاية.

إن العلم يعني بدرس المخلوقات ولكن الفلسفة تطمح وتسمو إلى المادة. فالمخلوقات تتكون من المادة التي اتخدت صورة، ولكن المادة نفسها لا تخضع لأي تحديد ولا لأي تصّور؛ فهي لا توجد إلا بفضل

الصورة التي انبثقت هي عنها، والتي تمثل جوهرها، ومادتها الأولى الخالدة. وأرسطوقريب هنا من أفلاطون ونظريته في المثل؛ إن الرّوح شكل للجسد، وهي في قسمها الأثيري - وهوالعقل- غير فانية وإلهية. وسعادتها في مشاركتها مع العالم بأسره في النظر والتأمل في اللّه المحرك الأبدي الوحيد غير المتحرك للكون، الذي أخرج في أحسن تكوين يدعو إلى الإبتهاج. وفلسفة أرسطوقريبة جدا بمبادئها ونظرتها الإجمالية من فلسفة هرقليت، التي يمكن أن تكون لها معيارا صحيحا باستثناء النغمية الموفقة التي تجعل من الطبيعة ومن الغيبيات وأخلاقيات نيكوماك (Nicomaque) نشيدا لتمجيد المبدع الخلاق. أمّا هرقليت فقد بقي فيما يخصه أكثر انغماسًا في التأمل، والحال أن الجزء الأكبر من آثاره (إن لم نقل كلها) قد ضاع. والأمر الذي يختلف فيه أرسطوعن أساتذته وأسلافه، إنما هوالمحاولة العبقرية لترتيب المراحل والطريقة، ونسق خلتف العالم؛ فانطلاقا من عالم الجمادات وعالم النباتات وعالم الحيوانات، يحدد شجرة نسب العالم، ويرتقي تدريجيا إلى المحرك المتصرف الأول، الذي يبدوأنه يعرف سره.

فآثاره على هذا، تتمثل على أنّها نشأة عكسية للكون، إنّ أرسطو ينطلق من المخلوقات إلى اللّه عن طريق الإستنتاج، بينما ينطلق هزيود وأورفي والأسلاف البابليون الكبار من اللّه، ليكتشفوا بعد ذلك المخلوقات، وفي الظاهر إن الطريقتين متعارضتين كل التعارض، والأولى تبدو على أنها عملية منطقية، بينما تبدو الطريقة الثانية، طريقة البابليين التي ترجع إلى الألف الثانية قبل الميلاد، على أنها غير منطقية، معتمدة على الإعتقاد أي الإلهام كحافز ودافع. على أن أرسطو لم يكن ليبحث عن اللّه لولم يكتشفه

بعد؛ وفلسفته التي تعتبر إشادة رائعة بابتهاج هذا الإكتشاف، شبيهة بهذه الأقيسة الكلاسيكية التي تتضمن النتيجة في صياغة الإفتراض.

إن أرسطو تلميذ المشرق عن طريق أفلاطون وسيعود إلى المشرق في عدة مرات؛ ولا سيما إلى آسوس (Assos) في آسيا الصغرى حيث بقي أكثر من ثلاث سنوات، ثم استقر في لسبوس (Lesbos)، الجزيرة الأورفية، وموطن الأسرار والألغاز الشعرية. وإننا نتساءل لم يعتني العلماء في درس آثار أفلاطون ليكتشفوا فيها أرسطو، كما لوأنّ الأقدميّة معناها مرادف بالضرورة للعلّية. إنّ التأثيرات التي تأثر بها أرسطو ليست كلها أفلاطونية حقا. وقد اضطر هو أيضا إلى الرجوع إلى المنبع، والإنصياع للجو الديني المشترك بين سكان مشرق البحر المتوسط، وهو جو لم يتخلص منه أي فيلسوف من الفلاسفة اليونان. وكل واحد منهم كان له ردّ فعل طبقا لفطرته الخاصة، لكن دون أن يعمد إلى تغيير ملامح الثقافة المصرية الفلسطينية التي تحيط بالأشخاص والأشياء.

ولم لا نحاول السعي للبحث عن كفلاء أرسطو في آسيا بدل اليونان؟ ومثل هذا السؤال هو السؤال الذي يجب طرحه بدون عناء، على من يريدون أن يحصروا التاريخ في السّرة الأوربية ويتركون في الخفاء هذه الفضاءات والبلدان التي جادت لأروبا بنورها. إنّ كليارك دوصول Clearque De Soles من بين هؤلاء الشارحين لأرسطو؛ وقد أخبرنا بأن أرسطو كانت له أثناء مقامه في طرواد (Troade) عدة محادثات فلسفية، مع السوريين؛ والكتاب الخامس من الغيبيات (Métaphysique) يرجع تاريخه إلى فترة إقامته بآسوس، ونلمس فيه إعجابا حارًا بزرادشت. ولكن أرسطو على غرار أفلاطون، لم يكن يحصر نشاطه في تعليم الفلسفة؛ وبصفته الرجل العارف للأشياء، اهتم بالسياسة

وتعاون مع هرمياس (Hermias) جبّار مدينة أتارني (Atarnée) التي كانت لها أحسن العلاقات مع فليب المقدوني؛ حتى أن الإسكندر الشاب استصحب معه في حملته إلى آسيا، أرسطو كمستشار وكدليل. ولما قتل هرمياس بأمر من الحاكم الفارسي بتهمة التآمر على أمن الدولة الداخلي، فإن الفيلسوف المستقر إذاك في بلاط بيلا (Pella) كمرشد للإسكندر؛ هو الذي ألقى رثاءه، فشبّهه بأبطال الأسرار المقدسة هرقلس، و...... (Dioscures) وأجاكس وأخيل (Achille) فماذا كان دوره بالضبط عندما كان الإسكندر في آسيا؟ إننا نجهل ذلك.

وقد بقي في أثينا حيث أسّس مدرسة المشائين، ثم اعتزل في شالسيس (Chalcis) حيث توفي سنة فقط بعد وفاة تلميذه في بابل؟ كانت للفلسفة الأثينية التي أذاعتها الاكاديمي والليسي سمة مزدوجة طبيعية (فيزيائية) وأخلاقية، برزت بوضوح عند خلفاء أرسطو؛ فالبعض منهم قد أكدوا السمة الطبيعية بينما أكد الآخرون السمة الأخلاقية. وقد عنيت المدرسة العربية في ليبيا بقيادة أنتستان (Antisthène) وأرستيب (Eristipe) القرني، بابراز دور الحوّاس واللذة والألم المحددين للسعادة بأنها التوازن بين الأجزاء المختلفة من جهاز بدننا. ومن أنصار هذا التفسير الحسي، ديمقريت والفيلسوف الإيوني أبيقور (Apicure) السّاموسي (De Samos) اللّذان يؤيدان أساسا، العالم الهندسي الكامل والدائم كما يراه برمنيد. لكن بينما كان برمنيد يحصر تحليله، إن أبيقور يتوّسع في درس العناصر المكونة للكون، ويراها في صورة جملة ذرّات لا تتجزأ، وتمثل الواقع الأول المبدئي

وهذه الذّرات تدور وتحوم ولا تكف عن الإجتماع والإفتراق، ناقلة الطبيعة في دورة دائمة من حياة وموت، تتكرر باستمرار، وأفروديت إله

الحب متحكمة في السلوك، كملكة للإنجذاب والتزاوج الذري والإنقطاع بين الأجساد من البداية إلى النهاية. وقد أشاد لوكريس (Lucrèce) الشاعر اللاّتيني، الذي أوضح بطريقة شعرية فكر أبيقور، في أثره (De natura rerum) بكل حماس، بقدرة فينوس التي تنسّق الزواجات وانحلال الأجساد الأثيرية الروحية(. والحكمة المستخلصة من مثل هذه التخيلة، إذ هي تخيلة أكثر مما هي فلسفة بالمعنى الصحيح، حكمة تدعو إلى الرضا والإطمئنان. إنها تحمل الإنسان وتدعوه إلى أن يستسلم لسيل الذرات ولإشعاعها ومن هنا يستحيل عدم التفكير في تشيد أخناتون الذي وضع بتلّ العمارنة وصحرائها المشمسة، أوفي التعبيرات القرآنية وتفسيره مثل "التدويرات" و"الأجزاء التي لا تنفصم".

وإذا قورن الإنسان بالعالم الواقعي والطبيعة التي تنتمي إليها كل خلية من خلايا جسده، فهو بعد صيرورته نباتا، وماء وترابا، لا يتميز في شيء عن المخلوقات التي تحيط به؛ فهولا يملك أي امتياز ولا أية سلطة خاصة، إن التيارات الخلاقة تجتذبه وتحتويه عبر الإنحدارات المتشابكة في نسيج كثيف يتفرع إلى كائنات حيّة أوغير حية، لكنها ناتجة عن بذرة واحدة. وهو يلقي اللّه في كل مكان وسعادته هي بالضبط في أن يبقى في اتجاه هذه التيارات البدائية الإعجازية وذلك لأن كل شيء عند أبيقور، إنما هو معجزة، وكل آن ربيع وشتاء؛ لأن كل لحظة فرصة لتكوين ولتفتت كائن في دم العالم. إن نظرية أبيقور، علاوة على أنها فلسفة أصيلة، إنّها كما يبدو واضحا، تعليق وشرح شعري للنظريات الشاملة المشرقية الكبيرة أي نظريات أفلاطون، وأرسطو التي لا تضيف إليها شيئا. وقد سبق منذ زمن طويل أن تحدثوا باسم

الوثنية (وتعدد الآلهة) في مصر والأناضول وآشور عن الفيوض وعن الجراثيم الكونية المتبادلة التي تتكون منها أجسام جميع الأجناس والأنواع؛ وقد كان غناء أورفي يبعث الحياة في الأحجار وبارتفاعه تتوزع المياه، وتتألف خلايا الموتى لتعيش من جديد.

وفي مقابل المدرسة العربية الليبية التي أحيت الفيزياء الذرية، كانت مدرسة عربية أخرى، هي مدرسة الفلسطيني زينون دوستيوم (Zénon De Citium) الذي كان حوالي سنة 315 ق.م، يسير في قبرص مؤسسة توريد وتصدير. يقول بعض المعلقين إنه يهودي؛ وهذا أمر جائز، ويعتبر زينون مؤسسا للرواقية (Stoisme) وكان خليفته الروحي فلسطيني آخر إسمه كليانطوس (Cléanthos) وهومن مدينة آصوص (Assos) (أو آسوس) المدينة التي تلقى فيها أرسطووحي زرادشت. وخلف كليانطوس شخص سليسي (Cilicien) من طارس (Tarse) وطن سان بول، وهوكرزيب المشهور (Chrysippe) وليست الرواقية شيئا آخر غير إقرار جديد لفلسفة هرقليت "وللمكتوب" في صورة أخلاقية تزدان بشيء من العلم، فالطبيعة والله والقدر والعقل الشامل، هي أربع عبارات مترادفة المعنى.

إن العالم شبه جسد حافل، تحركه النار؛ ويتمثل الإنسان فيه كلبنة مرصوصة ضمن بناء، إن العقل الرباني أوالقدر يقدّر كل شيء بإحكام؛ وحتى الشر إنما هو في الختام عنصر من الخير. إننا نعتبره في نظرنا القاصر شيئا كريها، ولكن الله الذي يشاهد في آن واحد جميع صور الواقع، لا يعتبر الشر إلا وجها باطنيا ضروريا للخير، على غرار الليل الذي يجهل أنه نهار لم يطلع بعد، لهذا يجب أن نتعلم حبّ القدر المحتوم، وإن كان قاسيا لأشخاصنا، لأن هذه القساوة تدخل في طبيعة الأشياء ونظامها.

يجب الإرتفاع عن المصالح وعن الراحة الشخصية لشكر اللّه على كل قرارته؛ هذا واجب الرواقي يجب على الإنسان أن يتكفل بطبيعته وإن يكون على ما هوهو، وأن يخضع لأوامر وقوانين المدينة والعالم (لأن مدينة البشر تعكس مدينة اللّه)، ويستشعر الأخوة ويجود وينتظر بشجاعة القدر ويتلقاه بكل فرح مهما كانت صورته. هذه هي الفلسفة الرواقية. "كل ما يوافقك أيّها العالم يوافقني وكل شيء يكون في الأوان الذي يناسبك، لا إعتبره سابقا لأوانه أومتأخرا عنه. وكل شيء عندي من الثمار التي تجود بها الفصول أيتها الطبيعة، كل شيء من عندك وكل شيء فيك، وكل شيء يؤول إليك"[1]

إن صدى العقيدة الإسلامية ظاهر فورًا في مثل هذا الكلام وهوبالضبط نوع التعبير الذي يناسب هرقيلت الإفيزي (d'Ephèse) إن شاء الله؛ هذه الجملة التي تختصر في عبارات قليلة الرجاء والثقة والإطمئنان سند لعقيدة الرواقيين.

إن الفلسفة اليونانية إنطلقت من المشرق وآلت إلى المشرق، لتسود في مصر وسوريا وفلسطين. وابتداء من القرن الأول المسيحي أحي السوريان ليبانيوس (Libanios) ونومنيوس دابامي (Numénius d'Apamée) فلسفة فيثاغور وأفلاطون وأذاعوها بينما اشتهر في مصر أربعة أسماء في أفق الفلسفة العالمية؛ وهي فيلون اليهودي، وأمونيوس سقاس (Ammonios Sakkas) وفلوطين من أسيوط في النيل الأوسط، وبرفير (Porphyre)، وهذا من غير إدراج أتندور دوكانا (Athénodore de Cana) أستاذ الأمبرطور أغوسط،

1 - Marc Aurèle IV 23 cité par Ch. Werene *la philisophie greque Payot 1962*.

وديوجين البابلي، وأبولودور العراقي السلوقي، من دجلة، وصوصوس Sosos الأسكلوني إلخ.

وأخيرا إن التوراة ولإنجيل قد حرّرا وشرحا باللغة اليونانية، كشاهد على انسجام واستمرار ثقافة كانت عربية في بداياتها، ثم انقلبت عربية إيجية ابتداءً من منتصف الألف الثانية ق.م، وغزت بعد ذلك غربنا (أي أوربا). وإذا وحّدت المسيحية ثم الإسلام في عقيدتيهما التوفيقية العقائد المصرية البابلية والصيغة اليونانية وإذا احتاجت اليهودية والمذاهب الزرادشتية المختلفة إلى اليونانية، فهذا يؤكد بكل وضوح استنتاجنا، أعني أن كل ما هوأساسي في ثقافتنا، إنما نشأ باستمرار في البلاد اليونانية الآرامية لا في غيرها من البلاد، وأن غربنا (أي أوربا) المستهلك الناقل لهذه الثقافة لم يكن هو المبدع لها.

علم الفلك وأسلوب الحياة

الدين والفلسفة والعلم أشياء متماسكة، يساند بعضها بعضا. فكما أنه لا توجد فلسفة بدون أساس، ولا فن من أجل الفن، فكذلك لا علم، لمجرد النظر والتأمل. كل علم مشرقي غايته التطبيق والعمل بمقتضاه، وهو في اتصال متين مع الطبيعة الملموسة الجامدة، ويتناول شؤون السماء والأرض لغايات عملية. وليس في العلوم بما فيها الرياضيات، ما ليس هو عناصر ملموسة لمادة العالم. فالأعداد طاقات فاعلة، و"كميّات ذات طاقة". إن الدائرة مساحة، والخط المستقيم خيط صلب، والقسمة تجزئة؛ ومربّع عدد فضاء مربّع، ومن ذلك أن نظرية فيثاغور مثلا، تلقى على أنها مساحة تعادل مجموع مساحتين أخريين. وكلمة سقراط "لا تدخل إلى هذا المكان إن لم تكن مهندسا، مسّاحا" التي تمنع الجاهل من الخوض في الفلسفة، يجب فهمها بمعناها الضيق الدقيق. إن المشرق يرفض الفوضى، ويطلب النظام في الطبيعة كما يطلبه في الفكر. والإنسان الذي لا نظام له، إنما هو قلب بلا نور، فالعلم هو قبل كل شيء معرفة نظام العالم؛ والبحث العلمي غايته اكتشاف دلائل هذا النظام وتصنيفها للإمتثال لها، لأنّ الأخلاق هي غاية العلم والحكمة سنده.

وقد كان اليونان يعترفون دائما، في مجال العلوم أنهم تلامذة مصر وبابل، وأفاد فلافيوس جوزيف (Flavius joseph) بأن علوم الكلدان انتقلت إلى المصريين بواسطة إبراهيم؛ ومن المصريين انتقلت إلى اليونان". وحسب الأساطير إنّ الاكتشافات الفلكية الكلدانية الأولى، ترجع إلى أربعمائة وسبعين ألف سنة (470) قبل الميلاد.

وذلك لأنّه من المفهوم أن العلم الأول الذي يعرفنا بالقرابة المتينة بين السماء والأرض، الأهلة بالمخلوقات قد كان ولا يزال هوالفلك. المتبوع بسرعة بالتنجيم، وإذا كانت البدايات الأسطورية لنشأة علم الفلك، لا طاقة لنا بقياسها، فإنّ المعلومات المفرقة المستخلصة من التنقيب الأركيولوجي، تفيد بأن سرغون (Sargon) الأول الذي ملك سنة 3800 ق.م قد عمل على تكوين مكتبة فلكية وقد عرفت بابل في ساعة مبكرة، قانون مبادرة الإعتدالين، ودورات خسوف القمر، ومكان الكواكب القارة، والسنة المؤلفة من 365 يوما وربع يوم، وانقسام اليوم إلى فترتين، لكل منهما اثنتا عشرة ساعة، وكان نظام العّد مبنيا على الهندستين المنحنية والخطية، لأنّه كان يوجد علاوة على نظام الحساب العشري أوالإثني عشر، مجموع السّتين، فالدائرة مقسومة إلى 360 درجة، والدرجة مقسومة إلى 60 دقيقة، والدقيقة مقسومة إلى 60 لحظة، ومن ذلك أنّ البابليين اكتشفوا دورة الـ 43200 سنة، التي تمثل في نظرهم يوما من حياة الكون، بينما تمثل سنتنا المؤلفة من 365 يوما، لحظة منها.

إن ستين سنة تمثل لحظة من فترة الدوران الكونية؛ وتمثل 3600 سنة ساعة منها الخ. وقد نقل اليوناني طاليس دوميلات (Thalès de Milet) هذه

المعلومات إلى علم اليونان، فاعتمدها كما اعتمد على فلك المصريين الذي تأسس منذ عصور ما قبل التاريخ. وكانت الروزنامة (اليومية) الفرعونية كالروزنامة الكلدانية قمرية وشمسية، تجمع بالتقريب معلومات حركة الكرة الأرضية في 365 يوما، والمراحل القمرية في 29 يوما، وكانت الفصول المصرية ثلاثة فصول لكل فصل أربعة أشهر؛ لكل شهر ثلاثون يوما. كان الربيع عندهم يبدأ في إبريل بظهور نجمة سريوس (Sirius) التي كانت تسمى عند المصريين كما أخبر بلوتارك (Plutarque) سوتيس (Sothis) وتسمى عند اليونان "النجمة الملتهبة" أوالوهاجة (Seirios Aster) ونظرا لفوارق طلوع نجمة سريوس، يجب انتظار 1460 سنة ليتم طلوع هذه النجمة ومصادفته لطلوع الشمس؛ وتسمى هذه الفترة بفترة "الكلب" أوالشعرانية القائظة عند الرومان. ويتردّد ذكرها باستمرار في تواريخ القصص البطولية.

ويلاحظ أن اليونان وكذلك الرومان لم يعوا قط كما ينبغي علم الفلك المصري البابلي، وأن العرب كانوا ورثة العارفين في عهد الدولتين البيزنطية والإسلامية. ولم يملك اليونان قط مرصدًا فلكيا، كما أنّه لم يكن لروما مرصد، بينما كانت البلدان العربية من النيل إلى الأندوس مجهّزة بها. كانت اليوميات (الروزنامات) اليونانية الرومانية غير سليمة حتى صحّحت في عهد قيصر.

كانت منقولة بصورة غير سليمة من الألواح الفلكية المشرقية، وكانت تحت تأثير السلطات السياسية، وتعوّض في الغالب بجداول تجريبية شعبية تختلف باختلاف الجهات والمهن، وعندما لاحظ جول سيزار (Jules Cesar)

بوليوس قيصر) أن هذه الفوضى التارخية يمكن أن تهدد إدارة الأمبرطورية تهديدًا خطيرا، في حين اتساع صلاتها إلى سائر بلاد المشرق، تحتم عليه فرض يومية ذات قيمة علمية وعالمية.

وقد كلف سوسيجنس (Sosigenèse) وهو عربي من الإسكندرية باصلاح التقويم الرّوماني (المناخ). وفي سنة 46 ق.م فرض سوسيجنس أنه ابتداء من سنة 45 ق.م يكون في كل أربع سنوات يومان بعنوان 24 فبراير، ويدعى اليوم الثاني باللاتينية (Dies bisextus anté kalendas) وذلك امتثالا لحساب السنة الفلكية التي تتألف من 365 يومًا وربع يوم. ومن ذلك العهد سميت السنوات التي تتألف من 366 يوما بالسنوات الكبيسة (Bissextiles) فهذه اليومية التي دعيت بيومية جوليان (Julien)، ينبغي أن تسمى يومية "الإسكندرية". وأحسن دليل على جهل الغرب (أوربا) في ميدان الفلك، هو ما اقترفه خلفاء قيصر من تجاوز في تطبيق السنة الكبيسة، وذلك إلى درجة أنه كان لا بدّ من إجراء ضبط جديد.

ففي 24 فبراير 1582 قرر البابا غرغوار الثالث عشر في وثيقة باباوية (Bulle gravissimas) وبإعانة من رياضيّين عرب، إعادة ترتيب الأيام، وصادق على ما يسمى باليومية الغرغوارية، وعلى كونها وافية محكمة، إنها يومية نظرية ولا تعطينا إلا فكرة مجرّدة عن الوقت. وقد كانت الحضارات المشرقية في العصور القديمة، تستخدم لحساب الوقت الحقيقي، طرقا أخرى أكثر دقة نسيها علمنا، ولكنها لا تزال جارية في عادات الشعوب وتقاليدها.

وقد كان الفلسطينيون يستعملون يومية بحرية بينما كان اليمنيون وشعوب الخليج العربي الفارسي يستعملون يومية الثريا (البلياد)

(Pleiades) التي انتقلت إلى بدوالصحراء حتى سواحل موريتانيا. وهي يومية عجيبة سجلت فيها مواعيد الأمطار والأنداء، ومبدأ السنة فيها هوطلوع الثريا مع الشمس، وتمتدّ على 364 يومًا تقريبا (13 × 28 دورة قمرية) حسب ما ذكر لوي ماينيون (L. Massignon) وتوجد أيضا يوميّات سرية خاصة بالقساوسة وسجلت بها الأعداد الخالصة بكل وضوح لخطورتها على الإنسانية.

وقد استخلصت منها روما قائمة الأيام التي يجوز فيها العمل والأيام التي لا يجوز الإهتمام فيها بالأمور العامة. هذا ولا نملك معلومات مؤكدة تسمح لنا بأن نقول إن لليونان والرومان أيامًا معينة للراحة، باستثناء أيام الأعّياد. أما السوريون البابليون فالظاهر فيما يخصهم، أنهم كانوا يعرفون الأسبوع الذي يتألف من سبعة أيام وأن لهم يوما مخصصا للراحة المطلقة. وإذا حوّلوا إلى جيرانهم في الغرب المزولة (الساعة الشمسية) والساعة المائية (Clepsydre) والمزولة الشمسية (Le gnomon) فإنهم احتفظوا باحتكار الاصطرلاب؛ وبالبوصلة بغير تحقيق. ومن المحقق أن الأوربيين في القرون الوسطى الوارثين بصفة مباشرة للعلم اليوناني الروماني، قد دهشوا عندما اكتشفوا عند العرب آلات فلكية وأجهزة للملاحة البحرية، لم يكونوا يعرفونها. وقد ظنوا أن العرب اكتشفوها منذ زمن قليل، ولم يفكروا أنهم كانوا يحافظون على سرها منذ زمن بعيد. فاليونان لم يحصّلوا في الواقع إلا على بعض العلم الرياضي والفلكي المنتشر في المشرق منذ آلاف السنين. إنّهم لم يكونوا يملكون المدارس ولا العلماء ولم تكن لهم طاقات إقتصادية كافية ليدخلوا إلى مجتمعهم نظاما علميا لا يتناسب مع أبعادهم ولا مع معرفتهم، وقد كانوا معجبين بسعة العالم المشرقي، وكانوا يقفون أمامه كتلامذة أمام المعلّم؛ كانوا عاجزين عن نقل جميع الميراث المشرقي؛ وإنما العرب هم الذين قاموا بهذه المهمة.

إن الرياضيات التي كان اليونان مغرمين بها إلى حد كبير دون أن يكونوا خبراء فيها، قد تفرعت عن الفلك وعن المسح للأراضي، وعن ضرورة تحديد نظام للوزن والقيس، إننا لا نملك أي مصنف هندسي أورياضي مصري بابلي يرجع إلى العصور القديمة باستثناء بعض أوراق البردي قيّدت فيها معلومات مدرسية. ولكن الإنجازات الجبارة من أهرام وهياكل الكرنك أونينو، تدل على التحكم الدقيق في الحساب والفضاء ذي الأبعاد الثلاثة. وبالإضافة إلى ذلك إنّ العمل على وضع علاقة بين الخطّ المستقيم والخطّ المنحني، وبين الشكل المغلق والسماء المفتوحة، وبين المدة والموقّت، قد أدخلت في الرياضيات النيلية مبدأ الوظيفة الدّورية وحتى الوظيفة المتسامية التي تفترض ديناميكية ذات عدة أبعاد، ولا تفترض ميكانيكة جوامد فقط، وقد اتجه سبنجلر (Spengler) مع الأسف في فصله عن معنى الأعداد[1] بالرغم من نظرته غير التقليدية عن المشرق، إلى تحليل يغلو في الجمالية، ويشيد بمكانة اليونان، فهو يميز بكل تحكم بين الجبر العربي (الذي نشأ على ما أفاد في القرن الرابع بـ.م) وحساب المثلثات الهندي وميكانيكة العصور القديمة؛ في حين كما هو ظاهر واضح، أن الأعداد المركّبة اللوغريتمية، التي لا تعتمد في تصور التماثيل فقط، بل وتدخل حتى في الألغاز العددية العربية المصرية البابلية السابقة بكثير للقرن الرابع الميلادي، تسوقنا إلى حكم أقل بساطة وسهولة.

إن سبنجلير يتصور فكر الإنسان تصورا تاريخيا أي متطورا، ويقيم لذلك جملة من الحدود بعضها حدود ترابية، وأخرى تاريخية، ثم يتجاوزها ويقفز

1 - Osval Spengler : *Le déclin de l'occident* Gallimard 1948. Traduction : M. Tazerout.

من فوقها، إنه لا يريد أولا يقبل أن تكون البنية العقلية لدى المصري الآشوري شبيهة لبنيتنا العقلية، والحال إنها كذلك.

إن المعادلة ذات المجهولات المتعددة كانت معروفة لدى من بنوا الأهرام كما نعرفها نحن. وكانوا على غرارنا قادرين على إدراج ما ليس معقولا في صيغة المعقول، إن الظروف المختلفة قد أدت إلى ضياع مؤلفات الرياضيات السامية، وعدم العثور عليها في الآثار الأركيولوجية النيلية البابلية. ومن هذه الظروف ظرف يستدعي انتباهنا، لأنّ له مساسًا بالأخلاق العلمية؛ إنّ المصريين والبابليين كانوا يعتبرون هذه الرياضيات خطيرة لأن المتخصصين فيها قد قدروا ما كان لها من قوة حقيقية. ولهذا كانوا يحتفظون بها كسرّ من الأسرار، إنّ الإنجازات الجبارة من البناءات والتقنيات التي لا تزال تستثير دهشتنا ونشاهدها اليوم، تدل على كل حال على ما انتهوا إليه من الإكتشافات في مجال الوظائف والأعداد التخيلية. وفي باب أكثر تواضعا، لقد تم في مصر تحديد العلامات التي تعيّن الأرقام من واحد إلى تسعة والتي تقيد بها الأعداد. وقد أخذها الفلسطينيون عن المصريين وآلت هذه الطريقة إلينا باسم "الأرقام العربية". وقد كان اليونان يستعملون فيما يخصهم لتحديد الأرقام، الحروف الأربعة والعشرين التي تتألف منها أبجديتهم بترتيبها، وأخذوا عن الفلسطينيين ثلاثة أرقام على الأقل؛ رقم ستة (Episemon) والكوبا (Koppa) وقيمته تسعون، وهوالكوف (Coph) المصري الفلسطيني، والسان ب (San-pi) الذي يمثل تسعمائة وهو السين المصري الفلسطيني بالضبط، إن أغلب وحدات الموازين في أثينا واسبارطة أوسيراكوز، إنما هي مأخوذة عن البابليين أوالفلسطينيين

الذين كانوا يستخدمون منذ زمن بعيد، موازين ومواكيل عثرنا عليها بعد ذلك في روما، وفي المقاطعات التابعة لحكمها.

وقد احتفظ بعضها بتسميتها العربية الظاهرة، مثل هامة (Hamma) لقياس المساحة وقدرها ستون قدمًا؛ ومين (Mine) (؟) وتساوي 620 غرامًا؛ ودراكمة وأبولوس (Abolos) وتلانطون (Talanton) (Talent)، وقد حصلت الهيلاد (l'Hellade) على هذه الوحدات عن طريق إيجين ولوبي (L'Eubie) ولكن صولون الأثيني وضع قواعد استخدمها بعد رجوعه من مصر.

ويجب أن نعتقد بأن ذلك لم يكن إلا نقلا وتكييفا غير مطابق لما كان يجري في المشرق، إذ ظهرت في القرن الثالث ق.م، في عهد البطالسة الحاجة إلى دقة أكبر؛ وصدر تشريع فرض على جميع بلاد الهلاد (l'Hellade) العمل بالنظام الساري في مصر، وبعد ذلك صارت الوحدات المصرية مطبقة تدريجيا وبفضل نشاط التجار اليونان في جميع بلدان البحر المتوسط وفيما وراءها من البلاد.

بناء على هذا، لا تجوز المبالغة في تقدير علم الرياضيات اليوناني. والحقيقة تفرض علينا أن نقول إن الرياضيات اليونانية التي انتهى إلينا إسمها، رياضيات عربية كلها بدون استثناء. كانت لغتها العلّمية هي اليونانية، ولكن نسبها يرجع إلى مصر أوإلى آسيا الصغرى. وكما سنوضح ذلك فيما بعد، كانت الإسكندرية المركز الأكبر للرياضيات في العصور القديمة. وقد ورثت تجربة طيبة وصور وسارد وبابل، وكان أوكليد وديوفانت مصريين. هذا ولم تخبرنا حوليات أثينا وكورنث والبوليبونيز (Peloponnèse) أوبيوتيا (Béotie) بذكرى أي رياضي أوأي رجل من رجال العلم، ومن الغريب أن هذا القصور لم يلفت قط الإنتباه، نظرا إلى أننا

مبهورون بالفن والفلسفة والمثل اليونانية ... وقد نشأت علوم الحيوان والنبات والمعادن التي أعجب بها أرسطو وبلين الأول (Pline)، في بلاد ما بين النهرين، حيث تم منذ الألف قبل الميلاد تصنيف وتقييد عوالم الكائنات بكل دقة. وكذلك الأمر بخصوص اكتشاف التشريح.

إننا نتساءل من أيّ مكان أمكن أن تصدر فكرة تحريم دراسة جسد الإنسان وتشريحه في المشرق. إنها فكرة خاطئة؛ إننا لم نعثر على أثر لهذا التحريم في أي مكان. وعلى العكس من ذلك، إننا نعرف بالتفصيل العمليات الدقيقة التي كان يقوم بها القساوس الأطباء في الحثث قبل تحنيطها. ونملك إلى ذلك ألواحا تشريحية وتصويرا للأعضاء بالحديد أو بالحجر. ومعلوم أن فن التوليد (القبالة) وقطع الأعضاء وثقب العظم تفرض بالضرورة معرفة عميقة لوظائف الأعضاء. ولم يكن بقراط (Hippocrate) يخفي ما كان تلقاه من التعليم في مصر. ولنقرأ الفقرات المحفوظة من آثاره. إن الطب العربي الذي فرض نفسه على أوربا حتى القرن الثامن عشر، لم ينشأ في عصر الخلفاء؛ ولم يكن كذلك نقلاً وتقليدا للطب اليوناني؛ بل إنّه نتيجة طبيعية توارثتها الأجيال عن الممارسة وعلم التشريح المطبقين منذ زمن طويل على ضفاف النيل والفرات.

ولماذا نتوسع في استعراض القائمة الطويلة من التقنيات في العصور العربية القديمة؟

إن مصر وفلسطين وفريجيا (Phrygie) وبلاد ما بين النهرين كان لها امتياز في خمسة مجالات على الأقل، وقد فرضت فيها عبقرية تكنولوجية لم نبلغ مستواها حتى في يومنا. وهي صناعة التعدين والصياغة والزجاج وتفصيل الحجر، والنسيج. وكان عمل البرونز من اختصاصات [illegible] طين

كما تدل على ذلك التنقيبات التي وقعت في قيزر (Guezer)، وهومعروف الإتقان منذ منتصف الألف الثالثة؛ وقد عرف استخدام الحديد قبل اليونان إذ جرى الإنتفاع به منذ نهاية الألف الثانية (ق.م) واستغلت مناجم سيناء ولبنان والمناطق الأردنية والقوقاز استغلالا منتظما. وكانت مدن طيبة وصور وسارد وإليون ونينوى مشهورة بما كانت تصنعه في ورش الأسلحة. فالسيوف والخناجر والتروس والدروع التي عثر عليها في ميسان (Mycènes) بقبرص أوفي اقريط، إنما هي نسخ طبق الأصل للأسلحة المصرية الأسيوية، إن لم تكن مجلوبة مباشرة منها. ولكن ألا يجب البحث عن أصل صناعة الحديدوالفولاذ في آشور؟ يرى ذلك الكثير من النّاس ويعتبرون مصنوعات الفولاذ الدمشقي ثم طليطلة (إسبانيا) التي كانت مشهورة في القرون الوسطى، من نتيجة طرق الصناعة القديمة الموروثة عن الحدادين البابليين. وقد اكتشفت آلات وزخرفات حديدية بما لا يحصيه العد في أراضي بلاد ما بين النهرين؛ وأخبرنا غسطاف لوبون في كتابه "الحضارات الأولى" نقلا عن ديودور الصقلي، بأن الأحجار التي كانت عمادًا لإحدى قناطر بابل، على نهر الفرات، كانت مجموعة بمخالب حديدية وأن مفاصلها كانت مرصوصة بالرصاص المذّوب. وما نقول عن الحلي والمصوغات؛ إن صناعة الحلي في آشور لا تماثلها إلا الصناعة المصرية، وقد انتقلت إلى دمشق، ثم إلى الفزيقوت (Wisigots) باسبانيا، لا عن طريق "الغزو العربي" كما نتوهم، لكن عن طريق التجار والمسافرين الفلسطينيين قبل القرن الثامن الميلادي.

ومن المستظرفات الرائعة في الفن المصري والآشوري استخدام الذهب والفضة خالصين بدون أي مزج بمعدن آخر واكتسابه مع ذلك درجة من

القوة والصلابة بطرق لا نعرفها إلى اليوم. وكان أصحاب البنوك من أوربا ومن جنوة (إيطاليا) خاصة، حتى القرن الرابع عشر، يطلبون من صاغة دمشق تحويل الذهب الخام وصياغته. وقد ترك توتعنك آمون والملكة أهوتبو(Ahotpou) والأمير خموازيت (Khamoisit) كنوزا من الحلي تدعوإلى إعظام الصاغة الذين صنعوها. ولم يصل اليونان ولا الرومان في أي عهد من عهود تاريخهم إلى مثل هذه التقنية الرفيعة، وكان العصر الذهبي في الحدادة والتعدين والمصوغات اليونانية هوعصر الفترة الإيجية بميسان (Myceine) اكنوصوص (Cnossos) أوقبرص، عندما كانت هذه البلدان مستعمرات مصرية فلسطينية، حقا كان لليونان فن كبير في التذويب والسباكة سمح بصياغة صور فرسان كبيرة بالبرونز (فلز) أحكمت مقاساتها في روما وفي بيزنطة. ولكن صاموس (Samos) الأسيوية لا اليونان القارية كانت تجتذب أكبر المحترفين المشهورين. ولم يظهر سباكون ماهرون في إيطاليا إلاّ في عهد النهضة ولا نعرف من أين أمكن لهم أن يأخذوا النماذج والإرشادات وطرق العمل من غير الوثائق الأسيوية المترجمة إلى اليونانية أواللاتينية.

إن صناعة الزجاج والطلاء البسيط أوالمحصور والأحجار المقلدة وعجين الزجاج المعدّن أوالمحبوك وصناعة القوارير والزجاجات واللآلِي المقلدة وجميع الفنون النارية. كانت قديمة في المشرق قدم العالم؛ ولا يزال أصحاب الصناعات المصريون والفلسطينيون والسوريون والعراقيون يقترحون على السياح في القرن العشرين مصنوعات تذكر بأشكالها ومادتها وزينتها، ما يكتشفه الأركيولوجيون من مصنوعات ومصوغات في مدافن غيزر (Guezer) وأور (Ur) وسمراء، وسقارة ولبتيس مانيا (Leptis Magna)

وفوليبليس (Volubilis)، إنها استمرارية مدهشة. وقد اكتشفت في مدن بومبيي (Pompei) وفي المدن اليونانية من سيراكوز (Cyracuse) وكورنث مصنوعات زجاجية كثيرة وأدوات تزيين من صناعة و"مركات" ورش أسيوية في الغالب.

وكانت المصنوعات الخزفية واللبن الملبس أوالمجمد التي تخرج من الأفران المصرية أوالبابلية محكمة إلى درجة أنها تعتبر من فن الصياغة. إن نوعيات الطين المستعملة والكيمياء الدقيقة في أخلاط الأكسيدات (Oxydes) الصناعية المشتقة من النحاس والحديد، والقصدير والكوبالت (Cobalt) لم يتحكم فيها الصناع اليونان ولم يملكوا أسرار هذا الفن العسير، وقد أمكن لهذا الفن أن يتطور فيما بعد، بعد زمن طويل في روما الأمبريالية كما تطور فن الفسيفساء الذي اكتشفت مصر دقته في العصور القديمة. وأعرب ديودور الصقلي عن إعجابه أمام جدران أكتبان (Ectabane) المكسوة بالخزف الملّون المقسم إلى رسوم هندسية. لم يزل المشرق العربي يتوارث قرنا بعد قرن حب الأواني الخزفية أوالخزف اللامع الذي يعتبر من مفاخر العباسيين.

إن للعرب في عصرنا موهبة ومقدرة حقيقية في مجال الطرز والنسج والزرابي، ترجع إلى تقاليد متوارثة منذ آلاف السنين، وهم مع الصينيين من الفنانين الذين لا يبارون. وقد اعترف اليونان والرومان بسيادتهم في هذا المجال؛ وكل نصوص الأدب الكلاسيكي تشيد بجمال المنسوجات الفلسطينية وأرجوان صور، وكتان مصر المطروز، أوالنقاب (الستور) الأشوري الذي احتفظت الموصل باحتكار صناعته مدة طويلة. فجميع ما كان أغنياء الرومان واليونان يستعملونه من الأقمشة والأثواب الخفيفة والزرابي والمقصبات كان مجلوبا من المشرق وخاصة من فلسطين. إن الورش الفلسطينية والسورية المتخصصة في الديباج (البروكار)، هي التي اخترعت وحافظت على ما يسمى بالبطرشيل

(Etoles) والقمصان البيض (Aubes) وحلة القداس (Chasubles) والتيجان الأسقفية والظّلل (Dais) والمراوح (Eventails) وغيرها من المظاهر الفخمة التي تزيّا بها رجال الكنيسة في بيزنطة أوروما.

إننا نعرف أن الخلفاء العباسيين قد كونوا ورشا حكومية أنتجت الأقمشة التي اثارت إعجاب الصليبيين. ونظيف إلى كل هذه الأشياء فن العطورات والأثاث المنزلي والسروج وطرق الزراعة (الجنان خاصة) وطرق الري، إذاك نكتشف عبر ظلمات التاريخ وكليشهات التعليم الجامعي المحرف الضال، ما كان يغمر العالم العربي من النور الباهر قبل أن تكون أثينا ومن المضحك أن المستشرقين عندنا أثنوا على العرب وشكروهم على أنهم نقلوا لنا علوم اليونان وتقنياتهم، بعد أن ترجموا لنا نصوصهم الدينية أوالفلسفية. ونراهن على أنه لا بد من فترة جيل لمحو هذا الخطأ من علمائنا.

والسياسة أيضا من العلم ومن المحقق أن المصريين والآشوريين الذين كانت لهم تشريعات وقوانين كتشريع حمّورابي وبوكشوريس (Bocchoris) كانوا أساتذة للمجتمع اليوناني الروماني، وبالتالي لمجتمعنا. فالفقهاء الرومان لم يفعلوا شيئا سوى أنهم ترجموا وكيّفوا الوثائق العديدة من عقود ونصوص قانونية، ورثوها من مصر والكلدان. والعربي رجل قانوني بفطرته؛ ويجيد الإمعان في الإحتجاج والإهتمام بالترتيبات التنظيمية. وسواء فيما يتعلق بالقانون الدستوري أوالعقوبات، أو القانون الخاص أو القانون الدولي، فإن القوانين المصرية دليل على حضارة بلغت أوجها. ويفترض نفوذها سبق تجربة لها ترجع إلى ما قبل التاريخ واستمرارها بصورة مدهشة. وقد كانت هذه القوانين المصرية ذائعة سائدة في منطقة البحر المتوسط.

إن فكرة الدولة كهيكل دائم، ذي سلطان مطلق وسيادة إلهية، قائم بقانون ملكي أووراثي يعتبر كيانا مطلقا يسود النّاس، إنما هي فكرة نشأت على ضفاف النيل، باعتبار أن الدولة هي صاحبة السيادة والوصية على العباد. إننا نعرف ما كانت تدين به الأمبرطورية الرومانية لمصر وللرحلة التي قام بها يوليوس قيصر إليها؛ إنّه يدين لها بأسس سلطتها و استقرارها، إن الملكية "كحق إلهي" استوحت منه صرامة سلطتها الأبوية، كما أن الإسكندر قلد النموذجين الفارسي والمصري ليحول الديمقراطية اليونانية إلى دولة أمبرطورية شبيهة بدولة الفراعنة. ولم يكن الإسكندر في الواقع إلا فرعونا يونانيا، لأنه كان شديد التأثر بالروح القانونية الدولية المصرية، على غرار أستاذه أرسطو.

ومن قواعد القانون المدني والجنائي أن العدالة (أي القضاء) في مصر من اختصاص الدولة؛ فهي التي تملك حق الحكم والتبرئة وتحويل مضمون الأحكام والعفو، ففي العصور التي كان لا يزال يجري فيها العمل في عدة بلدان بقانون الذّحل وشريعة القصاص، والمحاكمة بالتعذيب (Ordalie) ومبدأ الإنتقامات والثأر العائلي والعقاب المعجل المدعوم بحق الإنتقام الشخصي، كان المبدأ العام القاضي بتسوية النزاعات، يمثل تقدما كبيرا، كان القانون المصري محررا وجوبا ولكل مدينة نسخة منه؛ ولم يكن القضاة يصدرون الأحكام وفقا لنزعاتهم وميولهم، لأن الفرعون هو الكفيل بالعدالة، وللمتقاضين أن يتوجّهوا إليه.

وقد اختصر لنا ديودور الصقلي بكل دقة القانونين المدني والإجرامي في مصر الفرعونية، فأخبرنا بوجود هيئة محلّفين (Jury) ومحامين ومحاكم استئناف، وأن الشهادات والتهم والأحكام كانت مصدقة بالتسجيل والتقييد.

إن المصريين القدماء يكتبون كثيرا وكانت الوثائق من الورق بالحجم الذي نعرفه في الإدارات العصرية. فحضارة الكاغد ليست على هذا من مخترعات القرن العشرين، وكانت مبادئ العقود الخاصة أوالمبرمة مع الدولة مضبوطة بكل دقة؛ كما أن عقود الموثقين تثبت أي عملية مالية أوعقارية أورهنية أوزواج، وكما فعل يوستنيان (Justinien) في القرن السادس الميلادي، إذ دوّن ما يجري به العمل والعادات والنصوص القانونية في الأمبرطورية، فإن الفرعون بوكشوريس (Bocchoris) من الأسرة الرابعة والعشرين، صحّح جميع القوانين المدنية ولاءمها مع عصره، ومن ثم وابتداء من هذا العهد، توفر لليونان مجموع متناسق من القوانين استمدت منه أنظمتها المدنية والحضارية. ومن العجيب أن كتبنا المدرسية مصرة على اعتبار المدنية اليونانية، ناشئة من عدم، نابعة باعجاز من العبقرية اليونانية، ولا تشير أبدا إلى أصولها القانونية، الظاهرة الواضحة.

وأعجب من ذلك بكثير، أن أغلب المؤرخين يتحدثون عن استيلاء اليونان على المشرق في حين أن الطاقة الإقتصادية بالمدن اليونانية كانت بالمقارنة إلى قدرات الإمبرطوريتين المصرية والبابلية، شبيهة بطاقة إمارة أندور (Andorre) أمام الولايات المتحدة الأمريكية. إنّ اليونان وكل واحد يعرف ذلك ذات تربة فقيرة عاجزة على تموين وغذاء عدد محدود من السكان، مجبرين على انتظار ما يزودون به من قمح ليبيا ومصر أو اسكيتي (Scythie). وهي في حاجة إلى الخشب لمراكبها، وإلى الكتان لأثوابها وإلى الجلود وإلى المراعي والمروج لخيولها وأبقارها. واليونان بلاد لا تملك لا مناجم القصدير ولا مناجم الذهب والحديد والفحم. وكان النحاس يستخرج في قبرص التابعة للدولة البابلية، والمعدن الصناعي

الوحيد إنما يوجد في أطراقيا (Thrace) التي كانت تستغل فيها بعض العروق من الفضة، وخاصة في الأتيك (Attique) حيث اكتشف في بداية القرن الخامس (ق.م) في أقصى جنوب البلاد على ربوات لوريون، نتوء من الرصّاص الفضي، يدرّ على دولة أثينا حسب السنوات، نحو ثلاثة أطنان ونصف طن من الفضة (نحو مائة طالان Talents) وهذه المدينة هي المدينة الصناعية الوحيدة في اليونان في العصور القديمة، وكان يعمل بها بضعة آلاف من العبيد ولا يزال يجري استغلال هذا المنجم.

فماذا كان وزن اليونان الفقيرة أمام الإقتصاد الزراعي العظيم في مصر وفي بلاد ما بين النهرين؟ وأمام المنظمات الصناعية والبحرية والمالية القائمة في بلاد المشرق بملايين العمال والمهندسين والعلماء، المسيرة من طرف أجهزة مركزية حكومية منذ عهد بعيد؟ ما كانت قيمة مجتمع في نظر العلاقات الدولية، والحال أن الذهب كان به نادرا إلى درجة أن قدرته الشرائية في القرن السادس ق.م كبيرة بحيث أن الثور كان يساوي بها (أي اليونان) عشر فرنكات جديدة؟ فالثروة لم يكن لها من مصدر وحيد إلا أرض قاحلة.

إن الطريقة التي صنف بها قانون الضرائب سكان البلاد دليل كاف على فقرهم، فالطبقة الأولى، وهي الغنية تضم الملاكين الذين يحصّلون خمسمائة صاع من القمح (أي نحو600 ديكالتر تقريبا)، والطبقة الثانية هي طبقة الفلاحين القادرين على امتلاك حصان؛ أما الطبقة الثالثة فهي التي تملك زوجا من الثيران، والطبقة الأخيرة هي التي يرتزق أفرادها بالعمل للغير. كل هذا لا يمثل شيئا بالمقارنة إلى الموارد الضخمة في بلاد المشرق التي اختزن الناس فيها الذهب والفضة والأحجار الكريمة في

صورة سبائك وتماثيل آلهة وكنوز حكومية أوكنوز هياكل ومعابد؛ وكل ذلك يمثل تغطية مالية تفوق قيمتها الخيال.

ولنذكر فقط أنه بعد نهب قصر أكتبان (Ectabane) الذي قام به المقدونيون، بقي من العين (المعذن الثمين) ما أتاح للجنرال أنتغنوس (Antigonos) وللجنرال سلوكوس (Sélencos) استخلاص مائة وأربعين طنا (4000 طالان)[1]. فما كانت إذن الثروات الوهمية التي كانت في هياكل الأقصر والكرنك، وممفيس، وآبيدوس وأدفو، وفيلاي، وأبوسمبل والعمارنة والإسكندرية إلخ ... إلخ؛ والمدن المقدسة، سيلنونت (Selinonte) وأفيز، وميلات، وصارد وصور وبابل ونينوى وسوز وطروادة. إن مثل هذا التعداد الطويل يؤدي بنا إلى تصور هائل خارق لثروات هذه المدن.

وفي الحقيقة إن بلاد اليونان كانت بالمقارنة هي الإسكافي الذي قصد إلى الثرى لطلب جداه كما تقول قصة الأمثال. إنها لم تعرف التعامل بالنقود إلاّ في عهد متأخر مع كون هذه النقود مشرقية. وقد ظهرت النقود أولا في بلاد بابل وفي ليديا، وكانت مزيجا من الذهب والفضة يدعى الكترون (Eléctron) وقد أصدر كرزوس بعد ذلك القطع الذهبية الأولى، ووسّع دارا التعامل بها، وزودت اليونان وصقلية ومصر وإيطاليا في الواقع خلال قرون، بالستاتير (Statères) (وقيمتها دينار ذهبي أوعشرون درهما فضيا). وبالدينارات الفارسية القديمة، (Dariques) الذهبية المصنوعة في المشرق بضمان من ملك الفرس. ومعنى ذلك أن النقود الأسيوية ترهن وحدها لا غير، مقابل الثروات الحقيقية. فالمدن الأوربية لا تملك الغطاء الإقتصادي الضروري وبالإضافة إلى ذلك لم تكن تتمتع بالإستقرار والدوام ولا

---

1 - F. Altheim, *Alexandre et l'Asie*, Payot, Paris 1954.

بالقدرات السياسية والعسكرية اللازمة لتوحي بالثقة، خلافا للعواصم المشرقية التي كانت تتمتع بضمان من الأموال الناطقة الناض منذ فجر البشرية. لأن تكون وتبقى اليونان الفقيرة الخالية من السكان تقريبا، معتبرة كسيّدة الحضارة ومصير منطقة البحر المتوسط بفضل دعوى ديمقراطيتها فقط هذا مما يحمل على إلقاء عدة أسئلة، فيما يتعلق بمبدئنا الكرتزياني (Cartesianisme) أوبالأحرى فيما يتعلق بعقم فكرنا السديد. وقد عرفنا كيف انقلبت بريطانيا في القرن الثامن عشر دولة عالمية قادرة على التدخل في جميع القارات، بعد استيلائها على الكنوز التي اختزنتها الهند خلال أجيال عديدة. وقد أتيح لها بعد ذلك التمتع بنقد وعملة قوية وانتفعت من الجهود التي بذلت خلال تاريخ الهند؛ وكذلك سنرى أثينا ثم الأمبرطورية الرومانية المتواضعتين في أصلهما، تكتسبان فجأة هذه الفخامة التي عرفناها بمجرد أن أتيحت لهما موارد المشرق العربي. وقد نقل الذهب والأحجار الكريمة والعاج عن طريق البحر، وفي قوافل متوالية، من المخازن الأثيوبية، والسودانية ومن ساحل العاج والسواحل الغينية والسنغالية، والنيجرية إلى طيبة وصور وبيزنطة. وسلك الذهب الأسيوي طريق بابل، حيث يبتاعه أصحاب المصارف ويحولونه إلى سفتجات (Billets à ordre) وإلى نقد وسبائك ومصوغات، تعتمد كضمانات في المعاملات، ولم يكن يصل من ذلك إلا الفتات إلى المدن التجارية اليونانية، بل يمكن أن نقول إن المشرق استولى بسرعة على اليونان بنفوذه، وانقلبت إلى إحدى مقاطعاته الخاضعة بالتوالي لرؤوس الأموال الإفريقية الأسيوية التي جعلت المدن اليونانية تتناحر بما يجري بينها من تنافس فتاك. إنّ دور البنوك الحاسم في أيامنا في حياة

الشعوب السياسية والإجتماعية لم يكن أقل أثرا في العصور القديمة البعيدة. ونحيل القارئ في هذا المجال على ثلاثة كتب قديمة لكنها ظاهرة الفائدة؛ وهي :

- البنوك وأصحاب البنوك في مصر العصور القديمة (1928)[1].
ومراحل الرأسمالية من حمورابي إلى روكفلير (1938)[2].
- والبنوك وأصحاب البنوك من بابل إلى وولستريت (1940)[3].

ومفهوم أنّه في مثل هذه الأحوال لا يمكن تصّور قيام نزاع أبدا بين الولاية الصغيرة اليونانية، وبين الدولة الفارسية أوالمصرية العظيمتين. وخلافا لكل ذلك، فإن التاريخ الكلاسيكي كما نتلقاه في المدرسة، يعلّمنا لا أن اليونان لم تقم بحرب ضد آسيا فقط، بل أنها انتصرت عليها أيضا. إنها من خوارق الحكايات على أن هردوت ودمستان، وتوسيديد (Thucydide) وأريان (Aurien) وبلوتارك، يرون الأشياء فيما يخصهم رأيا آخر، وعلى كل يجب بعد كل حساب الرجوع اليهم وإلى الوثائق الجدّية القليلة المتوفرة لدينا، لإلقاء ضوء على الحروب الميدية [4] المزعومة وعلى حكاية فتوحات الإسكندر.

---

1 - J. Duvernois, *Banques et banquiers dans l'Egypte Ancienne* (1928).
2 - Laffon Montels, *Les Etapes du capitalisme de Ham moyrabi à Rock feller* (1938).
3 - A. Colling, *Banques et Banquiers de Babylone à Wall Street* (Plan 1940).
4 - Guerre Médiques, Les mèdes sont un peuple ancien de l'Iran qui constitua au 7eme siecle A.J un empire ayant pour capitale Eclabane.



الملك الآرامي الكبير[1]

عندما استقر سارا (Cyrus) في بابل سنة 533 ق.م، وبعد أن فرض ابنه قمبير شبه حمايته على مصر، ابتداءً من سنة 525 (ق.م) بالتقريب، كما يجب توضيحه، انتصبت الأسرة الأخمينية (Achéménide) في هذه المناطق كوارثة لثقافة مشتركة بين جميع بلدان المشرق، وبصفة حامية للحضارة الآرامية، لا كعدوة لها. وبما أنه وقع منذ زمن طويل، تحول ثقافي من آسيا إلى اليونان، عن طريق فلسطين وبحر إيجي، فمن الواضح أن الملك الأخميني الكبير كان أيضا ملكا وحاميا لليونان بالقارة الأوربية. ولا يمكن أن نتجاهل هذه الوضعية دون أن نقع في خطأ يغير وجه المشرق، وتاريخ الغرب (أوربا) في آن واحد.

وبناء على ما سبق فإن دارا الآرامي كان ابتداء من سنة 522 ق.م ملكا على آسيا وعلى مصر. وبما أن كل بلد كان محتفظا بقوانينه وأمرائه، فإن الملك الكبير كان شبه رئيس لولايات متحدة. كان مطاعا بكل يسر من طرف اليونان القارية التابعة لوزارة ماليته ولدبلوماسيته.

وكان جيشه يضم عدة فرق وجنرالات من اليونان؛ وكانت المدن الثرية بايونيا تابعة لمقاطعتي سارد (Sardes) ودسكليون (Daskylion) وتشارك ناشطة

---

1 – هو الملك دارا Darius.

في دعم النظام الأمبراطوري، وتوفير الرخاء. وعندما عزم دارا في 512 (ق.م) على تنظيم حملة ضد بلاد السّكيت (Scythe) على ضفاف الدّانوب، كان في صفوفه يونان وعرب كثيرون مختلطين. وقد أدّى له اليمين أمنطاس (Amyntas) المقدوني، كما فعلت مدن أطراقيا. ومكافأة لهستي (Histiée) طاغية ميلات (Milet) على سيرته في الحرب، فوض إليه دارا استغلال مناجم اطراقيا. ولماذا، على ما بيّنا، يهجم دارا على اليونان وهوالذي لم يكن يخشى أي منافس في منطقة البحر المتوسط في القرن السادس (ق.م) حيث كان ملكا يسود وحده بسلطانه غير المنازع؟ ولماذا يخوض اليونان الجائعون التابعون للملك الكبير، حربا ضد الدولة الفارسية معروف سلفا أنهم يخسرونها؟ إن المؤرخين الكلاسيكيين يمتنعون عن الجواب، ويحاولون أن يوضحوا ببساطة أن الحرب التي يجري الإستعداد لها بعنوان "الحروب الميدية" على أنها حرب إيديولوجية بين الأحزاب الديمقراطية في العالم القديم والأنظمة الإستبدادية.

إن تفاهة هذه الحجة ظاهرة للعيان، ولا تستدعي أيّ تعليق. إن دراسة سطحية للأحداث كافية لتبيّن لنا أن "الحروب الميدية" كانت حروبا محلّية بين المدن اليونانية الأسيوية بإيعاز متفاوت من الملك الكبير، وأنه هو الذي أنهاها لفائدته كمحكم فيها، والشخص الأساسي في هذه الأحداث كان هو المسمى أرسطاغوراس (Aristagoras) أمير ميلات، الذي اتفق في سنة 500 (ق.م) مع حاكمه مرزبان ليديا، على أن يستولي على المراكز التجارية في بحر إيجي، التي كانت إذاك تحت سلطة الجمهوريات اليونانية الفلسطينية الصغيرة. وقد فشلت العملية وهزمت القوات الحامية اليونانية الفلسطينية من نكسوس وغيرها من الجزر من جيوش ميلات اليونانية المعزّزة

بأعوان من اللّيديين[1]. إذاك اتجه أرسطاغوراس إلى أثينا التي كانت ترغب في بسط حمايتها على السكلاد (Cyclades) وعلى جزر السبوراد (Sporades) واقترح عليها محالفة قبلتها. بناء على ذلك حشدت قوة صغيرة من الطرفين في إفيز، ولكن بدل توجيهها إلى السّكلاد، استخدمها أرسطاغورس ضد عمالة سارد، واحتلها واستقر بها.

وقد تبين للأثنيين أنهم حوّلوا عن هدفهم فرجعوا إلى بلدهم. وبادر الملك الكبير من جهته إلى إرجاع الأمن في ميلات، (Milet) وشعر الفلسطينيون من جهتهم بالخطر المهدّد لمراكزهم التجارية، فبعثوا بأسطول من المراكب إلى المدينة الثائرة التي فر منها أرسطاغوراس عائدا إلى أملاكه في اطراقيا.

وقد استولى عنوة على مدينة ميلات اليونانية الليدية بمساعدة يونان ساموس ولسبوز ولادي، وخرب جزءا منها. مثل هذه الأحداث لم تكن غريبة في عهد كانت السلطة المركزية المنسّقة للسياسة الكبرى، تفوض للمقاطعات إستقلالا واسعا، وتسند إليها تسيير مصالحها وخزيناتها، وتنظيم الحرس المحلي، وحتى القيام عند الحاجة بعمليات عسكرية محلية. إن سعة الدولة وبطء حركة البريد ووسائل المواصلات، كانت تفرض بالفعل هذه اللاّمركزية الشبيهة تقريبا بالإستقلال. إن دخول مدينة ميلات في حرب ضد نكسُوس، لا يقتضي أبدا أن ملكها الكبير، كان أيضا في حرب ضد نكسوس. وفي نظر السياسة العامة التي انتهجها دارا. إن ما كان يجري في اليونان لا يمكن أن يكون إلاّ حدثا ثانويا، وإنما كان أكثر اهتماما بما كان يمكن أن يطرأ على ضفاف الأندوس، وفي مصر العليا، أومن جهة اطراقيا وبلاد السكيتي

---

1 - مقرات الحاميات اليونانية الفلسطينية التابعة لنكسوس وغيرها من الجزر.

(Scythie) حيث توجد شعوب مجهولة ذات وزن بعددها، وتسيطر على سهولة مترامية الأطراف غنية خصبة بزراعاتها وخيولها ومعادنها الإستراتيجية.

هذه البلدان كانت هي الشغل الشاغل للملك الكبير، أما اليونان فكانت داره؛ وهويعرف الأزمات الدائمة التي تضطرب فيها هذه المدن الصغيرة التي يساعدها على مطالب الحياة، ويكفل لها المعاملات النقدية؛ وبالإضافة إلى ذلك إنه يستقبل في بلاطه عدة شخصيات سياسية أثينية وإسبرطية وكورنثية وطيبية وغيرها، ويجري عليها الرواتب والمنح. وقد طلبت منه شخصيتان، هما الملك السابق اللاّيسيدموني ديمارات (Demarate) وطاغية أثينا السابق هبياس (Hippias) أن يعينهما ليسترجعا سلطتهما. فوافق على ذلك وقبل أن تفصل بعض العناصر المشاركة من الحملة الجديدة التي أرسلها إلى اطراقيا في صيف 492 (ق.م) ولم يمكن لهذه العناصر لصعوبات أن تضطلع بمهمتها في تلك السنة، وفي ربيع سنة 490 (ق.م) وصل أسطول كنعاني صغير إلى ساحل شط المرطون حيث أرسى وهو يحمل جنودا يونانيين ليدين بقيادة هبياس الأثيني، وانتظر الأسطول قيام أتباع هبياس بالإنقلاب، ولكن لم يحدث أي إنقلاب، لذلك أمر قائد هذه الجيش بالرجوع إلى المراكب، وأثناء عمليات الركوب هجم الجنود الأثينيون عليهم بقيادة ملتياد (Miltiade) وأحدثوا نوعا من الفوضى في صفوف الرجال وكواكب الخيل. هذه هي معركة المرطون (Marathon)، وهي حدث فشل فيه هبياس الذي أبعد أنصاره، ولم يعبأ الملك الكبير به قط.

ولكن مقاطعة اطراقيا هي التي كانت تشغل باله باستمرار. ففي سنة 486 خلف كسركس (Xerxes) دارا، وجهّز حملة كبيرة إلى مقدونيا حليفته التي طلبت منه مساندته العسكرية ضد محالفة بين الطراقيين (Thraces)

والسّكتيين (Scythes) كان الجيش اليوناني الآرامي الذي اجتاز الدّردنيل، في ربيع سنة 480 (ق.م) في مراكب صنعها مهندسون يونان، جيشا عرمرما، وبرفقته أسطول عديد الوحدات. وقد بارك رجال المعبد وكاهنة دلف، هذه العملية وساندتها أغلب المدن القارية اليونانية. وكانت الكتائب الإيبونية والإيبولية، تشغل مكانا ممتازا، فليست الحملة على هذا، حربا منظمة ضد اليونان. وبينما كان أغلب قوات الجيش متجها إلى الغرب نحوالدانوب، أمر كسركس (Xerxès) بطلب من المبعدين الآثنيين واللاسدمونيين، بعض الفئات من الجيش بالإتجاه إلى الجنوب لمناصرة وتأييد الأحزاب الأثينية التي طلبت النجدة. كانت النتيجة معروفة، فقد رحّبت تسّاليا (Thessalie) وبيوتيا (Béotie) بهذه القوة أحسن ترحيب ووقع تشتيت قوة صغيرة لاسدمونية في الترموبيل (Thermopyles) وتم احتلال أثينا بدون مقاومة.

وقد يئس سكان الآتيك (Attique) وفكروا في الهجرة إلى إيطاليا الجنوبية، ولم يحدث اللقاء البحري في سلامين (Salamine) بين المراكب الفلسطينية والأثينية أي تغيير في الأحداث. وقد بقي جيش الإحتلال في تسّاليا وبيوتيا بقيادة مردنيوس (Mardonios) صهر دارا المتوفى، حتى كان رجوع الحملة الكبيرة إلى اطراقيا. ذلك أن الصفقة الكبيرة في نظر الدولة الآرامية، إنما كانت تجري في الشمال. كانت مقدونيا متحكمة في مصير بلاد اليونان. وهي ذات علاقات وارتباط متين مع بابل، متأثرة بالثقافة الأسيوية وبها حاميات عديدة من طرف الملك الكبير، زيادة على أنّها كانت داخلة في نطاق نشاط أصحاب البنوك والإقتصاديين التابعين له. وكانت سلامين وبلاتي (Platées) وأثينا من دواعي التلهية بالمقارنة إلى السياسة الكبيرة التي

تنتهجها بابل في اتجاه الدّانوب والبسفور حيث ظهرت وأخذت تتعاظم مدينة بيزنطة الصغيرة في ملتقى جيوسياسي عالم جديد.

فلم تكن قط هناك حروب حقيقية بين الملك الكبير والمدن اليونانية، نظرا لعدم تكافؤ القوات، ولتبعية اليونان في الواقع، لإستعمارهم وإدماجهم في الأنظمة الأرامية؛ وسنرى بالإضافة إلى ذلك، أنّ التدخلات العسكرية من دارا وكسركس (Xerxes) تدحض كل توهم باستقلال اليونان، أوقيام اتحاد لم يكن في أي عهد في التاريخ. وسنرى أن اللاّسدموني بوزنياس (Pausanias) الذي حارب الفرس في بلاتي (Plathées)، يطلب حسن الرعاية من بابل، ويقترح وساطته. وسنرى أن تمسطو كل (Themistocle) المشهور مخبرا كسركس بحركات الأسطول الأثيني في سلامين، ومذكرا بعد ذلك إبنه أرطاكسركس (Artaxerxes) بهذا الدين المعنوي. وقد قبل الملك ذلك وعيّن الأثيني حاكما على منيزيا (Magnésie).

ولاحظ توسديد "(Thucydide) أنه حظي في البلاط بسلطة كبيرة لم يتمتع بمثلها أي يوناني قبله" أما المؤرخ هردوت الذي ولد في هلكرناس، في البلاد الأرامية وتحت الحكم الفارسي، فلم يكن إلا مؤلفا في خدمة الملك الكبير الذي دعي بعد بالبزلوس (Basileus) أي ملك الفرس. إن اليونان لم يكن لها قط في الحقيقة استراتيجية عسكرية غير الإستراتيجية التي تعارضت المدن اليونانية بمقتضاها. ولم تكن الجيوش اليونانية الغارقة في الحروب المحلية الصغيرة لتغير بمقدار حرف واحد، نظام عالم البحر المتوسط ولا العالم الإفريقي الأسيوي بالأحرى. إن القضية الكبرى في نظر اليونان في القرن الخامس (ق.م) ليست هي الحروب الميدية، ولكنها هي حرب البلوبونيز (Péloponnèse) أوالحروب الثلاث بالبلوبونيز التي نشبت إبتداء

من سنة 459 (ق.م) أي عشرين سنة فقط بعد معركة بلاتي (Plathés)، وانتهت في سنة 404، بعد هدنات غير صريحة بمكان دون مكان. كان الجميع يستنجدون بملك الفرس، وكان هويساعد المتحاربين من الطرفين ويسجل الضربات في نفس الوقت وهو في قصره في سوز (Suse) أوبابل، ويبث أعوانه في إسبرطة، أثينا، كورنت، طيبة، أمفيبوليس (Amphipolis) وبيزنطة، وصار بسرعة المتحكم في السياسة الداخلية في شبه جزيرة اليونان، كما أمكن له ذلك في مقدونيا منذ عهد، ولم يكن يوجد يوناني ذو خطر ما، إلاّ وهو بصورة أو بأخرى، من رعايا الملك، أومن المدينين له. كان الإسكندر عندما نظم حملته الأسيوية، مقدما على الحملة باعتباره من رعايا الملك، مثل أمير ميلات أرسطاغوراس، مائة وخمسين سنة قبل ذلك. وكانت محاولته أشبه شيء بانقلاب بدل كونها حربا أجنبية. وكان في آسيا على أنه في بلده، كما أن أرطا كسركس كان في بلده في اليونان.

فماذا يمكن أن نقول في مثل هذه الأحوال في الأمبراطورية البحرية المشهورة التي أقامتها أثينا بعد "الحروب الميدية" في شرق البحر المتوسط ودعيت باتحادية كونفدرالية دلوس (Delos)؟

ولنقل قبل كل شيء إنّ الأسطول الفلسطيني لم يعبأ بذلك نظرا إلى أنه كان ولا يزال مع الأساطيل المصرية والليبية والقرطاجنية القوة السائدة في مياه البحر المتوسط منذ أكثر من ألف سنة، قبل أن يورث فنّه ونظامه وموانئه لخلفائه الطبيعيين من البيزانطيين وخلفاء الدول الإسلامية. ثم نضيف إلى ذلك أن الأسطول الأثيني لم يفلح في غزوالأسواق المحلية سواء في اطراقيا أوفي مسيني (Messénie) أوفي مصر أو في قبرص، وفي كل مكان واجهته فيه الحكومة الفارسية. وقد انقلبت أثينا محمية رسمية للملك الكبير بعد

إبرام اتفاق كلياس (Kallias) في سنة 448 ق.م، وأحرزت بفضل رعايته منطقة توسع إقتصادي في السّكلاد، والسبوراد (Sporades) وعلى السواحل الأسيوية والبيزنطية والسكيتية (Scythiques) في البحر الأسود. ومنذ ذلك التاريخ فتح أصحاب البنوك الفلسطينيون والبابليون والمصريون فروعا في الأتيك (Attique) والمنظم لهذا التطور لأثينا، من مدينة ريفية إلى مجتمع أعمال وصفقات، هوالألميوني بركليس (l'Alméonide Pericles) القريب من كبريات الأسر اليونانية النبلية، والمرتبط بآبائه منذ زمن طويل، مع أصحاب البنوك اللّيديين، والعميل الطيع للأسرة الفارسية (الأخمنية). وقد جعل من بلاده غير المهيأة للصناعات والزراعات الكبرى ملتقى للتجار ومركزا للمعاملات.

وقد فنيت الأرياف من جراء ذلك ولم يكن يعمل غير الممثلين وأصحاب المكاتب التجارية، بينما وجهت اليد العاملة إلى استغلال المناجم وإلى ديار الصناعات للمراكب البحرية. وقد عرفت أثينا مآل كل بلد مستعمر يتحكم فيه الإقتصاد السائد كما نعرف في الأمثلة العديدة من تاريخنا المعاصر. قد كانت أثينا (اليونان) هي "جزائر" (Algérie) الملك الكبير. إنّها حظيت برفاهية مفتعلة بتكليفها بتسويق المنتجات الإفريقية الأسيوية فأكسبت الأتيك (Attique) بريقا ساحرا خلاّبا هو بريق "بدلة" خدمة الملك الفارسي. وكانت المعيشة فيها غالية عسيرة، لا يتمتع بها غير أبناء الأسر والأرسطوقراطية التي اغتنت وصارت تتخذ الأزياء المشرقية في كسائها.

إنّ أثينا أصبحت مصرفا عربيا صغيرا لا صدى له أمام إشعاع سارد، وطيبة وبابل. وكان لدستورها السياسي طابع الإقتصاد التابع لنفوذ خارجي. وحكومتها حكومة أغنياء ذات سيطرة وافية قليلة النظير، ولهذا السبب من

غير شك، ولأن الشعب لم تبق له أية مسؤولية ولا أي اهتمام بالحياة السياسية والثقافية، تدهورت أثينا بسرعة ولم تحظ بالوقت الكافي لتستفيد من الحضارة المشرقية الكبيرة التي ورثتها من ديانتها وفلسفتها القديمة.

ومن الجائز أن نعتقد بأن مثل هذا المصير كان يثير الغيرة إذ أنّ إسبرطة كانت تطمح إلى اقتسامه، ولابد لإقتسامه من أن تحظى بنفس المساعدات المالية من الملك الآرامي. إن حرب البلوبونيز (Peloponnèse) كانت مسابقة إلى الأموال العربية. ولكن هذه الأموال لا يتيحها ممثلوالملك الكبير لليونان إلاّ لأهداف احتكارية، إنهم يقبلون حقا مكافأتهم على خدماتهم، لكن يقبلون تبذيره في استثمارات لا جدوى منها، لعدم توفر إمكانات استثمارية في بلاد اليونان. إن البلاد لم يكن لها من قيمة بغير سكّانها (رجالها) وحسن موقع موانئها. ولكي تنال إسبرطة هذه الأموال العربية، وهي معزولة في جبالها القاحلة، كان لابد لها من الإستيلاء على سلسلة الموانئ ومراكز البنوك في شبه الجزيرة اليونانية. وكان من دواعي انهزامها أن تتخلّى عن احتكارها لأثينا. من هذه الضرورة نجمت حرب البلوبونيز العنيفة القاسية التي كان يشرف عليها ويتحكم في مآلها من كان مطلوبا وراءها، أي الملك الكبير الآرامي. ولنفتح مستطلعين كتابا في التاريخ القديم في الفصل الخاص بهذه الحرب، ولنقرأ كيف كانت تلقّن لتلاميذتنا، يقول الكتاب : "إن المعارضة كانت صارخة بين أثينا وإسبرطة؛ بسبب التعارض بين نظام ديمقراطي ونظام أرسطوقراطي؛ وبين مدينة ذات نزعة عسكرية حربية، ومدينة تشيع فيها الآداب والفنون".

إننا لنرجو أن يكون المؤلف الذي جاد علينا بهذه اللؤلؤة، قد دفع إلى ذلك بنية سياسية أكثر مما استجاب لإقتناعه الخاص، وخاصة لأنّنا نملك فيما يتعلق

بحرب البلوبونيز، وثيقة ذات قيمة نادرة هي نصّ ثوسديد (Thucydide) وهذه حالة فريدة في تواريخ العصور القديمة، وهي وثيقة لا غموض عليها. ففي الكتاب الثاني والفصل الثاني يذكر ثوسديد أسماء السفراء الذين أوفدتهم إسبرطة عن طريق اطراقيا للملك الكبير "للحصول على المال وعلى مساعدة عسكرية"، وبما أن الأثينيين أمكن لهم رشوة ضدقوس (Sodokos) إبن الملك، سلّم لهم السفراء عند الدردنيل، فأعدموهم بدون محاكمة، وعلى العكس من ذلك أوقف الأثينيون عند مصب نهر ستريمون (Strymon) سفيرا للملك الكبير، أرطافرنس (Arthaphernès)، أوفده إلى لاسدمون؛ وقد أرجعوه إلى إفيز " (Ephèse) في مركب خاص" (تريير) مع حرس تشريفي، بعد تجريده من رسائله التي صرح فيها ملك الفرس للأسبرطيّين، بأنه لم يفهم بياناتهم المتعارضة، وأنه "إستقبل عدة مبعوثين وكل واحد منهم يقول خلاف قول الآخر" وبالتدريج تعرف أن المحالفة تتأكد بين إسبرطة والمرزبان تيسافرنس (Tissaphernes) حاكم المقاطعات البحرية بآسيا الصغرى الذي تبرم معه ثلاث معاهدات بالتوالي بالرغم من جهود ومساومات ألسبياد (Alcibiade).

وقد سمح الفرس للأميرالات اللاسيدميّون باستعمال ميناءي ميلات شيوس (Chios) وليروس (Leros) وقبلوا علاوة على ذلك، دفع أجور البحارين، وتحولوا بعد ذلك عن سياستهم باتباع نصائح ألسبياد الوقح الذي خان وطنه لمساندة إسبرطة أولا، ثم أخذ الآن يحيك الدسائس لها "قائلا لتسافرنس (Tissaphernes) إن أوفق حلّ له يتمثل في ترك اليونان في تناحر فيما بينهم، وأنه هولا يدفع إلا بعض التكاليف القليلة للحرب مع

عدم المخاطرة بأي شيء". وأكد "أن الملك من الأوفق له أن يتفاهم مع الأثنيين لإقتسام الدولة، نظرا إلى أن الأثنيين لا يرغبون في الإستلاء على أجزاء من القارة، وأن أهدافهم ووسائلهم العسكرية تتفق في جميع النقط مع أهداف الفرس، فالمصالحة بين الطرفين أمر ممكن على هذا؛ فأثينا تبسط سيادتها من جديد على البحر وتسمح للملك بفرض سلطته على اليونانيين المقيمين في مناطقه" (توسديد الكتاب الثامن الفصل الثاني).

وبالفعل أصغى تسافرنس إلى هذه النصيحة "ولم يقدم إلا قليلا من المساعدات المتاحة للبلوبونيزيين وصدّهم عن شنّ معركة بحرية زاعما أن المراكب الفينيقية على وشك الوصول، وأنهم قد يخوضون إذاك معركة مع قوات أكبر من قواتهم. لهذا السبب ساءت حالة الباوبونزيين"[1] وباختصار إن المنافسة بين أثينا وإسبرطة كانت للحصول على صدقة الملك الكبير كل يمدّ يده، ويخون حلفاءه، وهوعلى استعداد لتغيير وضعية كل دولة إن كان ذلك مما يريده ملك الفرس. كان تسافرنس يعبث بالطرفين ويمكر بهما مكر أصيلا. إنه مع التعاون مع الأثينيين أبرم اتفاقا جديدا مع لاسدمون، ووعد بوصول أسطول فينيقي يضم مائة وسبعة وأربعين (147) مركبا؛ وبالفعل أبحر الأسطول ولكنه لم يصل قط إلى الغاية ... وذلك حتى اليوم الذي استاء فيه الملك دارا الثاني فعزله وعيّن مكانه إبنه الأصغر سيروس (Cyrus) حاكما (مرزبان) على ليديا، وافريجيا، وكبادوسيا.

وقد دفعت اعتمادات ضخمة للأسدمونيين الذين أدّوا أجور البحارين ورشوات لجنود أثينا. وقد استعجل دارا الثاني نهاية هذه الوضعية بسرعة،

---

1 - Thucydide, *La guerre du Pelaponnèse*. Traduit et annoté par Denis Ronssel. Livre de poche. Gallimard 1964

فحشد قادة لاسدمون مع الأميرال ليساندر (Lysandre)، مؤيّدين هذه المرة بالمراكب الفلسطينية وبقيادة سيروس الذي تولى تسيير العمليات البحرية شخصيا، فطردوا الأثنيين من صفحة البحر.

وأخيرا تقدم الملك بوزانياس (Pansanias) لمحاصرة أثينا، بينما كان الأميرال ليساندر يحاصر ميناء البيري (Le Pirée)، وذلك سنة 405 ق.م. وقد دام الإحتضار ستة أشهر واشترط حلفاء اسبرطة تخريب المدينة وبيع سكانها بالمزاد، ولكن الملك الكبير أشار بالإعتدال، واقتصر المفاوضون اللاسدميون على تخريب حصون البيري (Le Pirée) والأسوار الطويلة. وبذلك أمكن لأثينا أن تنجو من التخريب ولكنها أرغمت على الجلاء من جميع المؤسسات والمراكز الخارجية، وكان ذلك انتصارا لأسبرطة التي وقعت بدورها في تبعية بابل وسلطانها المالي والنقدي.

وقد انخرطت في خدمة الملك الكبير وحاربت كتائب قواتها في كوناكسا (Cunaxa) وافريجيا وبفلاغوني (Paphlagonie)؛ وصارت سارد (Sardes) مقر مقاطعة ليديا العاصمة الحقيقية لليونان، وصار لحاكمها المرزبان سلطة الأمر بالهدنات أوإعلان النزاعات مع مراعاة مصالح الملِك.

ولم تكن كل هذه الأحداث في نظر الملك الآرامي إلا زوبعة في فنجان، وكان اهتمامه وبصره متعلقا بمقدونيا، واطراقيا واسكيتيا (Scythie)، لا لأن هذه المناطق كانت تمثل الإمتداد الطبيعي لآسيا الصغرى فقط، التي لا يفصلها عنها إلا خندقان ضيقان من المياه، الدردنيل والبسفور، لكن لأنها كانت أيضا غنيّة بمناجم الذهب، ولأن الملك الكبير كان المحتكر للنقد الذهبي. وقد كان ملوك آسيا الصغرى يسلكون منذ زمن طويل سياسة فيما يخص مناطق الدّانوب، حفظت الأساطير الأورفية صداها. وتأكدت هذه

السياسة الدانوبية إلى حد بعيد مع قيام أسرة الأخمينيين (Achmenides) الذين كانت لهم سلطة إقتصادية لا نظير لها، ومصالح ودواوين بحرية وتجارية في اتساع مستمر، وجيش وأعوان ممثلون ناجعون. ومن صدى هذه السياسة المستحكمة أنها ساندت الدولة العثمانية حتى منتصف القرن التاسع عشر. ومعنى ذلك أن الدولة الفارسية واليونان الشمالية البلقانية كانت مرتبطتين بعلاقات حيوية قصوى، بالإضافة إلى ذلك إنّ المنطقة كانت تنتج القموح وسهولها مترامية خصبة وهي أكثر جدوى في تزويد آسيا الصغرى من شبه جزيرة اليونان الفقيرة. ومن المحقق أن شبه جزيرة الشرشونيز (La Cherchonèse) وبيزنطة كانتا استراتيجيا في نظر الملك الكبير أكثر أهمية بكثير من إسبرطة وأثينا. وقد كانت اطراقيا ومقدونيا تتحكمان في طرق التجارة الكبيرة الدانوبية، ولهذا ولأنهما غنيتان بالمعادن من ذهب وفضة[1] احتلت مملكة مقدونيا من البداية مكانة عالية في حساب الملك الكبير.

لماذا يعدل المؤلفون للكتب المدرسية عن اعتبار مثل هذه الحجج الجيوسياسية التي تفسّر بوضوح سبب نجاح فليب والإسكندر المقدونيين بدل "الإدمان على الشراب والسلوك العنيف" اللذين يقدح بهما بسبب دمستين (Demosthène) وملحوظ أن المؤرخين صامتون كل الصمت عن مقدونيا في عهد بردكاس (Perdiccas) وأمنطاس (Amyntas) والملكة الوصية الخبيرة أورديس (Eurydice) كما يسكتون عن أصل الأسرة الملكية ونسبها الذي يرتفع إلى أسرة الهرقليين (Heraclides) الأسيوية من أرغوس .(Argos) فكأنما لم تظهر مقدونيا إلا مع فليب؛ فليب البربار الذي هبط من السماء بينما كان فليب هذا وريث تقاليد ترجع إلى ما قبل التاريخ، وترتبط بالثقافة الدينية العليا التي كانت

---

1 - تعليق للمؤلف يوضح فيه غنى المنطقة، وكونها مصدر غنى البلقان.

في المشرق الأرامي. فإلى متى يخفى عنا شبح بركليس "الديمقراطي" مسيرة التاريخ اليوناني الفارسي؟ إذا أمكن لفليب المقدوني أن يمد سلطانه على جميع بلاد اليونان تقريبا، فذلك بالتحقيق لأن الملك الكبير أعانه على ذلك وأمده بالذهب الضروري لمثل هذه المشاريع.

وإذا كانت موانئ السكلاد (Cyclades) والأوبي (l'Eubée) والآتيك (Attique) والبلوبونيز تندرج في أهداف سياسته البحرية والتجارية على غرار موانئ ليبيا أوغرب البحر المتوسط، فإن مقدونيا واطراقيا تندرجان في أهداف سياسية في القارة (الأوربية). فقد كان سكانها أكثر عددا ويكثافة ظاهرة؛ وتمثل أسواقا كبيرة ومراكز معاملات بيع وشراء، لا تملكها شبه جزيرة اليونان تقريبا، ولا تمثل إلاّ القطاع الثالث أي قطاع الخدمات من الإقتصاد المصري البابلي، إنّ دبلوماسية الملك الكبير في القارة مبنية على مجرى الأنهار الخمسة؛ الأندوس ودجلة والفرات والنيل والدانوب التي تعتبر من أكبر المسالك المائية النّهرية في العالم. هذا وبعد احتلال سلسلة الموانئ في البحر المتوسط إثر حرب البلوبونيز والسيطرة منذ زمن طويل على الأنهار الأربعة الإفريقية الأسيوية لم يبق للملك الآرامي الكبير إلا مدّ سلطته ورقابته على نهر الدانوب الأوربي الكبير، الذي ثبت من تاريخه أنّه على غرار النيل، نهر ذومصير سياسي. ومن غير انتقاص عبقرية فليب المقدوني وإبنه الإسكندر بشيء، فإن مهمتهما كانت محصورة في الإمتثال للجغرافيا وللظروف؛ إننا نعرف أن الأشخاص لا عبرة بهم إلا قليلا في التاريخ وأنّ الأحداث والقوات المجتمعية التي تضافرت خلال القرون هي المتحكمة في مجرى الأمور وأنها تسلك في الأوان الملائم الإتجاه الخلاق المحتوم.

فلا ينبغي على هذا البحث عن أسباب التغيرات السياسية التي طرأت في شرق البحر المتوسط في القرن الرابع (ق.م) في شخصي فليب

أو الإسكندر. إنّ البحوث والدراسات العديدة النقدية السيكولوجية التي قام بها أساتذة التعليم في هذا الباب، محلّلين دوافعهم وحالاتهم النفسية ومطامحهم بل وحتى حكايات غرام ملوك مقدونيا، إنما هي من الروايات الخيالية التي لا صلة لها بالتحليل العلمي. ونجد نموذج هذا النوع من الدراسات في البحوث العميقة الشاقة التي قام بها جروم كركوبينو(Jérôme Carcopino) للتعريف بالشخصيات المفضلة عنده، من رجال العصور القديمة، وحتى إذا كانت قراءتها ممتعة إلا أننا نشعر بأن الشخصيات المقدمة من صنع الأوهام والخيال، ومنها فليب والإسكندر. إن الأحداث هي التي كانت كبيرة في تلك الفترة أكثر مما كان الرجال الذين يظنّون أنهم يسيّرونها، وقد كانت هذه الأحداث مسيرة باستمرار من طرف السلطات الفارسية في ليديا وبابل، التي قدرت أن فليب الحليف المختار، أكثر اقتدارا على حماية سياستها الدانوبية، فأعانته على تحقيق أهدافه في توحيد اليونان؛ باعتبار أنّ ذلك عملية ضرورية لمصالح الملك الكبير؛ وهو إذاك أرطاكسركس (Artaxerxes) الذي دام عهده من 358 إلى 338 (ق.م) المطابق تقريبا لعهد الملك المقدوني (357 – 336) وبينما كان أرطاكسركس يجري تنظيم أمبرطوريته الواسعة ويفرض سلطته من جديد على مصر، قام فليب في أربعة مراحل بنشر سلطته على شبه الجزيرة الهيلينية. وقد أبرمت حوالي سنة 350 ق.م معاهدة مطابقة للقواعد بين الملكين، أوبين صاحب السيادة أرطاكسركس والتابع فليب، نظرا إلى أن مقدونيا، كانت أدت يمين الولاء حوالي سنة 510 ق.م أي بنحو قرنين قبل ذلك. كانت مقدونيا هذه بلادا واسعة تمثل سعتها عشر مرات سعة بلاد الأتيك (Attique)، ويسكنها نحو خمسمائة ألف نسمة على الأقل، ولها جيش مدرب عارف بالطرق

الحربية الفارسية والطراقية، ويضم فرقا عديدة من الفرسان. وكانت الطبقة الحاكمة تتمتع بثقافة واسعة يونانية آرامية، وبموارد نقدية وأملاك كبيرة وبجاه وسمعة تمتد إلى ما وراء المدن اليونانية، حيث كان لها أنصار مؤيدون مقتنعون، مثل فوسيون الأثيني المشهور الذي لا يخدش في نزاهته. وقد كسبت القلوب بفضل ما كان لذهب جبل بانجي (Pangée) من جاذبية، وقد بالغ دمستين (Demosthène) في اغتياب فيليب والإفتراء على بلاده في خطبه العنيفة المهاجمة، المقصود بها الدعاية العسكرية؛ وبما أننا أشبعنا من خطبه وبهرجتها فقد أعرناه أذنا جد مجاملة. أكان الملك المقدوني من البربار؟ من يجهل على هذا التقاليد الثقافية في اطراقيا المجاورة؟ وهل تعطّلت العلاقات المتينة المختلفة التي ربطت منذ القرن السادس (ق.م) بين بيلا (Pella) والعواصم اليونانية الأخرى بروابط الصداقة والقرابة والتضامن؟ وقد أقام بهذه العاصمة الشمالية علماء وشعراء عرب أوأثينيون مثل أوربيد (Euripide) ومن الأشخاص المذكورين المنوّه بهم الملك أركلاؤوس (Archélaus) المعماري ذوالنزعة الإنسانية، الرياضي الذي أنشأ في بلاده أجمل شبكة من الطرقات الأستراتيجية في أوربا الدانوبية، بعد نهاية حرب البلوبونيز. هذه هي البلاد التي أحرز لها ملكها فيليب الإنتصار بكل يسر، على الولايات اليونانية الصغيرة الغارقة في اهتماماتها الحقيرة. ليس لنا أن نخوض في تفاصيل النزعات المحلية المعقدة، وما يلجأ إليه كل طرف من الحيل والمخادعات، وبمجرد اعتلاء فيليب على العرش سنة 357، استولى على بحر إيجي، ثم استولى على تساليا (Thessalie) وعلى بيزنطة، وقطع طريق القموح فارضا عليها الرقابة، وانقض على بيوتيا (Béotie)، وتحكّم في المنطقة. إذّاك لوحظ قيام مساع دبلوماسية كثيفة لدى الملك الكبير،

كما كان الأمر بمناسبة حرب البلوبونيز، وقد أوفدت أثينا سفارة إليه لتطلب وساطته ورعايته؛ ولكن الملك تصامم واستمر في مناصرته لوليّه المقدوني. وفي سنة 338 (ق.م) حطّم فيليب في معركة شيروني (Cheronée) خصومه وفرض عليهم قبول حمايته. وبعد ذلك بزمن قليل جمع في كورانت ممثلي جميع بلاد اليونان وأعلن السلم العامة، واستقلال المقاطعات، وأخبر عن تأسيس جامعة (أورابطة) يترأسها ويتولى قيادتها العسكرية، على أن تقدّم كل مدينة قدرًا من القوات يتناسب مالها من طاقات. وبذلك وضع حدّ بصورة نهائية لإنقسام اليونان إلى دويلات صغيرة.

وقد استطاع فيليب المقدوني في مدة عشرين سنة وبتأييد مستمر من الملك الكبير، أن يقيم سلطة مركزية منسجمة، كما كانت تحلم بها فارس منذ دارا الكبير، لحماية منطقة المجازات (الدردنيل والبوسفور). وسترى ابتداء من هذا التاريخ ومع مرور الزمن أن سياسة المجازات هذه، ستتخذ أهمية رئيسية في تاريخ وحوليات الديلوماسية. وهي حتى في يومنا ذات أهمية تشغل البال باستمرار. وقد كانت الحالة مهيأة لإستقبال الإسكندر الذي كان دوره -ولنفكر جيدا في الأمر- هوضم اليونان إلى العالم الآرامي بصورة تأسيسية تنظيمية، بعد أن كانت لا تنتمي إليه إلا ثقافيا، كان الإسكندر رمزا لنجاح الجهود الأخمينية بصورة تستدعي التمجيد. ولا أهمية في الواقع أن لم يكن الإسكندر أخمينيا، نظرا إلى أنه قام مقامهم واضطلع بميراث هذه الأسرة المالكة، وبهذا الصدد فإنّ الطريقة التافهة الوهمية التي قصّت علينا أحداث "غزو" إبن فيليب، تجعلنا مبهوتين. قيل لنا إنّ الجنرال الإسكندر استطاع بجيش قليل (35,000 رجل) فقط أن يحطّم جحافل دارا الثالث، وأنّ معركة أربليس (Arbalès) كانت "حقا

معركة أوربا ضد آسيا" وأنّ الأمبراطورية الفارسية هزمت وأطيحت وأحتلّت في سنوات قليلة". وهل يمكن أن يحتلها خمسة وثلاثون ألفا من الجنود؟ إنها سذاجة وسوء نية؟ وتلفيق متعجّل؟ أم تكاسل عن التحقيق والتصحيح للفكرة المطروحة؟ كيف لا يشعر الإنسان بالخجل من مثل هذه التزييفات الشنيعة والأخطاء الصارخة الملقّنة من أعلى المنابر؟ إن أسطورة الإسكندر قد خلبتنا إلى درجة أنها حادت بنا عن السداد. وهي أسطورة شبيهة تماما بأسطورة الحروب الميدية، بل إنها تخفي عنا حقيقة، هي طموح حكام (مرازبة) ليديا الثائرين جهارا أوسرًا، ضد السلطة المركزية واستنهاض حلفائهم الخارجيين ضدها من كبار الإقطاعيين اليونان أوالفلسطينيين.

لم يقع قط في الأمبرطورية الفارسية، توراث السلطة وتسليمها لخلف بعد سلف بصورة سليمة؛ ولم يكن من بين كبار حكام مقاطعاتها من لم يفكر في الإستحواذ على العرش، وكانت المؤامرات في البلاد والإنقلابات أشياء عادية. وقد عرفنا أن طاغية ميلات اليوناني اتفق في القرن السادس (ق.م) مع حاكم ليديا المرزبان، ليكوّنا لهما مملكة إيجية بالإستنجاد بالأسطول الإثيني. ورأينا أنّ سيروس (Cyrus) الإبن الأصغر لدارا الثاني؛ وقد ثار على أخيه الأكبر، الذي تولىّ العرش باسم أرطاكسركس الثاني، مستخدما مرتزقة من اليونان -العشرة ألاف- الذين هزموا في كوتاكسا (Cunaxa) سنة 401 (ق.م) فانسحبوا حتى ساحل البحر الأسود بقيادة كزنوفون (Xenophon) ولنتذكر مرزبان موصول (Mausole) الذي حاول أن يقتطع لنفسه مملكة في كاريا (Carie) بمساعدة إسبرطة؛ ومثل ذلك فعله المرزبان أرطباز في إفريجيا، بمساعدة مرتزقة يونان. إن التدخلات العسكرية من طرف اليونان

والإلّيريّين، والصقليين والطراقيين والسكتيّين، بقيادة أمراء أوولاة أسيويين لا يحصيها العد. وبمجرد انتهاء معركة شيروني (Cheronée) بعث فيليب بجيش إلى طروادة (Troade) سنة 227 (ق.م)، يضم عشرة آلاف جندي بقيادة الجنرال برمنيون .(Parménion) ذلك أن أرطاكسركس الثالث اغتاله وزيره بقواس (Bagoas) الذي عيّن ملكا على العرش ضابطا من الحرس الأمبراطوري باسم دارا الثالث، كدومان (Cadoman) سنة 336 (ق.م). إننا نجهل ما كان دور الجيش المقدوني خلال هذه الفترة وإلى أي صف مال فيليب في هذه القضية. ولكن من المصادفة الغريبة أن اعتلاء دارا الثالث العرش، جرى في نفس الوقت الذي اغتيل فيه فليب سنة 336، أثناء أفراح نظمها بمناسبة زواج إبنته. ومصادفة أخرى غير خافية؛ إنّ اغتيال فيلب وقع في نفس الوقت الذي رجع فيه الإسكندر إلى بيلا (Pella) مع والدته أولمبياس (Olympias) أوهما كانا هاربين من آسيا الصغرى. ومن غير محاولة للبحث عن توضيحات أخرى لا يمكن تصورها، يبدومن الواضح أن الأسرة المالكة في مقدونيا قد أقحمت عسكريا وأشركت في تولّي وخلافة أرطاكسركس الثالث على العرش، وقد كان موقف أرطاكسركس إزاء فيليب موقف رعاية ومكافأة فأبرم معه حلف سنة 350 المشهور، الذي سمح له بالسيادة الكاملة على بلاد اليونان. ففي نظر الإسكندر إن الملك الكبير الجديد دارا كودومان لم يكن إلا غاصبا للعرش، بعد اغتيال أرطاكسركس وولده أرسيس (Arsès) الوارث الشرعي للعرش. وهل كان مسؤولا أيضا عن اغتيال فيليب أخ الإسكندر؟ يمكن ويجوز أن نتصور ذلك.

إن العلاقات مع الغاصب لم تسو بعد ذلك إذ أنّ ملك مقدونيا الجديد أقرّ بطروادة الجيش الذي كان بعث به والده إليه، وهذا دليل واضح على أنّ

مقدونيا التي كانت تابعة مخلصة لبابل، رفضت في هذه المرة أن تجدد ولاءها، وأعلنت ثورتها بكل صراحة. ولم تكن هي وحدها المعارضة، وقد بقي الحزب المناصر للشرعية، الفارسي البابلي، وفيًا لذكرى أسرة دارا الكبير، واعتبر الملك الجديد مغامرا. وافق على هذه الثورة القسم الأكبر من الجيش وحكام (مرازبة) آسيا الصغرى ومصر وسوريا؛ ولم تخالف إلا فلسطين والمدن اليونانية الإيونية التي انضمت إلى الغاصب.

كان الإسكندر على هذا مرتبطا مع أغلب المسؤولين المدنيّين والعسكريين في الأمبرطورية البابلية وكان ضده جميع اليونان؛ يونان إيوني بطبيعة الحال ويونان اسبرطة وأثينا، وطيبة وكبريات المدن التي تلقّت مساعدات مالية كبيرة من الملك الغاصب. وقد اتهم دموستين (Demosthène) مثلا بأنّه قبض ثلاثمائة طالان (Talents) (وقيمة الطالان 5000 فرنك ذهبي) "لينفقها دفاعا عن مصالح الملك الكبير" أعلنت طيبة قبل غيرها عن العصيان، مشهرة السلاح، بينما كان الإسكندر في عمليات بالدانوب. وقد خربت المدينة انتقاما منها وبيع سكانها بالمزاد. وهذا دليل على درجة العنف التي بلغتها العلاقات بين الطائفة الفارسية المناصرة للشرعية، المؤيدة من طرف مقدونيا، وبين حكومة دارا الثالث المؤيد من طرف اليونان. فالإدعاء كما هي العادة بأن الحملة التي قام بها الإسكندر، كانت حربا من أوربا ضد آسيا، ليست سوى حكاية هزيلة.

وفي الحقيقة إن الإسكندر، وقف إلى جنب البلاط المؤيد للشرعية في بابل، وضد اليونان وسار سيرة الولي الفارسي المخلص. ولم تنتفع اليونان بانتصاره بل أدّى إلى إدماجها في الدولة الآرامية وسلطانها. وهذا صحيح

إلى درجة أن الإسكندر، إذا كان بطلا إلى يومنا هذا في نظر العالم العربي، فإن الروايات اليونانية تنظر إليه بكل ريبة فيما يخصها. إنّه لم يكن يمثل اليونانية في المعركة التي نظمها وانتصر فيها ضد دارا الغاصب، بل كان يمثل الشرعية البابلية. وقد كان حقا رئيس حرب مدنية تتألف جيوشه من أنصار فرس، أكثر مما تتألف من مقدونيين.

وردًا على استفزازات دارا الثالث، نزل الإسكندر في بلاد طروادا (Troade) في ربيع سنة 334 (ق.م) ودعم الجيش الصغير الذي كان وجهه أبوه إليها. وقد اضطر في الحال إلى مواجهة لا قوات من الفرس، ولكن الكراديس اليونانية الإيونية، بقيادة ممنون الرّودسي الخبير الذي لا نظير له، الأميرال والجنرال في آن واحد. كان اللقاء على نهر غرنيك (Granique) معركة في الظاهر فقط، لأن ممنون أشار بالتقهقر أمام القوات المقدونية التي تضخمت بالكتائب الفارسية الثائرة عليه، وعلى العكس كانت مقاومة مدينتي ميلات (Milet) وهالكرناس (Halicarnasse) اليونانيتين مقاومة عنيفة؛ وقد استولى عليهما ثم استرجعتا وبقيتا في الختام في حوزة قوات دارا الثالث، وجرت بعد ذلك طيلة سنة ونصف سنة، مفاوضات ومحاورات سرية حتى نوفمبر من سنة 333؛ وإذّاك تقابل دارا والإسكندر في معركة إيصوص (Issos) غير بعيد من خليج أنطاكية. وهُزم دارا فاقترح فتح محادثات ولكن الأرسطوقراطية الفارسية رفضت الإقتراح. ويبدو فعلا أنّ عزلة الغاصب للعرش صريحة إلى درجة أنه لم يكن من داعٍ إلى الحرب وإلى المفاوضات، وأنه كان يكفي انتظار خيبة تضليله وخداعه. وبما أنّ الإسكندر وقف موقف المدافع عن التقاليد الموروثة الصحيحة، وكوارث لدارا الكبير، فإنّ هيئات الدولة والقساوسة والأعيان

والسكان رحّبوا به مناصرين، باستثناء فلسطين. وكان لا بد من احتلال صور وغزة بعد معارك وحصار طويل. أما في كل مكان آخر، فإن قوات الإسكندر كانت في جولات، تستقبل بباقات الأزهار وتحظى بالترحيب والحفاوة.

وقد حّي المصريون فرحين الفرعون الجديد، وخاطبه الكاهن بصفته إبنا لله. ومعروف ما جرى بعد ذلك. إن الإسكندر رجع متجها إلى دجلة (بالعراق) فهزم جيش دارا في غوغميل (Gaugomele) غير بعيد من مدينة إربيل الحالية. وكان ذلك في أول أكتوبر 331 (ق.م)؛ وقد فر دارا وكانت نهايته أن اغتاله أعوانه ورجال من حاشيته. واستسلمت بابل وسوز في الحال وأحرق القصر الملكي البديع في برسبوليس (Persépolis).

واستسلمت أكبطان بدورها بعد بسارغاد (Pasargades) تولى الاسكندر عند ذاك مكان الملك الكبير، ولم يتطلب ذلك إلا ثلاث سنوات. وإذا كان الحدث معجزة في نظرنا، لكنّه غير ذلك في نظر السكان الآراميين الذين استقبلوا الإسكندر كملك من ثقافتهم ودينهم ومن أصلهم؛ يعترف به أعيانهم وقساوستهم على أنه رئيس طبيعي لهم. ومن استمرار التقاليد أن التنظيم العتيد للدولة كما ضبطتها الأسر الملكية المصرية البابلية منذ قرون لم يطرأ عليه أي تغيير بالإطاحة على دارا كودومان. فالقضية ليست سوى زوال رجل لا يمثل إلا شخصه. أما الدّولة فهي قائمة مستمرة ومن استخفاف الناس بالحدث أنّ الكتبة استأنفوا أعمالهم كالفلاح الذي أخذ مجرفته والصائغ الذي مال على خيوطه الذهبية.

لم يتغير أي شيء، ولم يتحرك أي شيء في البلاد الواسعة، ولم يكن نزول الإسكندر البطل الذي باركته الألهة ورحيله، إلا غضنا على صفحة

آلاف السنين التي توالت وتعاقبت حافلة بالإيمان والعلم والشك. وقد اجتمع العالم العربي حول الإسكندر وأحاط بالمجتمع الهيليني الذي صادف هواه وتحققت أحلامه.

ولنلاحظ جيدا، أن الحملة الأسيوية التي قام بها المقدوني، لم يجر خلالها إلا قليل من العمليات الحربية، ولم تحدث فيها إلا خسارة نزرة. وقد اعتبر خيال الكتاب ولا سيما الأمراء الذين خلفوا الإسكندر، هذه الحملة "عملا بطوليا"، إذ كان من مصلحتهم أن يخلدوا ذكراه ويؤلهوها كما ألّهت ذكرى توتميس (Thoutmès) ورمسيس أوسيروس الكبير، في حين أن الحملة لم تكن لها أية صبغة عسكرية. وقد ظهرت في صورة جولة انتخابية كانت نتيجتها محققة من الإنطلاق كان سلوك الإسكندر في جميع ما قام به سلوك ملك آرامي، وكان خلفاؤه عاملين بما ضربه من مثال قررت الأسرة الجديدة إزاء شبه الجزيرة اليونانية والمقاطعات الإيطالية والقرطاجنية أوالإيبرية سياسة الحمايات التي عمل بها منذ زمن طويل الفراعنة أوالأخمينيون، كما واصلت إمدادها بالمساهمات الإقتصادية والثقافية لا لجهات شرق البحر المتوسط فقط، وما وراءها من البلاد، لكن حتى للبلدان الدانوبية التي ضمت أخيرا إلى الدولة وكان الحرص الشديد على احترام القانون الدستوري والتقاليد البابلية بدرجة جعلت الإسكندر لا يقبل لقب الملك وشاراته وتاجه، إلا بعد وفاة دارا أي بعد سنة (329) عند ذاك فقط، استأنف الإمتثال للتقاليد البلاطية الموروثة، وتحية الملك التقديرية الموجهة إليه بأطراف الأصابع. ونقشت على النقود المضروبة سواء في آسيا أوفي مقدونيا عبارة: "الملك الإسكندر" كرغبة منه على أن يظهر كوارث طبيعية للأخمينيين. ومن المظاهر الأولى

لإمتثاله للنظام التقليدي أنّه جعل نفسه تحت حماية سيروس الكبير وزار ضريحه في بسارغاد (Pasargades) كان يبذل جميع جهوده لينسى الناس أنه ليس من البلاد؛ ونجح في ذلك بكل سهولة خصوصا وأن اليونان والأفارقة الأسيويين لا يختلفون لا في الجنس ولا في الثقافة ولا في الدين. وذلك لأن النزاعات "بين الوطنيات" كما نعرفها اليوم، كانت مجهولة في ذلك العهد، وكان الإسكندر مع ذلك يختم الوثائق الرسمية بخاتم دارا.

كان من حرصه أن زار جميع مقاطعات الولايات المتحدة الآرامية، وأبرز في كل مكان كأسلافه الأخمينيين حضور الملك فعلا. وهكذا يجب أن نفهم الرحلات التي قام بها إلى بكتريان (Bactrianc) وإلى سوغديان (Sogdiane) سنة 329 – 328، وإلى كابل سنة 327، وإلى البنجاب سنة 326، وإلى الحدود الرسمية التي تعترف بها الإتفاقات الهندية البابلية. ولم يتعد في أي مكان حدود الدولة، ومن الغريب أن الإسكندر بالرغم من السمعة الحسنة التي يمجّده بها التاريخ، لم يكن فاتحا غازيا. ولم تكن سيرته ذات أي شبه بسيرة أتيلا (Attila) أونابليون. وقد اقتصر على زيارة مملكته، ولم يقصد إلى الإستيلاء على ما هو للغير، ولم يكن يفكر عندما عاد إلى سوز (Suse) في ربيع سنة 324 بعد عناء رحلة عبر البلوشستان (Belouchistan) وتاركا الأميرال نيارك (Néarque) أيبا عن طريق الخليج الفارسي، لم يكن يفكر أن هذه الزيارات قد انتهت، كان ينوي أن يواصلها برحلة إلى ليبيا وإلى قرطاجنة وإيبريا، لكن الوفاة فاجأته. وذلك مما يدل على أن هذه البلدان، كانت مندرجة في منطقة النفوذ البابلية. فلنحفظ قائمتها. وستندرج فيما بعد في الفضاء التاريخي العربي لأنّها داخلة في

الفضاء التاريخي الآرامي منذ عهد الأخمينيين. وقد اعتبرت الخطة الإستراتيجية التي سلكها الإسكندر في بلاد ما بين النهرين والجزيرة العربية وفي الخليج الفارسي على أنها خطة جديدة رائعة، وظن الظانون أنه هوالذي ابتدع الصلة البحرية بين مصب نهر الأندوس ومصب نهري دجلة والفرات، وتوهّموا أنه كان مهتم الخاطر بأمر "البحر الخارجي". هذا والحال أن خطة الإسكندر هذه المنوّه بها، كانت معروفة منفذة منذ دارا الكبير، وقبل عهده بلا شك. وقد قال ذلك هردوت بكل صراحة. لقد استخدم الإسكندر البحارين والجغرافيين والرحالين والتجار الذين كانوا يخدمون الأخمينيين لنفس الأغراض وفي نفس المسالك والطرقات.

وكان دارا ضم الحوض الأعلى من نهر الأندوس ابتداء من نهاية القرن السادس (ق.م) وصارت العلاقات والمواصلات بين كابل وبابل منتظمة سواء، عن طريق البحر أوعن الطريق البر.

كان الإسكندر عارفا بشؤون الدولة وأحوال آسيا، وبمجرد الإستيلاء على برسبوليس (Persépolis) أرجع الفرق اليونانية من جيشه إلى بلادها، وأقر الحكام (المرازبة) والقادة الفرس في وظائفهم. وأجري تنظيم جديد في الجيش على الطريقة الفارسية وبالفارسيين. كانت الريبة تشمل حتى الفرق المقدونية بحيث إنّه، بعد ثورة حامية أوبيس (Opis)، ألّف الحرس الشخصي الملكي من عناصر فارسيين لا غير، ابتداء من سنة 325 (ق.م) كل هذا حكي لنا في الأنباز لأريان (Anabase d'Arrien) وفي تراجم بلوتارك (Plutarque). وهذان المؤرخان كان أولهما من القرن الثاني، والثاني من القرن الأول قبل الميلاد، ولم يكونا بالطبع من الحاضرين لمنجزات ومآثر بطلهما.

على أنهما كانا يرجعان إلى مصادر موثوق بها، وإلى الأخبار التي حرّرها مؤخرا بطليموس قائد الإسكندر السابق، الذي صار بعد ملكا على مصر. وعليه فإن معلوماتنا سليمة ولكن المعلقين المتأخرين المعاصرين، كانوا متعصّبين وفسروا أعمال الإسكندر بأنها محاولة لبسط سيادة اليونان، مع أنها فكرة لا يمكن تصورها.

وقد بقيت اللغة الآرامية لغة الإدارة مع ملاحظات مباشرة أما بالكتابة المسمارية أوبالأبجدية الفينيقية أوالمصرية، وإما بأحرف يونانية معبّرة عن الآرامية؛ إن اللغتين الآرامية واليونانية كانتا مختلطتين منذ زمن طويل فتأكد اتحاد جذورهما وبنياتهما، لا بفعل من إرادة الإسكندر أوجماعة من جنوده المقدونيين، وإنما بسبب تداخل بطيء ناتج عن العلاقات الدائمة بينهما كان ذلك زواجا بين اللغتين وزواجا بين الشعبين. وبالفعل فإن تسعين من رفاق الإسكندر تزوجوا ببنات من الأرسطوقراطية الفارسية وتزوج الإسكندر نفسه حسب التقاليد الأسيوية (بتناول الخبز لا الخمر)، بالأميرة روسكان (Roscane) وجرت في سوز في هذه المناسبة حفلات فخمة أعجب بها السكان، ولكن لم يرأى شخص فيها مظاهرة سياسية تخفي الرغبة في ضم اليونان إلى آسيا. وقد انقضى أكثر من ألف سنة وهما جسد واحد ولم يثر قط أيّ زواج بين أشخاص من الضفتين (المجازات) أي استغراب من السكان.

ومن الغرابة الغريبة أن نقرأ مثل الملاحظة التالية المقيدة في كتاب مدرسي : "إنّ الإسكندر الأكبر قد عرف الغرب (أوربا) بالمشرق. وكانت له فكرة نبيلة إذ هدف إلى تذويب المشارقة والغربيّين في شعب واحد

والجمع بين اليونان والبربار" إن كلمة البربار غير متوقعة حقا في هذا المقام، ولكن استعمالها دليل على ما وراء الكلمات من تفكير. ومهما كان فلا توجد أية شهادة من العهد، لا تذكر ولا تتحدث عن تداخل ديني وفلسفي كامل بين الشعبين. كان الكهان اليونان وقساوسة الفرس يشتركان في الحفلات الرسمية، ويؤديان المراسم معا. ويحكى الأستاذ ألثيم (Altheim) في كتابه المحكم عن الإسكندر وآسيا [1] إنه بمناسبة جنازة هفاستيون (Héphaistion) أحد أقرباء الملك، أطفئت النيران المقدسة في الهياكل الآشورية البابلية، حدادًا على الهالك.

وما كان دين الإسكندر بالضبط؛ إننا لا نعرف شيئا بالتحقيق؛ والظاهر أنه دين مبني على التوفيق بين عقائد ذلك العصر؛ وقد شوهد وهويحتفل بديونيسوس، وهرقليس (السلف الأسطوري للأسرة المقدونية) وأورفي وسيبال (Cybele) وأل، والشمس وجوبتر وإزيس وآبيس، ولم تكن ثمة طائفة مقدسة العقيدة ولم تحظ بموافقة راضية من الإسكندر. وقد نصت الأخبار على إجتماعاته باليهود، وأعرب في صور وفي القدس عن إجلاله للأله الفلسطيني؛ على أنه إنما طلب التصديق الأعلى من آمون في مصر في حدود وأطراف ليبيا. وقد اعترف به كاهن آمون وأعلن "أنه ابن اللّه" وخوّله بذلك التصديق السحري الذي يخوّل لملوك فرنسا بحفل التقديس في رانس (Reins) ذلك لأنه لا يمكن أن يطمح إلى لقب رئيس الدولة، إلا من يعتبر "إبنا للّه" لأنه بانخراطه في النظام الكوني، يصير ربّ القانون الطبيعي، أي السيادة اللازمة لبقاء المجتمع في مسار الكواكب والفصول

1 - Editions Payot. Paris 1954.

والتطورات الفلكية. هذا لأن أهل العصور القديمة كانوا يفهمون أن الفرد يجوز أن يكون مصيره موقتا، ولكنهم كانوا يعتبرون المجتمع الإنساني صورة من المجتمع السماوي (اللّه). فليس من العادي أن يسيره إنسان عادي، لا صلة له مع مجتمع الخالدين. ولم تكن ثمة سلطة إلا سلطة للملك ولا شرعية للملكية إلا بحق إلهي.

فإذا قصد المقدوني تلميذ أرسطو، إلى معبد آمون المصري، ليطلب الإذن لإعتلاء العرش البابلي، فذلك دليل صريح على وحدة النظام في المشرق. فالدين كان واحدًا على تعدّد مظاهره؛ والدولة واحدة بالرغم من لا مركزية الجماعات المختلفة؛ والقانون واحد بالرغم من التنسيقات التي تفرضها الظروف المحلية، ولم يكن يكفي للأسكندر ليخلف دارا الثالث، واتخاذ التاج الملكي أن يكون مرشحا من الحزب المطالب بالشرعية. كان لا بّد له من أن يتأكد ذلك من قبل سلطة عليا؛ وهذه السلطة هي آمون.

وبمجرد أن تحدث آمون (كاهنه) خضعت جميع الأديان، وفي هذا الحدث موضوع للتأمل غير عادي لمؤرخ الأديان وعقائد العصور القديمة، فإذا كانت مصر هي "الفاتيكان" المسيطر، وإذا كانت جميع الآلهة متجهة إلى مصر، باعتبارها المنبع و"أم الدنيا" فلا بد لنا من الإعتراف بأنّ مصر، كانت ذات سيادة روحية لا تنازع فيها، وأن نراجع رأينا في الأصالة المعزوة للديانات المسماة بالديانات التوحيدية. إن هذه الديانات متجاوبة كلها مع صدى ونغم جميع العقائد المشرقية، وهي تنتمي كغيرها من الديانات إلى إله مصر، إن تجربة الإسكندر أسمى من درس في فن الحرب؛ وهي بتأدية مثل هذه النتيجة، تقدم إلينا معلومات ثمينة عن التسامح وعن العقيدة

الحقيقية في المشرق. إن هذه العقيدة وإيمانها، تتجاوز حدود المناسك والشعائر، وتسمو إلى أعلى مستويات الفكر، التي تلتقي فيها الجهود الإنسانية وتنمحي فيها الخلافات.

وكان القدماء يرون أنّه ينبغي أن يكون حكم مجتمع الناس من مثل هذا المستوى الأعلى؛ الأمر الذي يقضي من قبل الملك، الإرتفاع عن جميع الأديان، وأن يفهمها ويتكفل بها كلها، وباختصار، إن لم يكن اللّه، أن يكون "إبن اللّه". وكذلك سمي الإسكندر كما سمي قبله سيروس ودارا (دريوس) أورمسيس. وما أكثر ما سال من الحبر بسبب هذه الصبغة المعبرة عن الإجلال! وقد اعتبرها البعض علامة على حلول العصور الجديدة، وحدوث هيلينية (Héllinisme) ممهدة للمسيحية، في حين أنه ليست سوى لقب يطلق على صاحب التاج، فلا أكثر من ذلك ولا أقل أيضا.

إن الإسكندر بصفته ملكا آراميا، ينتمي إلى التقاليد التاريخية العربية كما هوحال تاريخ اليونان على الأقل، ولكن أغلب المعلقين يتجاهلون ذلك، ويرتكب تلامذتنا نفس الخطأ، إذ يجهلون مثلا أن شارلمان لم يكن فرنسيا "صرفا" والتسمية بالإسكندر أواسكندر (سكندر) لاتزال جارية تطلق على أطفال العرب. وهذا أيضا له معناه لأن مصير الإسكندر، خلافا لما يظن عادة إذ ليس مسؤولا عن ذلك، فالإسكندر تسمية آرامية قديمة اتخذها اليونان وحولوها إلى ألكسندروس (Alexandros) التي سمّي بها من قبل أمير طروادي (هوباريس بن بريام). ولأن أغلب علماء الإشتقاق من أصحاب الدراسات الهيلينية، في الغرب (الأوربي) خاصة، قلبوا الأدوار

واشتقوا صيغة آرامية من جذر يظنون أنه يوناني ومرة أخرى إنهم "وضعوا المحراث أمام الثيران"[1] فإذا كان ثمة عرب يسمون باسكندر، فليس ذلك تقليدا لإبن فيليب المقدوني، بل إنه هوالذي يدين لهم بذلك.

عندما توفي في شهر يونيو 323 ق.م، وعمره ثلاث وثلاثون سنة، بعد رجوعه من الهند، لم يدخل في حساب ميراثه إلا المشرق والمشرق وحده. كانت الملكة روكسان (Roxane) حاملا بالإسكندر الثاني، الذي يجب أن يسند إليه العرش وفقًا لقانون الأسرة الملكية. وريثما يتم ذلك ووفقا أيضا للدستور الجاري به العمل، عيّن مجلس وصاية وولاية العهد، كما عيّن ملك موقت هوفيليب أريدي (Philippe Arrhidie) الأخ غير الشقيق للملك المتوفى، وعيّن الجنرال بردكاس (Perdicas) وزيرا أول.

وقد تحرز هذا من المطامح السياسية التي بدت من جنرالات الإسكندر، فعمل على إنقاذ مبدأ الخلافة للملك، باعتبارها خلافة لملكية من حق الله، ولإنقاذ وحدة الدولة. وقد غلب واغتاله أعداؤه. وحاول الفارسي أومن "(Eumène) وزير الأسرار" سابقا وصاحب الختم الملكي، أن يحقق مراده. ولكنه اغتيل هوأيضا بأمر من القادة. واغتيل بعده الملك الوصي على العرش فيليب أريدي (Ph. Arrhidie) بأمر من حماته أولمبياس (Olympias) والدة الإسكندر الأكبر، المهتمة بنجاة حفيدها الإسكندر أيضا. وأعدمت ألمبياس بدورها، ووضعت الملكة روكسان وابنها وعمره اثنتا عشرة سنة، تحت الرقابة الجبرية وأعدما سنة 310.

وبذلك لم يبق أي فرد من أفراد الأسرة المالكة، وانهارت الوحدة السياسية التي أقامها دارا منذ سنة 522 ق.م، في الولايات المتحدة

---

1 – ترجمة من الفرنسية : Mettre la charrue avant les boeufs

الآرامية، على دعامتين متينتين هي مصر وبابل. وقد عجز خلفاء الإسكندر عن صيانة وحدة الدّولة، فاقتسموا الميراث وشجعوا بذلك الخلافات السياسية بين الدولة الجديدة التي تم تأسيسها. ولكن الإنسجام الثقافي والديني والإقتصادي والإستراتيجي سيبقى متينا في صفوف الشعب الآرامي ويقهر التقلبات العسكرية والدبلوماسية. ويكفي لذلك أن ينظم مسعى سياسي صارم وواسع لتحقيق الوحدة المفككة، من جديد. هذه الوحدة تحققها الأمبرطورية الرومانية في بيزنطة، وستحميها الخلافة العربية ثم العثمانية في ضورتها الأخمينية الشاملة.

وترى النهضة العصرية القائمة اليوم باسم العروبة أو"الأمة العربية" في هذه الوحدة هدفها الأسمى. فالمفكرون والخبراء المدافعون عن العروبة ليسوا سوى منفذين لوصاية دارا والإسكندر. وهم ينقادون لتقاليد شعبية قديمة كقدم العالم. وبدل أن تحلّل الحكومات الأشياء تحليلا سطحيا، وانتهاج ما تمليه الظروف الموقتة ينبغي لها أن تمعن النظر في حقيقة متأصلة في أعماق بلاد المشرق، وأن تتفهم بوضوح ودراية التاريخ الآرامي لتعرف قواعده ومبانيه.

ولنعد بعد إلى قادة الإسكندر وجنرالاته بعد معارك دامية ومؤامرات تسربت في مجاهل الأسرار، انتهت معركة إبصوص (Ipsos) في افريجيا (Phrygie) باتفاق قسم الدولة إلى أربع دول متجاورة، متكاملة ومتنافسة في نفس الوقت؛ دولة مقدونيا واليونان التي خصت بكاسندر (Cassandre) ابن أنتباتروس (Antipatros) كميراث؛ ومملكة ليزيماك (Lysimaque) وتشمل المجازات أي اطراقيا وآسيا الصغرى إلى جبال طوروس (Taurus)؛ ومملكة

سلوقوس (Seleucos) إلى بحر إيجي (Egée)؛ وأخيرا مصر بالحاق سوريا الجنوبية [1] بها، مع أكبر جزء من الجزيرة العربية، واسندت إلى سيادة بطليموس بن لاغوس (Lagos) وبذلك انقلبنا إلى الوضعية التي كان عليها عالم الأرميين في عهد الأسرة الثامنة عشر الفرعونية، في حين كان المشرق مقسمًا بين مصر، والكلدان (بابل) والمملكة الحثية.

أما المناطق التي وراء المجازات فقد كانت من ملحقات الدول الثلاث الأخرى، وبذلك يعيد التاريخ نفسه، ونرى الأشوريين والمصريين (وفي هذه المناسبة السلوقيين والبطليموسيين) يتحاربون للإستيلاء على فلسطين وخليج العقبة. وتنظم من جديد، حملات إلى نهر الأورنت (العاصي) (Oronte) في اتجاه قوادش وأنطاكية، ويلتقي في أطراف الفرات الأعلى جيوش من مصر ومن الخليج الفارسي ومن اطراقيا. وظهرت من جديد في البلاغات العسكرية، أسماء غزة ورافع وقرقميش وبيزنطة وسلامين وإفيز إلخ. فلا جديد تحت الشمس كما قال اكلزياست (Ecclésiate) هذا البابلي المجهول، الذي جرب كل شيء.

ومن بين رؤساء الدول الذين استقروا في عواصمهم الأربع، رئيس تغلّب على حسابات الآخرين باحتياطه وحذره؛ وهوبطليموس، وقد عرف هوأنّ الملوك الحقيقيين لا يموتون لأن "ابن الله" لا يكون مصيره كمصير جميع الناس، وحتى إذا هلك فإن الملك لا يزال حيا. وقد بقي على حرصه "ساهرا على نجاة الدّولة" ودعم أنصارها. ومن ذلك أن بطليموس، نجح في اجتذاب جثة الإسكندر وتحويلها عن طريق مقدونيا لنقلها إلى مصر،

---

1 – سوريا الجنوبية أو بالفرنسية (La syrie creuse) في النص الفرنسي

مملكته ودفنها في المدينة الناشئة الإسكندرية. وذلك حدث خطير، لأن هذه هي أول مرة يدفن ملك كبير، ملك على مصر والكلدان (بابل) في مصر المقدسة. وإلى ذلك العهد كانت أضرحة الأخمينيين شرقي دجلة.

إن مدفن الإسكندر المقدوني في مصر، رمز كبير، يحي الصبغة الأمبرطورية التي كانت لمصر، ويتيح لأسرة اللاّغوسيين (Lagides) (البطالسة) سلطة عليا، وخاصة لأنّها اتحذت ممفيس عاصمة لها ريثما تستقر بعد ذلك في الإسكندرية.



البطالسة والسلوقيون
الورثة المتعادون

كان السلوقيون والبطالسة من بين الأسر المالكة الثلاث ذات الحق الإلهي، (والثالثة هي أسرة الأنتغونيين) (Antigonides) آراميتين في جوهرهما، وكانتا تمارسان سيادة دائمة على تاريخ البحر المتوسط حتى القرنين السابع والثامن الميلاديين، بما في ذلك في الفترة المسماة بالعهد الرّوماني أو"الأمبرطورية الرومانية" وسنرى أن هذه الأمبرطورية لم يكن لها اعتبار في الحساب إلا ابتداء من امتثالها كوارثة للتركة السلوقية والبطليموسية، على غرار ما فعل الإسكندر، وارث الأخمينيين. ورغم أن مصر احتفظت مدة طويلة بالسيادة الروحية، وبقيت المرجع القانوني المثالي، تضاءل دورها أمام الدور الذي ناب لسوريا وبابل، الغنيتين بنحو ثلاثين مليون نسمة، المهيأتين لاستقبال الثروات الأسيوية من الهند والجزر الهندية والصين، بينما لم تكن مصر آهلة بأكثر من سبعة أوثمانية ملايين نسمة، لذلك تقهقرت الإسكندرية تدريجيا أمام بيزنطة التي تسمت بالقسطنطينية، ولكن التطور لم يتم إلا بعد ستة قرون، عندما استقر البطالسة في مصر، كانت لا تزال تسود بسلطانها الديني والاقتصادي والإستراتيجي. أما السلوقيون فلم يتمكنوا قط من إقامة سلطان مستقر لا

يتزعزع، كسلطان مصر، بسبب التهديدات الدائمة المتكررة من الحدود الشرقية والشمالية لممتلكاتهم.

كان الملك إلاها، وينظم التشريفات الإلهية لسلفه المتوفى، في حفلة "التأليه" (التمجيد) تتخذها الأمبرطورية الرومانية فيما بعد، شعيرة ومرسما دستوريا. وكان الأمر كذلك في بابل حيث يدعى الملك، "إيبفان" (Epiphane) أي الإله المشهود. ومن أثر هذه التقاليد أن بذلت تكاليف كبيرة في مصر، وفي بلاد بابل، ومملكة المجازات واليونان، لممارسة تقاليد عقيدة إزيس وأوزريس، وسيبال، ومترا (Mithra) وأورفي.

وقد يندهش السياح الذين يزورون هياكل ومعابد وادي النيل، عندما يشاهدون حالة البناءات المصونة ونقاء الرسوم الجدارية، وبريق المصوغات الذهبية وحلي الطقوس. ذلك أنّ معابد مصر القديمة حظيت دائما بالعناية والصيانة وبقيت مكان عبادة مدة طويلة بعد الميلاد. ولا يرجع خرابها وتدهورها إلا بعد الغزوات الأجنبية وإلى عهد الإدارة التركية التي نعرف أنها لم تعن إلا قليلا بالحفاظ على الميراث الآرامي، وهو غير ميراثها.

وقد أعيد بناء مدينتي إفيز (Ephèse) وميلات بينما أنشئت مدن جديدة في مملكة المجازات، مثل لاوديسي (Laodicée) آبامي (Apamée) وبرغام (Pergame). كان السلوقيون من كبار المشيّدين بصورة خاصة. وقد أسسوا، في سوريا بلادهم المفضلة، ما بين الفرات الأعلى وساحل البحر، حيث كانت تتواجه الجيوش منذ عدة قرون، أسّسوا مدينة أنطاكية الرائعة وميناءها المسمى سلوقي؛ (Seleucie) وأسسوا مدينة أخرى باسم أنطاكية في ناحية قاصية بتركستان، وسط واحات مرو. كما أسّسوا على الضّفة اليمنى من

دجلة، غير بعيد من القرية العراقية الحالية، إسكندرية، مدينة باسم سلوقي (Seleucie) التي بلغ عدد سكانها ستمائة ألف نسمة. ولا نستغربن عندما نلاحظ وجود مدن عديدة باسم واحد، في قائمة هذه الإنشاءات الجديدة. ففي كل مكان، من ليبيا إلى الهندوكش نعثر على مدن باسم الإسكندرية وبطلوميس (Ptolemaîs) وسلوقي، وأنطاكية أوأرزينوي (Arsinoé) تشريفا للأمراء أوالأميرات من الأسرة المقدونية. وهل يوجد من داع إلى الإضافة بأنّ الإنسجام الديني والثقافي في هذا المحيط الجديد، كان مدعوما بوحدة لغوية تستخدم اليونانية والآرامية، وإن كانت الآرامية هي اللغة السائدة إلى حد بعيد في استعمال عامة الشعب؟ فإذا حدّثنا المحدثون عن الأمبرطورية اليونانية، فما ذلك إلا تشويه آخر للحقيقة.

فالهيلينية (Héllénisme) التي لم تكن إلا نقلا مسجلا للحضارة الإيجية الآرامية، لم تزل تمثل الصّورة دون المضمون لحياة الدولة في المشرق. وقد كانت الإسكندرية في القرن الثالث الميلادي عندما أكسبها بطليموس الثالث الإزدهار الرائع الذي نعرفه، والذي جعل منها عاصمة العالم حقا، كانت فينيقيّة بمينائها ومنارتها، وسمعتها البحرية؛ كانت فلسطينية بابلية بتقاليدها الدينية التي دوّنت نصوصها؛ وكانت بطبيعة الحال مصرية بمعماريتها واشتمالها على سكان من مختلف الوطنيات؛ ولم تكن يونانية إلاّ بما كان بها من مجتمع صغير يتألف من سيّاسيين وعلماء. وينبغي في هذا المجال أن نلفت نظرنا إلى ملاحظة من العالم الألماني سبلنجلر (Splengler)[1] الذي قال : "إنّ الذي نعرفه من رياضيات الإسكندرية

1 - Splengler, *Declin de l'occident* Tome I. ed N.R.F. 1949 p. 73.

يفرض في هذا المجال حركة كبيرة يقع مركزها من غير شك في جامعات إديس (Edesse) وكيشابور (Kishapour) وستزفون (Stesiphon) التي لم يتسرب إلا بعض خاصيّاتها. فقط، إلى مجال اللغة في العصور القديمة، وبالرغم من أن إسم زينودور (Zenodore) الذي عالج الأشكال ذات الدائرات المتساوية (Isopérimetriques) إسم يوناني، كإسم سرنوس (Sérenos) الذي عني بخاصيات شبكة ضوئية متناسقة في الفضاء، وكإسم هبسكلاس (Hypsicles) الذي استخدم القسمة الكلدانية للدائرة، وديوفانت (Diophante) بصورة خاصة، فإن علماء الرياضيات الإسكندريين هم جميعا ومن غير شك من الآراميين، ولا تمثل مؤلفاتهم إلا جزءًا صغيرا جدًا من أدب لغته سورية في غالبها. وقد انتهت هذه الرياضيات إلى كمالها في نطاق العلوم العربية الإسلامية التي تلتها بدورها، بعد فترة طويلة، رياضيات غربية (أوربية) باعتبار أنها إبداع جديد في بلاد جديدة. ولكن وهما غريبا من نظرنا أرانها على أنها هي الرياضيات في عمومها[1] " أن الإسكندرية لم تكن عاصمة الدراسات الرياضية الآرامية فقط كان بها متحف أسّسه بطليموس الثالث ويعتبر معبدًا حقيقيا للمعرفة والبحوث الأنسيكلوبيدية؛ وكان بها مكتبة أسسها بطليموس الأول اعتمادًا على مجموع فرعوني من أربعمائة إلى سبعمائة ألف من الملفوفات المكتوبة. وكانت النخبة الفكرية الممثلة للحضارة مجتمعة حول هذا المتحف وهذه المكتبة؛ ولنذكر بسرعة بعض الأسماء، ومنها أبولونيوس دوبرجي (Apollonicos de Pergée) المتخصص في المقاطع المخروطية؛ أرشيميد (Archimède) المخترع المشهور للقضايا الهندسية والفيزيائية والميكانيكية؛

1 - إنتهى النقل عن سبلنجلر (Splengler).

إرطوستين (Erathosthène) وديسيارك (Dicéarque) اللذان كانا يقيسان دائرة الكرة الأرضية؛ أرسطارك (Aristarque de samos) الصّموصى الذي برهن قبل غليلي (Gallilée) على دوران الأرض حول الشمس، كما سبق أن علّم ذلك الفلكيون الكلدانيون.

وقد بلغت الدراسات التشريحية وأعمال التشريح الطبية مستوى عجيبا، واشتهر فيما بعد في عهد بطليموس السابع أسكلبياد (Asclépiade) في الطب، وهيرون (Héron) في الميكانيك. وهيبارك (Hipparque) في الفلك، وديديم (Didyme) في الدراسات اللغوية، ولماذا، ونحن نعرف كل هذا، تحدث أغلب المعلقين المحدثين عن حضارة من النوعية الثانية؟ كان الأدب غنيًّا غنى عجيبًا، مختلف الأغراض والألوان كثيف الإنتاج؛ من أعلامه المشهورين تيوكريت (Theocrite) بيون (Bion) ليكوفرون (Lycophron) الذي كان يستخدم كلمات عربية مع اليونانية، وكالّماك (Callimaque) هؤلاء كانوا أساتذة لفرجيل، وهوراس وكاتول (Catulle) وبروبرس (Properce) وأوفيد .(Ovide) يكفي هذا التعداد لنعرف أن كالماك (Callimaque) وصل إلى الإسكندرية وعمره عشرون سنة وارتقى إلى منصب مدير المكتبة. كان عربيا من ليبيا، ومن قرنية بالضبط، وهومن أسرة الباطا (Batta) من جهة أبيه، واسم والدته مقاتيما (Mégatima) (أوبالأحرى فاطمة)، لا يدع شكا عن أصله.

وهومن غير شك أجدر ممثل لما سمي بمذهب الإسكندريين (Aléxandrinisme) الواضح التأثير على بترارك (Pétrarque) ورونسار (Ronsard). وقد بهر تيوكريت المصري الصقلي الأخر، في هذا العصر الذهبي، بوسيي (Bossuet) بأسلوبه الأنشادي وصبغته الآرامية إلى درجة أنّه

شبّه مؤلفه إبيتلام إلى هيلينا (Epithalame à Helene)، بنشيد الأناشيد (Cantique des cantiques) ولا غرابة في ذلك نظرا إلى أن التوراة حررت فعلا باليونانية في الفترة التي كان يكتب فيها تيوكريت تقريبا.

ومن بالغ الإهتمام أن نتتبع التطورات الإستراتيجية الجيوسياسة التي كانت من هدف البطالسة والسلوقيين، نلاحظ قبل كل شيء أنها متكاملة، وأنها تمتد في آن واحد، في اتجاه خطوط العرض وخطوط الطول، ومحطاتها الأفقية هي أعمدة هرقل (Colonnes d'Hercule) وقرطاجنة وليبيا، ثم البكتريان (Bactriane) الأندوس وماتورة (Mathura) أي البلدان التي حافظت على التقاليد وعلى اللغة الآرامية، وهي اللغة التي عثر على أثرها في دواوين الحكومة التابعة للأسرة الملكية الهندية موريا (Maurya) كان البحر الأحمر والخليج الفارسي شوارع بحرية في هذه الإستراتيجية الأستوائية، أما الشوارع العمودية من الغرب إلى الشرق فهي الخطوط البرية ومسالك القوافل التي تنطلق من خليج غينيا (Guinée) وتلتقي في ليبيا أوفي قرطاجنة- ثمّ تمتد عن طريق البحر إلى مصب نهر الرّون (Rhône) ثمّ الران (Rhin) فبلاد الأنجليز واسكنديناوة، وأخيرا إزلندة (Islande)؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى خطّ النيل الذي يؤدي إلى جزر اليونان وقارتها، وينتهي عند كييف .(Kiev) ويصعد الخط الثالث والأخير من اليمن ويجتاز على مكة من بلاد العرب، ويمتد إلى وادي الدون (Don) عن طريق البحر الأسود وبحر قزوين (Caspienne). وبالقاء نظرة على خريطة نعرف أن البطالسة والسلوقيين كانوا مضطرين إلى استخدام هذه الطريق الأخيرة، إلى المرور على مملكة المجازات (تركيا الحالية)، التي كانت مدة طويلة هدف المنازعات

والمنافسات؛ ثم صارت باسم بيزنطة مفتاح المنطقة وصاحبة السيطرة على المجموع السلوقي البطلموسي. فهذه الإستراتيجية، استراتيجية قارية كما نرى، تنحصر عناصرها البحرية والمينائية في شبكات الأنهار والسواحل المتوسطية، نظرا إلى أن ضعف تقنيات الملاحة، لا تسمح خوض المحيطين الأطلسي والهندي. كان البطالسة يحظون بغطاء على جميع حدودهم، وخاصة من جهة الشرق بالسلوقيين؛ وكانت الجغرافيا مساعدة لهم فلم يحتاجوا إلى أعمال كبيرة بتوسيع أنشطتهم الإقتصادية والدبلوماسية. وقد اكتفى بطليموس الثاني بربط النيّل بالبحر الأحمر، وتوسيع الإسكندرية التي صارت بذلك ذات صلة مباشرة مع العالم الهندي. وقد بنى بعد ذلك ميناءين على البحر الأحمر هما ميوس هرموس (Myos Hormos) وبرنيس (Berenice) ولم يبق له لتأمين الخطّ التجاري الصاعد من اليمن إلى فلسطين وسيناء، إلا أن يتأكد من طاعة الممالك الصغيرة المبثوتة في المنطقة وهي مملكة السبئين بمأرب، والعلا، وتيمة ويثرب، ومكة وأم البيّارة (القرية التي تبنى فيها فيما بعد بتراء (Petra) وحصنها)، ملك البنطيين (الأنباط). (وقد أفاد سطربون (Strabon) بأن القوافل تقطع المسافة من عدن إلى خليج العقبة في سبعين يوما). ولم يعسر عليه الحصول على هذه الطاعة لأن المنطقة كانت تحت حماية الفراعنة منذ قيام الأسر الملكية الأولى في ممفيس. ولا تزال خرائط الطرقات في الجزيرة العربية تنص على العلا وتيمة، وبتراء وبالقرب منها معن (Maan) كمراحل لمسالك القوافل.

وقد كان السلوقيون في وضعية أكثر صعوبة؛ استفادوا من جهة البحر بالموانئ البابلية ومرافقها الواقعة في خليج البحرين على ساحل الحسا

(El Hassa) وبالضبط في جرهة (Gerrha) بالقرب من ميناء عقير، الذي غطته الرمال. أما على الضفة الأخرى من الخليج، وعلى مدخل بحر عمان، فقد وسعوا مدينة أرموز البحرية الجميلة، عاصمة مقاطعة كرماني، التسمية الآرامية التي تحدت القرون والتي تعرف اليوم بكرمان؛ وكذلك شيّدوا ميناء عند ملتقى نهري دجلة والكارون في موقع مدينة خرامشار الإيرانية، تنفيذا لمشروع أخميني. وشمال خرامشار (أوخرمشهر) شيّدوا مدينة باسم أنطاكية في ملتقى طرق لرقابة أطراف البلاد. وهي عاصمة المقاطعة التي تدعى من بعد شاراكس (Charax) وهي اليوم مدينة شيراز، على أن السلوقيين صادفوا في البر في اتجاه برسيد (Perside) وخراسان والبكتريان صعوبات شديدة سببها انتفاضة الشعوب البارتية (Parthes) التي اتخذ أحد زعمائها، أرزكس (Arsakès) لقب الملك سنة 247 ق.م، مؤسسا بذلك أسرة ملكية جديدة، يستمر ملكها إلى سنة 226 ميلادي، أي نحو خمسمائة سنة باسم الأرزوسيّين (Arsacides) ومنذ ذلك العهد أصبح تاريخ المشرق، وبالتالي تاريخ الغرب، تحت تأثير هذه الأسرة الجديدة. ومعنى ذلك أنه ابتداء من القرن الثالث ق.م، أي في عهد لا تزال فيه روما متلعثمة منخرطة في الحروب البونيقية، أخذ ثقل آسيا الوسطى يزعزع توازن النظام الآرامي القديم. وإذا قدّرنا أن الطّراقيات والداس (Daces) والسكيتيين (Scythes) كانوا يطمعون ويهمون باحتلال مدن المشرق، على ساحل البحر المتوسط وبلاد ما بين النهرين، نعرف أن الدولة الرومانية كانت قبل استتباب الأمور لها، مجذوبة حتما، وتابعة لمشرق أضخم وأكثر تهديدا وطموحا، وأكثر طاقة حربية من المشرق الذي سبق أن استحوذ على اليونان. عندما ظهرت روما إلى الوجود، اتسع المشرق

النيلي البابلي اتساعا هائلا، ناشرا ازدواجيته اللّغوية، اليونانية الآرامية حتى مناطق الهندكوش والدّانوب، جامعا تحت ظل ثقافته أكثر من خمسين مليونا من النسمات.

فإذا وضعنا الغرب (أوربا) والمشرق على حالتيهما في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد على كفتي ميزان، عرفنا أنّ كفة الغرب شبه فارغة تقريبا، أمام كتلة كفة المشرق الساحقة. إن روما لم تكن محاطة من كل جهة بالفتوحات الآرامية، ولكنها هي نفسها غارقة في التقاليد العربية الأسيوية، بايني (Enée) سلفها المؤسس لها، وبالعقيدة والعقلية الأتروسكية، وبالتواجد اليوناني الفلسطيني في كمبانيا (Campanie) وصقلية، وبروفانس (Provence)؛ وأخيرا بالنفوذ القرطاجني الذي يمتد إلى المناطق الداخلية، ويسري من السواحل التونسية والجزائرية والليبية، فما يمكن أن يكون ثقل روما أمام مثل هذا النفوذ؟ لا شيء تقريبا، وعلى غرار ما كانت أثينا أمام دارا. وإذا أردنا أن ندرس تاريخنا فلا بد لنا من خريطة تمثل آسيا بدل خريطة لروما. وإذا قورنت أخبار روما بالأحداث الكبرى التي تكررت في آسيا، من بحر إيجي إلى السهول الهندية الصينية المترامية، فلا نعتبرها إلا حدثا صغيرا، لا أهمية له، إلا لأنّه ذو صلة بمصيرنا الخاص. وبالنظر إلى الحركات التي أقلقت البشرية ولم تزل، فإنّ خطب سيسرون (Ciceron) أوحرب الغال (Guerre des gaules)، ما هي إلا أشياء عارضة. أما في نظر التقاليد الساسانية مثـــلا، فلم يتغير أيّ شيء تقريبا في العالم منذ وفاة الإسكندر، إلى عهد أردشيـــر الأول ابتداء من سنة 227 ب.م. إن روما لم تكن تدخل في الإعتبار في بلـــدان أخرى غير بلداننا.

وقد نحتاج إلى التكرار والتذكير بما قلناه. وقد أوضحنا وأبرزنا الفرق الشاسع الذي كانْ بين القوات اليونانية وقوات الدولة الفارسية قبيل نشوب الحروب الميدية. وهذا الفرق أعظم وأخطر بين روما الناشئة الريفية، وآسيا الواسعة الثراء، ذات المدن العديدة الكبيرة، التي لم يكن لها نظير في العالم على ما نعلم، حتى في الصين والأمريكات. إنّ روما لم تكن قادرة على أن تكون بمفردها، الدولة المزعومة، وقد كانت ثقافيا تابعة لأفريقيا وآسيا، كما أوضحنا ذلك؛ وكانت إقتصاديا، فقيرة كما كانت اليونان فقيرة، لا معادن لها ولا صناعات؛ ولم تكن تملك إلا ما يسد حاجاتها إلى الغذاء. فلمن ولأي شيء يرجع مجدها الذي تحدثت به القرون؟ وكيف استطاعت الجمهورية الرومانية التي عاشت خاملة في أرض مهجورة، أن تستولي على الميراث في البحر المتوسط؟ لا يمكن تجنب النقاش في هذه القضية، ولا بد من تصحيحات.

والنقاش يقصي قبل كل شيء التعاليق التي تعتبر تضليلات مفخمة، مثل "عظمة الرّومان وتدهورهم" لمنتسكيو (Montesquieu)، مثل هذه التعاليق تقدّم في مسابقة للحصول على جائزة تفضيل، أكثر مما تعتبر دراسة سياسية؛ ومثل ذلك أيضا المؤلفات الأكاديمية التي ألفها جروم كركوبينـو (J.Carcopino)، ومنافسوه الذين يميلون إلى تفسير التاريخ بالحالات النفسية لهذا الفاتح أولأخر، وفقا لما يتصوره المؤلف ولما تمليه أهواؤه الشخصية. إن الخرافة التي تحف بملحمة روما، تجعلنا نقبل بعيون مغمضة، أخطأ التعليقات والتفسيرات إن تقديس، روما هي سبب سوء الفهم الفتاك الذي أدّى إلى القطيعة غير الطبيعية بين أوربا والمجتمع الإفريقي ـ الأسيوي، وخلق أسطورة الغرب المحزنة؛ وبالإضافة إلى ذلك خطر تقويض الأسس التي تقوم عليها ثقافتنا.

وقد وقع لروما ما وقع للإسكندر بالضبط؛ والفرق الوحيد هوأنّ الإسكندر استخدمته الدبلوماسية البابلية، بينما استخدمت أمبرطورية البطالسة المصرية روما. كانت خطة الإسكندر وخطة قيصر (César) متوازيتين شبيهتين. كانت سياسة روما تجري بأمر من المشرق ووفقا للمتطلبات الإستراتيجية المصرية. ولهذا كانت مطبقة حتما في المشرق وتندرج الخطوط الكبرى من سياسة الرومان، في الأهداف الكبرى من تاريخ المشرق، الذي أخذ في إجراء تنظيم جديد للعالم الذي مرت عليه آلاف السنين، بينما كانت روما أخذة في الظهور على ربواتها الفقيرة. وفوق كل شيء، أن مطمح البطالسة، أصحاب جثة الإسكندر المؤلهة، هوالعمل على توحيد الأمبرطورية من جديد؛ وهومطمح ينطوي على زحزحة السلوقيين خصومهم الصرحاء، والأنتغونيّين، ملوك اليونان ومقدونيا. وكانوا يعوّلون على حليفين اثنين؛ هما آسيا الصغرى في المشرق، السائدة على الفرات الأعلى والوريثة للتقاليد الميثانية الحثية، القادرة في كل حين على خنق مملكة السلوقيين؛ ثم في الغرب على صقلية ثم روما. استأنف البطالسة العمل بخطط المعارك التي وضعها توتميس ورمسيس، واتجهوا إلى نقل الحرب إلى مناطق الفرات الأعلى وإلى فلسطين، وتحالفوا في نفس الوقت مع الأسرة الأرزوسية البارتية، التي رصدت من الخلف للمملكة السلوقية، من جهة دجلة.

وكان رد السلوقيين على هذا الحلف بعقد محالفة متينة مع المقدونيين، لحصار آسيا الصغرى بين فكّي ملزمة، للأستيلاء عليها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى بعقد محالفة مع قرطاجنة لتهديد مصر من جهة ليبيا وتعطيل

علاقاتها مع الغرب، بتمكين مملكة ديدون (قرطاجنة) من الإستيلاء على صقلية واسبانيا. وكما نرى إنّ هذه المساعي عملية كبيرة نظمتها الدول الأرامية ضد دول آرامية أخرى. ولم يمكن لروما، بناءً على أصل تأسيسها الأسيوي، ولتبعيتها لصقلية وللمدن الغنية بإيطاليا الجنوبية، أن تفلت من الدور الذي فرض عليها، بعد وفاة الإسكندر، وبعد دخول ورثته في منافسة دولية، وعليه فلا يجوز درس حروب روما ومساعي دبلوماسيتها في نطاق محلي، لأنها جزء لا يتجزّأ من المناورة الكبرى، التي دفعت الدول الكبرى القائمة ما بين نهر الأندوس ونهر الإبر (Ebre)، إلى الحركة.

ولم تكن روما، إلى جنب هذه الدول إلا أداة (بيدق) بين أيدي البطالسة الذين دفعوا بها أولا، إلى خوض هجوم معاكس ضد بيروس (Pyrrhus) المقدوني، ثم ضد قرطاجنة، وضد مقدونيا بعد ذلك؛ وأخيرا ضد السلوقيين في آسيا، وإذا أغفلنا الحديث عن السنوات السابقة لسنة 280، سنة نزول بيروس (Pyrrhus) في إيطاليا، فذلك لأنّ هذه السنوات جدّ أسطورية غامضة، لا يمكن درسها بصورة سليمة. على أننا نلمس من خلال المعارك المنظمة ضد الإتروسك والصاميين (Sammites) واللاّتين والغاليين (Gaulois)، دور المدن الصقلية والمراكز اليونانية الفلسطينية، التي كانت هي نفسها تعكس المظهر الإيطالي للعواصم المشرقية الأرامية الكبيرة. إن مشاركة روما في النزاعات والحروب المشرقية، لا ترجع إلى أمس عندما واجهها بيروس، الذي لم يكن يريد منازعة روما، بل كان يريد انتزاع موانئ صقلية وإيطاليا الجنوبية من نفوذ البطالسة.

وقد هزم بيروس فاتسع المجال لعدو أكثر خطرا على مصر، هو قرطاجنة الفلسطينية التي طمحت هي الأخرى إلى الإستيلاء على صقلية، ومجاز مسينة، وقناة أوترنت (Otrante) وخليج تارنت (Tarente)، في نفس الوقت الذي كانت تتآمر في قرنية ضد بلاط الإسكندرية، وبينما انضم حليفها السلوقي إلى مقدونيا لمناوءة المؤسسات المصرية في اليونان وفي سوريا، لذلك كان لابد من تدخل عاجل ضد قرطاجنة. وكان ذلك من طرف القوات الرومانية والسلم سائدة، فاحتلت مسينة بدون تحذير ولا إنذار.

وقد دامت هذه الحرب البونيقية الأولى ثماني عشرة سنة، وقد جهزت البحرية المصرية البحرية الرومانية ودربتها وساندتها، وانتهت سنة 241 ق.م بتحرير صقلية من الجيوش القرطاجنية، وبدعم مملكة سيراكوز الصغيرة حليفة الإسكندرية وروما. وانهى بطليموس من جهته في نفس السنة حربا ضد سلوقوس (Séleucos) وخيّم بقواته في سلوقي دوبيري (Seleucie de Pierée) عند أبواب أنطاكية. فالصفقة كانت صفقة مفيدة للحلف المصري الروماني.

كان رد فعل قرطاجنة أنها استولت على المناطق المنجمية الزراعية الغنية في إسبانيا وعلى سلسلة الموانئ التي كانت مراكز للبحرية المصرية الفلسطينية، ما بين أعمدة هرقل ومصب نهر الإبر .(Ebre) ومنظم هذا الغزوهوأملخير برقة (Amalkher Barka) (أملكار). وبرقة هواسم قرنية العربي اليوم، وانتهزت قرطاجنة وفاة هيرون (Hieron) في سيراكوس التي كانت تتشوّق دائما إلى الإستيلاء عليها، فعملت على إسناد الحكم فيها إلى اثنين من أنصارها، وتدخلت روما في الحال ونشبت الحرب البونيقية الثانية التي دامت سبع عشرة سنة من 218 إلى 201 ق.م تقريبا. وقد قاد

هذه الحرب من القرطاجنيين حنّبعل بن أملكار، بعبقرية وإحكام مشهور. وقبل أن يغزو إيطاليا من سهول نهر البو (Pô) احتاط بابرام محالفة متينة مع فيليب المقدوني من جهة (محالفة دعمت وأكدتةبعد معركة كان في أبوليا (Apulie)) ومحالفة ثانية مع أنتيوكوس السلوقي (Antiochos) الأمر الذي يدل بوضوح على أنّ هذه الحرب البونيقية الثانية تندرج في استراتيجية محكمة التدبير ضد مصر. وقد كانت إنتصارات حنّبعل، إنتصارات هائلة فاستقر في كابو(Capoue) وساد على إيطاليا كملك طيلة عشر سنوات. وهنا يجدر بنا أن نلقي سؤالا، وهو لماذا لم يستول على روما التي أخليت من الجيش وهدّدت بالمجاعة، واشتريت ذمم بعض ساستها بالذهب القرطاجني؟ لم يستطع أي شخص الجواب على هذا السؤال، وبالفعل لم يكن ثمة أي مانع من دخول حنّبعل إلى روما، عاصمة العدو، وهي على وشك الإستسلام. فما هو إذن سبب هذه الوداعة الغريبة من القائد القرطاجني؟ يمكن البحث عن ذلك فيما يجري في المشرق. ففي سنة 217 ق.م أي سنة قبل معركة كان (Cannes) تقابل أنتيوكوس حليف قرطاجنة وبطليموس الحامي للرومان في معركة كبيرة برافية (Raphia)، جنوب غزة. وقد هزمت الجيوش السلوقية وأبرم الخصمان معاهدة بسرعة يمتد أجلها إلى عدة سنوات. وبذلك فقد حنبعل حليفه الأقوى الممتاز، وفقد بالتالي ما كان يتلقاه من إعانات كبيرة أسيوية ضرورية لجيشة. ويلاحظ أنّ العمليات القرطاجنية ركدت مدّة طويلة بعد معركة رافية (رفاع؟). وقد أهملت قرطاجنة بتوجيه العناية إلى شؤون المشرق، الشيء الذي طلبه وأحرزه بطليموس بعد انتصاره في رافية. ومن جهة أخرى فقد استسلمت سيراكوز سنة 212.

أما في أفريقيا (القرطاجنية) فقد شجعت مصر ومولت قيام مملكة مسينسا، المحيطة بقرطاجنة. وكانت الضربة القاضية من سبيون (Scipion) الذي نزل بأفريقيا، ولم يصعب عليه أن ينتصر في زامة (Zama) على حنبعل الذي خانه تأييد ذويه. وفي الواقع إنّ هذا الإنتصار، إنما هو إنتصار لفرسان وأفيال مسينسا الذي اضطرت قرطاجنة إلى الإعتراف بمملكته الجديدة المؤسسة حولها بحماية البطالسة. وكان ذلك سنة 201 ق.م.

وبعد هذا الحدث كان من الواجب على روما أن تبعث بجنودها الآن إلى المشرق. ذلك أنه بمناسبة إبرام معاهدة سنة 201، حضر سفراء مصر وبرغام (Pergame) ورودس ليلفتا نظر السّينا (Sénat) (مجلس الشيوخ) إلى المطامح العسكرية التي بدت من فيليب المقدوني (اليوناني) الذي اتفق من جديد مع أنتيوكوس، لتغيير الأوضاع في المشرق. كان جيشه قويا، وكانت سمعته ذائعة، قوية. وبطلب من السفراء المذكورين تولى القنصل فلامنيوس قيادة الجيوش المصرية واليونانية والآخية والإيطولية ودخل اليونان وهزم فيليب في سينوسفال (Cynocephales) وحصرت مقدونيا في حدودها الأولى، بينما استعادت الدول اليونانية إستقلالها كلا على حدة، سنة 196 ق.م، وبذلك بدأ احتضار أسرة الأنتغونيين المقدونية، مثيرا أكبر الإرتياح من البطالسة. وقد تخلى فيليب عن جميع ممتلكاته الأسيوية، وانجسر في الدانوب وفوّض مطامعه إلى إبنه برسي (Persée).

ولم يكد فيليب يتخلى عن مقاطعاته في آسيا حتى إستولى عليها أنتيوكوس الذي توغل في سوريا الشاغرة وفلسطين، واحتل سليسيا (Cilicée) واجتاز المجازات وهدّد باحتلال أطراقيا. وفي سنة 195 ق.م

استقبل في بلاطه حنبعل وعيّنه قائدًا على بعض جيوشه. وألح ملك برغام وملك مصر من جهتهما على الرومان ليتدخلوا لفائدتهما فاستجابوا لهما. وفي سنة 190 ق.م إجتاز سبيون الإفريقي (Scipion Af) البوسفور والدّردنيل بثلاثين ألف جندي (وهوعدد الجيش الذي كان للإسكندر بنفس المكان). ووقعت معركة صغيرة في مانيزي (Maynésie) واضطر أنتيوكوس إلى الإستسلام، وإبرام معاهدة أبامي (Apamée)، وتخلي لملك برغام أومين (Eumène) عن آسيا الصغرى شمال الطوروس، وجلا عن سوريا وفلسطين، ويقال أنّ حنّبعل انتحر لكي لا يقع بين أيدي الرومان. وأكّد بلين (Pline) أن ضريحه كان يرى على ضفة بحر مرمارة في ضاحية أسطاكوس (Astacos)، وقد حاول برسي آخر ملوك الأنتقونيين أن ينقذ علم أسرته ولكن بدون جدوى، إذ هزم في بدنا .(Pydna) وانقلبت مقدونيا مقاطعة رومانية يشرف حاكمها على ولايات اليونان المحصورة في أدوار مدن صغيرة. كان ذلك سنة 146 ق.م، التي انتهت فيها الحرب البونيقية الثالثة والتي أثارها مسينسا بايعاز من مصر. وقد خربت قرطاجنة، وآلت ممتلكاتها الواحدة بعد الأخرى إلى الرّومان؛ وهي اسبانيا وبروفانس (Provence) ووادي الرّون، وبلاد الغال النربونية (Gaule Narbonnaise) وباختصار جميع السواحل وأنهار غرب البحر المتوسط. وبعد وفاة أنتيوكوس الثالث وولده سلقوس الرابع، حاول أنتيوكوس الرابع إبيفان (Epiphane) أن يهجم مرة أخرى على مصر. وأمكن له الوصول إلى الدلتا سنة 169 ق.م، ولكن سفارة رومانية أمرته بالأنسحاب. ومعنى ذلك أن مجلس الشيوخ الروماني أصبح أداة طيعة للسياسة المصرية واستراتيجيتها. ومن المشكوك أن يكون الملك السلوقي قد تخوّف من

الرّومان لما نعرف له من قوة حقيقية، لكنه لم يكن يجهل باسم من يتكلم الرّومان ومن يدبّر حركاتهم وأعمالهم.

وقد وقع حدث ساطع أثبت أن النزاع القائم بين أنطاكية والإسكندرية منذ وفاة الإسكندر، لا يمكن تسويته، وذلك أنّه عندما توفي الملك أومين (Eumène) ملك برغام التابع للبطالسة وحليف الرومان سنة 160 ق.م، وكل أخاه أطالي الثاني بالمملكة فملك إلى سنة 139 ق.م وإذاك تولى إبن أومين، أطالي (Attale) الثالث العرش ولكنه توفي بدون أن يخلف وارثا، سنة 133 ق.م، ولا شك أم مطامع أنطاكية قد تحركت، ولكن كان من الواضح أنّه إذا استولى السلوقيون على المملكة، فسيكون لهم من السلطان والنفود، ما يهدد استقلال جيرانهم واستقلال مصر حتما. ودفعا لهذا الوضع أشار بلاط الإسكندرية على أطالي الثالث بأن يوصي بمملكته للشعب الروماني. وفي سنة 130 ق.م انقلبت برغام بذلك مقاطعة رومانية، وفي هذه السنة نفسها انهارت مملكة بكتريان (Bactriane) المحمية السلوقية، أمام هجومات الجيوش التركستانية. وقد دخلت روما بعد ذلك في محيط المشرق الواسع، المشرق الأدنى والأقصى، وانطوت تحت ظله. وقد كانت شمس هذا المشرق وظله يحفّان بها عند مولدها، في الواقع.

هذا وفي ختام هذه الفترة الخصبة بالأحداث الكبيرة الإستثنائية يبرز لنظرنا حدثان تاريخيان؛ ففي سنة 146 ق.م كانت نهاية دولة قرطاجنة ومملكة الأنتغونيين اليونانية؛ وفي سنة 130 ق.م كانت نهاية مملكة برغام المستقلة. وهذان الحدثان انتصاران للبطالسة الذين لم يكن لهم منازع لسلطانهم الكبير، ولا سيما أن دولة السلوقيين قد أخذت في الإنحلال.

وقد تضافرت جهود روما وجهود مصر ضد السلوقيين فاستخدموا في آن واحد أعداءهم الخارجيين البارت (Parthes) لتهديد حدودهم الشرقية، والحركات الإستقلالية المحلية لإضعافهم في الداخل، بتشجيع التمردات، والثورات والغاصبين المتهجمين على السلطة. ولنمعن النظر في خريطة المنطقة، لنلاحظ أن دولة السلوقيين كانت في المنتصف من القرن الثاني ق.م معرضة مباشرة لتدخلات البطالسة، من جهة فلسطين المفتوحة للتدخل المصري من الجنوب لإرتباط ترابها بأملاك البطالسة، ومن جهة الشمال إذ تشرف عليها قبرص وبلاد آسيا الصغرى الواسعة التي يحكمها رسميا حاكم روماني، والتي هي في الواقع، نظرا لمدنها الغنية العديدة وجيشها وسكانها الكثيرين الناشطين مملكة مستقلة تحت النفوذ المصري. وبناء على ذلك فإن التدخل المصري الروماني يكون عن طريق فلسطين بينما يتوغل البارتيون (Parthes) سنة 141 ق.م، ويصلون إلى بابل، وينهبون البلاد ويرغمون السلوقيين على الإقتناع بمنطقة محصورة في الفرات، كان السلوقيون مجتهدين في الدفاع عن فلسطين وحمايتها ولا سيما لشعورهم بالضعف في مناطقهم الشرقية؛ وكانوا يحرصون خاصة على حلفهم من الأنباط المسيطرين على التجارة البرية بين جنوب البلاد العربية وإثيوبيا، في حين كان البحر الأحمر تحت الرقابة المصرية. وبفضل هذا الحلف المبرم بين أنطاكية وملوك الأنباط، المجدد بانتظام، إستطاع السلوقيون أن يعوضوا بمكانتهم غربي بلادهم، ما ضيعوا في شرقيها. ومن الصحيح أن المصريين البطالسة النازلين بقوة في غزة، منتهي طريق القوافل المشرف على البحر، كانوا يمنعون الأنباط من التجارة في البحر المتوسط، ويحصرونهم في مناطق

الرمال. وبالإضافة إلى ذلك إن البطالسة كانوا متحالفين مع المدن الأردنية وخاصة مع زعماء اليهود مثل هركان (Hyrcan) وكانوا بذلك يعوقون حركة الأنباط وينهبون قوافلهم ويهاجمون حصونهم. وقد نشبت حرب دائمة لا هوادة فيها بين الأنباط وطوائف اليهود بالقدس ومدن أخرى أردنية. ففي سنة 168 ق.م مثلا، هزم الأمير الأنباطي، أركاس (Arekas) جازون (Jason) اليهودي الذي فر إلى مصر. وقد وصف لنا كتاب أنباطي ثمين، جميع هذه المناطق وأوضح أغراض التيارات السياسية المختلفة إذاك؛ هذا الكتاب هومن تأليف يامبولوس (Iamboulos) الذي صاغه في صورة رحلة مروية، مثل قصة مغامرة السندباد البحري، أورحلة ماركوبولو. وقد قص فيه رحلته إلى جزر الفرتوني - (Fortunées) وهي جزر الكناري-. قد ضاع أصل هذا الكتاب ونقل لنا ديودور الصقلي ولوسيان مقتطفات منه.

إن الجزيرة العربية التي تطل سواحلها على المحيط الهندي وملحقتيه البحر الأحمر والخليج الفارسي، كان هدف نزاع شديد بين الإسكندرية وأنطاكية وكان من الحرب الصريحة المشروعة أن تعين مصر وروما على استقلال المدن السلوقية للإستيلاء عليها فيما بعد، مثل مدينة القدس وسكانها اليهود. ومن الخطأ أن نرى في هذه المناورة أهدافا ونوايا دينية. ذلك أن التداخل بين عقائد آمون وبعل ويهوى والأرباب "الكابير" (Kabires) كان تداخلا عميقا جامعا لهذه العقائد، وكان على أتباع كل عقيدة سمة تديّن واحدة.

وقد تكررت المناسبات التي "صعد" فيها البطالسة والسلوقيّون إلى هيكل اليهود في القدس، وفي كل مكان للتعبد فيه. وكانت المعاهدات تبرم

بين الأطراف المتعاقدة باسم آلهة جميع الناس. نقل لنا المؤرخ اليوناني بوليب (Polybe) نصّا مفيدا للمعاهدة التي أبرمت سنة 215 ق.م. بين حنبعل الآرامي وفيليب الخامس المقدوني اليوناني، وفيه نكشف أن الربوبية لا حدود لها، إذ يقول النص: "بمحضر زوس، وهيرا (Héra) وأبولون، وبمحضر من رب القرطاجنيين وهرقلس، ويولاووس (Iolaos) وبمحضر آريس وتريتون وبوسدون (Poscidon)، وبمحضر الآلهة التي تحارب معنا والشمس والقمر والأرض، وبمحضر الأنهار والبحيرات والمياه؛ بمحضر جميع الآلهة أرباب قرطاجنة، بمحضر أرباب مقدونيا وباقي اليونان، وبمحضر أرباب جميع الشعوب التي تشارك في الحملة، وباشرافها فإن الجنرال حنّبعل يقسم ..."[1] ولم يعتبر فلافيوس جوزيف الإتفاقات السرية بين القدس والبطالسة ولا المساعدة العسكرية والمالية التي يقدمها "كبار المضحين اليهود" (Grands sacrificateurs juifs) إلى أعداء الأسرة السلوقية مثل بلاس (Balas) وترفون وزبيناس، الذين استولوا محليا على السلطة الملكية. وقد حكي في كتابه "تاريخ اليهود القديم" (الكتاب XII الفصل 17) في أية ظروف بعث جودا ماكشابي (J. Macchabée) أوبوليم (Eupolème) وجازون سفيرين إلى مجلس شيوخ روما، لإبرام معاهدة أولى "جددت عدة مرات" كما أوضح ذلك. وهذه بعض سطور هذه المعاهدة: "لا أحد ممن يخضعون للرّومان يقوم بحرب ضد اليهود، ولا يعين أعداءهم، بامدادهم بالقموح والمراكب أوبالمال، وعلى الرومان أن يعينوا اليهود بجميع طاقاتهم ضد من

1 – نقل جـروم كركوبينـو (J. Carcopino) في كتابـه : "*Profils de conquerants* ملامـح فاتحين" نشر فلاماريـون 1961 (ص 128).

يهجمون عليهم. وعلى اليهود من جهتهم أن يعينوا الرومان إذا حدث أن وقع عليهم هجوم". وقد إجتهد المصريّون والـرومان بكل حيلهم وانتهوا في سنة 140 ق.م إلى فصل إمارة القدس الصغيرة عن مملكة السلوقيين، هذه الإمارة التي كان أول ملك لليهود بها، هو أرسطوبول (Aristobule) على ما ذكر فلافيوس جوزيف. ولكن خالفه الإسكندر كان قاسيا فظيعا إلى درجة أنّ الشعب قد ثار ودعى السلوقيين لنجدته. وكما نرى، فإن فلسطين أصبحت ميدان نزاع شديد بين الإسكندرية وأنطاكية. أما المدن الصغيرة بالمنطقة فقد كانت تقوم بدور ثانوي كضحايا وأتباع موقتة لفترة ما.

ومن المصادفة أن المسيحية والأدب الموجه بجميع صوره ساعدا على إبراز التمردات اليهودية فقط، بينما كانت جميع المدن الصغيرة الكثيرة في البلاد السورية، الفلسطينية، تتكبّد نفس المصير التاريخي؛ كانت تابعة حينا لهذه الدولة وحينا آخر لغيرها، وتتقاتل لفائدة هذه الدول الكبرى. ومن ذلك أن هركان (Hircan) أمير القدس، وحليف الرومان، قام بحصار مدينة ساماري (Samarie) التابعة للسلوقيين، وبعد سنة من المعارك الدامية "هدمها كلّها وأجرى عليها سيولا لم تدع لها أيه صورة كمدينة" ومن المؤسف أننا لا نملك تواريخ صور وسيشم (Sichem) وغيزر وبير سبع، وأريحا وأراد والخليل وغزة وغيرها من المدن؛ إذن لعرفنا أنه كانت تجري بها أحداث سياسية شبيهة وأن الدين لم يكن يحتل مكانا أكبر مما كان في أي مكان. كانت فلسطين خاضعة لإستراتيجية صارمة من البطالسة والسلوقيين وكان ينبغي أن تجرد من الهالة الدينية التي رسمتها لها نزعاتنا للغلو والمبالغة. وينبغي إلى ذلك أن نعدل عن خطأ اعتبار القدس أكبر مدينة في فلسطين في تلك الفترة. إنها لم توصف

بذلك في تواريخ وأخبار السلوقيين ولا الرومان ولا البطالسة. ولم تحظ بأية علامة ولا أي تبجيل خاص في القرن الثاني ق.م. وكان الكهان في دلف، وفي أفريجيا، ورمال ليبيا، والعرافات في كوم (Cumes) وإفيز (Ephèse) يحدّدون العادات وتقاليد المجتمع. فغزة وطبرية وسباسط (Sebaste) وجوبي (يافا؟) وأدورة ولاريسة ولدّة (اللد) وصيداء ذات أهمية لا تقل عن أهمية القدس، ولكن أين هي أخبارها وتواريخها؟ كل هذه المدن كانت مقدسة بطبيعة الحال، لأن كل مدينة في العصور القديمة مقدسة بتعريفها، وكل واحدة منها عاصمة نظرا إلى أن اللاّمركزية الإدارية تجعل من كل مجمّع حضري مقر إمارة وحكم.

روما المستعمرة المصرية

"قد بيعت روما للمشرق"

كان مسرح الأحداث في منتصف القرن الثاني (ق.م) مهيأ لحركات تاريخية كبيرة. وقد خلفت الإسكندرية بابل كعاصمة لعالم احتلت فيه روما المكان الذي كان قبل لمقدونيا وبيمنا كانت السياسة والثقافة الآرامية تزداد اتساعا وتعمقا في أوربا الغربية، أخذت تنحسر في المشرق بسبب هجومات شعوب الشرق الأقصى التي واجه السلوقيّون ضرباتها الأولى، تمهيدا للفتوحات التركية أوالمغولية الكبيرة. أما في الحاضر فإن الإسكندرية تتحكم في منطقة البحر المتوسط وروما في خدمتها، معنى ذلك أن روما تتعرّب، ولا ننسى أنّها بالحاق صقلية واليونان الكبرى بادراتها، غزاها بسرعة نظام بنوك مختلف الجنسيات، يجري وراء الأرباح، وتمونه العواصم الأسيوية. وهونظام خرب بسرعة الإقتصاد الريفي الفقير، الذي كان هوإقتصاد روما، المدينة الصغيرة الرعوية العسكرية في بداية عصورها. وبمجرد اتصالها بالمدن الكبيرة بجنوب إيطاليا، المشيدة وفقا لتصاميم صارمة، الغنية بالتماثيل والمعابد والمدارس الفلسفية والعلمية، ذات الشهرة الدولية، تغيرت صورتها وملامحها. وقد أدخلت التعديلات والتغييرات على لغة روما وحضارتها ومعماريتها وشمل ذلك البنيات

الخفية منها. وقد توغلت روما بعد ذلك في مجتمع المشرق العميق، وكان لها أن تسير شؤون آسيا الصغرى وفلسطين، والإمارات السلوقية، ومارست المراسم وأسرار دولة البطالسة، فاكتسبت بعدا أكبر نفوذا وغرقت في غمار البشرية المشرقية. لم تكن روما الجمهورية قبل ذلك في عهد مضى "إلا جحر حرباء" كما قال جوفنال .(Juvenal) كان قصر مجلس الشيوخ قاعة طولها خمسة وعشرون مترا وعرضها ثمانية عشر مترا. وليس بها منبر ولا وسيلة تدفئة. وما كان فيها إلا مقاعد خشبية ومنصة للرئيس وكان سكانها لا يكادون يبلغون خمسين ألف نسمة.أما الأرياف فكانت شبه خالية، ولا تتجاوز الضّيعات الريفية خمسين إلى ستين هكتارا على ما أفاد كاتون (Caton)؛ ولا تتجاوز مغارس الكروم خمسة وعشرين هكتارا. وكان الفلاحون يقومون بأعمالهم في الحقول بالثيران أوبالحمير.

وتدل النصائح التي كان يقدمها كاتون، على أن.اليد العاملة (العمالة) نادرة جدا، فلا يمكن مقارنة روما هذه في أية حال بالمزارع الغنية المصرية والفلسطينية والسورية والبابلية. وقد وصف تيت ليف (Tite Live) الفلاح الإيطالي موضحا أنه يحرث وهوشبه عار تحت الشمس المحرقة، "ويكدّ لإستصلاح أرض الصّامنيوم بتنقية أحجارها، ويشرب في حافة الحقل شيئا من الخل والماء؛ وبالكوخ ثلاثة أشخاص من السادة وعبد واحد" يجب الإعتماد على الخيال أوعلى كثير من السذاجة للإعتقاد بأن روما استطاعت أن تسود العالم بمثل هؤلاء المعوزين، وباقتصاد قوامه هكتارات من القمح الغليظ، والثوم والتّرمس (Lupin) ولذا نشاهد بها بعد وقت قليل، وبمجرد ربط الصلة بين أربس (Urbs) والمشرق أفواج المحتكرين في الفوروم، وسيل النقود

يفيض، والقروض الربوية ترتفع فوائدها وتزيد على 50٪. وقد أفادتنا آثار سيسرون (Ciceron) بمعلومات وافية عن حركات البرصة، وعن الثروات الفاضحة التي اكتسبتها الأسر الرومانية بسرعة، لإشتراكها مع أصحاب البنوك المشرقيين، ففي "بروفلاكو" (Proflacco) وهومرافعة ودفاع عن حاكم سابق في سوريا، تلميحات مقلقة، تكشف عن مدى ما يتمتع به بعض أصحاب البنوك المشرقيين في روما من نفوذ مستخف يروع. وتفيدنا دراسات أقل قدما بأنّ إمليوس لبيدوس (Emilius Lepidus) الذي توفي سنة 152 ق.م، طلب بوصية أن لا يتجاوز حفل جنازته مليون آس 285) (As) ألف فرنك). وكان للخطيب الشعبي دروسوس (Drusus) 900 ألف فرنك من الأواني القضية. وبلغت ثروة بومبي (Pompée) نحوعشرين مليون فرنك، وبلغت ثروة الممثل إيزوب (Esope) ستة ملايين. وقاربت ديون يوليوس قيصر في سنة 62 (ق.م)، قبيل ذهابه إلى بلاد الغال سبعة ملايين بينما بلغت ديون مارك أنطوان أحد عشر مليونا. وبقيام نظام الأمبرطورية زادت الحسابات في البنوك ارتفاعا وازدهارا، كان لبالاس (Pallas) الذي أعتقه كلود (Claude) اعتماد مبلغه ثلاثمائة مليون سستيرس (Sesterces) ، أي 60 مليونا، وكان لرفيق نيرون (Néron) المسمى نرسيس (Narcisse) أربعمائة مليون سسترس (80 مليون)[1] ولم يستطع لا قانون أتيليا (Atilia) ولا قانون فوكانيا (Vocania) موقف هذا الإحتكار الهائل. فمن أين كان يأتي المال؟ إنه بالتحقيق ليس من ثمرة عمل الرومان ولا من مواردهم الصناعية أومواردهم الأولى. إنّ هذا المال كان يرد من الخارج ويدفع عوضا عن الخدمات، وهبة إلى النبلاء، ليجلبوا مصنوعات

---

1 - ذكر هذه الأرقام مومسن (Mommsen) في كتابه الضخم تاريخ الرومان، والأرقام مقومة بالفرنك الذهبي قيمة سنة 1900.

جاهزة من إسبانيا، وبيتيني (Bithynie) والصين والقوقاز، وبابل، والجزيرة العربية ومصر، وكلها من البلدان التي سيطرت عليها شبكات أصحاب البنوك ورجال الأعمال الأسيويون، الذين كانت الأسر الرومانية وكيلة لها. بناءً على ذلك فإنّ روما قد بيعت للمشرق. ومعنى ذلك أن سيادتها نظرية أكثر مما هي حقيقية.

تحول المجتمع الروماني من جراء ذلك إلى مجتمع استهلاك للأرزاق، ولم يكن غير ذلك لأن تكاثر الأموال وارتفاع التضخم المالي، قد حطم الطبقات الكادحة؛ فلم يبق في روما مكان لأصحاب الصناعات اليدوية، ولا للعمال ولا للصناع الصغار والتجار المحليين. أما الفلاحة فلم يبق الممارسون لها إلاّ من العبيد، وصار القمح والخمر والملح والجلود والماشية وحتى العسل من البضائع التي تجلب من الخارج. وقد حدث لروما ما حدث لأثينا، وصار إقتصادها كلّه تحت سيطرة الأجانب. ومن شأن هذه الإعتبارات أن تعيننا على فهم حقيقة دبلوماسية روما التي لم نزل نطريها، ونعلّق عليها من ريش الطاووس.

لم يبق بعد ذلك أي فرق بين روما والإسكندرية وأنطاكية أوبرغام، وكانت اللغة العامة السائدة فيها هي اليونانية المبسطة بعد الآرامية أوالإيطالية. وكذلك يلبس الناس لباسا واحدًا؛ ويتناولون وجباتهم مستلقين؛ ويتعاطون نفس العبادات. وكانت الإسكندرية تحدد نمط الحياة الفكرية، ورغم مقاومة الشيخ كاتون (Caton) الذي كان من الأجيال السابقة ومن غير زمانه، فإن مدينة ريموس (Remus) ورومولوس (Romulus) الريفية أصبحت متسمة بتقاليد إزيس وسيبال (Cybele) وشيدت بها الأحياء الجميلة، والساحات المتوالية

على شكل مدن مصر أوآسيا الصغرى، وبينما أخذ اليونان من المعمارية المشرقية الخط المستقيم الجاري به العمل في العهود الكبيرة، فإنّ روما التي لحقت أخيرا بالركب، استوحت النموذج الجديد ونقلت عن المعمارية الآرامية الميل إلى الخط المنحني، وأكثرت من القبب والأقواس ذات العقد الكامل، وصار شكل القبة سمة للمباني العمومية، وقلدت حتى القبة نصف الدائرة البابلية في فن المعمار، وبهذه الطرق اتخذت البناءات في روما مظهرا فخما، وتفنّنا كبيرا بعد أن كانت ذات أشكال صغيرة محدودة، ولم يكن المسافر القادم من بلاد النيل أوضفاف الفرات يجد نفسه غريبا عندما يصل إلى روما. وقد اتخذت المنازل الخاصة النموذج الآرامي التقليدي بشكل فنائه الداخلي الواسع، المزدان بأعمدة، ومن ورائها الصالون الكبير والحجرات. فالسكنى في فناء فكرة لا يمكن أن تكون إلاّ من الشعوب التي لا تمطر سماؤها. أمّا المنازل الأهلية في شمال إيطاليا فقد كانت منطوية داخل جدرانها المغلقة. فلا شك أنّ عربي القرن العشرين يجد المنزل الروماني بشكله في عهد قيصر، مطابقا لذوقه، وقد ثبت أنه كان بروما منذ ساعة مبكرة معماريون عديدون ومتخصصون في البناء والتزيين سوريون. وليس من الصحيح أن يقال أن السكان الإيطاليين كانوا يحظون بهذه الرفاهية ويصيبون من الدّخل مثل ما كان للفرسان وللنبلاء. فهؤلاء السكان كانوا محرومين من هذا المتاع، بل كانوا من المستغني عنهم لا تنتظر منهم فائدة بسبب انهيار قيم عمل الأرض، ولتفاهة العمل اليدوي؛ وقد جردوا من كل مسؤولية سياسة، نظرا إلى أن التصويت كان من حق من يدفعون الضرائب، وخاصا بالمواطنين الذين يملكون النقود الرنانة الثقيلة. إنهم يتسكعون في البطالة ولا ينفعون إلا للخدمة العسكرية التي يدفعون للإنخراط فيها على مدى الحياة.

من كان إذن يحكم روما؟ يحكمها الأجنبي. وإلى جنبه طبقة من الأعيان الأثرياء ... ويموّلهم بمبالغ كبيرة أصحاب البنوك الأسيويون مقابل خدماتهم؛ وهي طبقة تعيش في نطاق مغلق، ولاتسير البلاد، ولكنها تشرف على بعض المصالح الوزارية التي تعتبرها من ملكها الخاص. وليس من العسير أن نجد في تاريخنا المعاصر نماذج شبيهة لها كل الشبه، ولهذا كانت تنشب باستمرار أزمات اجتماعية خطيرة تزعزع العالم الروماني لكن دون أن تنال أوتصل إلى صميمه، لأن هذا الصميم كان بعيدا وبين أيدي الشركات المشرقية المجهولة، المغمورة، فالمحاولة التي قام بها الأخوان غراك (Gracques) لإجراء إصلاح زراعي والتي فشلت من البداية، كانت مخالفة تماما للنظام المالي السائد، بحيث كان يقضي عليها بصورة نهائية حتى ولو لم يقع اغتيال الأخوين القائمين بها. إنّ روما كانت خاضعة للشركات التجارية والمالية التي نعرفها اليوم باسم الشركات المتعددة الجنسيات وكان أصحابها من الفلسطينيين والمصريين والإفريجيين واليونان والليبيين والصقليين الذين يسيطرون على نظامها المحكم. فالمساعي الظاهرة التي تقوم بها السياسة الرومانية كما تشرحها لنا الكتب المدرسية، ما هي إلا صورة تعكس القرارات التي اتخذت خارج روما، ولأغراض غير الأغراض المزعومة. ومهما كان فإن روما تفكر وتعمل وهي متجهة إلى المشرق، مستنيرة بالمشرق مجذوبة إليه. وقد غضب بعض الكتاب الكبار بسبب هذه الخيانة للقيم التقليدية، فاحتجوا على "المودة" والتقليد الجديد، وكتب مارسيال (Martial) قائلا : "إن السيد الصغير رجل يردد أغاني مصر واسبانيا" أما جوفينال (Juvenal) فقد انفجر ضد كهان سيبال الذين كانوا

بقلنسوات إفريجية، ويسودون في روما؛ وقد استنكر ما كان يعمله "اليهود الذين يبيعون الخرافات" والكهان (Haruspices) الذين قدموا من أرمينيا، والسحرة الكلدانيين؛ وهو يرثي "للفقراء السذج الذين يهرعون لإستشارة الكاهن في أهرام السرك" (؟)؛ ويسخر إلى ذلك من الرحلات التي تنظم إلى المشرق، إلى مصر، وهياكل منفيس وجوبتر آمون، ويتهكم على المسافرين الذين يجلبون معهم التمائم والأمواه المباركة.

هذا وسنعرف بمناسبة النزاعات الكبيرة التي أدت إلى تأسيس النظام الأمبرطوري أنها حروب مدنية أكثر مما هي حروب أجنبية. ومن الملحوظ بالفعل أن روما لم تنتصر قط في حروب كبيرة خارجية، إذ أنها لم تخض حقا ولوواحدة منها، إلا في فترة متأخرة، ولكنها خسرتها. ولم يخبرنا التاريخ خلال مدة طويلة بأنه لم تقع لا في المشرق ولا في ليبيا وفي بلاد الغال أي مقاومة وطنية لما سمّي خطأ بالغزو الروماني. ولنتحدث أولاً عن حرب يوغرطا وريث مسينسا وملك نوميديا. ومنها نعرف أن روما كانت منقسمة إلى حزبين أحدهما يناصر يوغرطا والآخر يناصر الأمير جودة (Gauda) وملك المغرب بوكوس .(Bocchus) فهذه الحرب كانت حربًا أهلية محلية دافعها طمع بوكوس المغربي في التوسع إلى الجهات الشرقية، بالإستيلاء على جهات من مملكة يوغرطا. وقد أوضح سالوست (Salluste) جيدًا في كتابه أن ماريوس ومساعده سيّلا (Sylla) كانا أثناء العمليات "يتلقيان الأوامر من بوكوس" فالجيوش الرومانية كانت مستخدمة كعناصر مرتزقة وكان قادتها يحاربون لربح أموال، ولأغراض انتخابية كما بين ذلك سالوست بدون أي حرج؛ ومعنى ذلك أن الأمراء الأجانب أي بوكوس

ويوغرطا في هذه الحالة، يساهمون بقسط ناشط في الحياة السياسية الداخلية الرومانية. وقد انتهت الحرب في أفريقيا الشمالية كما نعرف بفشل يوغرطا وبتوسيع مملكة مورتانيا (الغربية) التي كان ملكها بوكوس، على أنها كانت تتضمن نتيجة أخرى هي التي كانت تهم وحدها سالوست راوي الأحداث؛ وهي أن السمعة والأموال التي أحرزها ماريوس أتاحت له الوصول إلى أعلى مراتب الحكم. وهذه السطور الأخيرة من كتاب حرب يوغرطا تقول فعلا :"وبمجرد أن عرف في روما أنّ الحرب قد انتهت في نوميديا وأنه أسر يوغرطا، عيّن ماريوس وهوغائب قنصلاً، وأسندت إليه مقاطعة بلاد الغال .(La Gaule) ثم في أوائل يناير حظي بالتمجيد التابع لإنتصاره كقنصل. وكان بذلك حامل ثروة الدولة وأمالها": وقد ساعده الذهب والمال الإفريقي على هذه النعمة، وإلى أين كان يوصله هذا الفوز؟ إنه يوصله إلى آسيا، محط الأمل الأقصى وغاية كل روماني يحترم نفسه. فالحلم عنده هوالفوز بتقدير آسيا، والقيام بمهمة فيها للوصول إلى منابع الحضارة ومباهجها، والحظوة بمقابلات في البلاطات المشرقية الخلاّبة، والمشاركة في المعرفة الإنسانية والإلهية. ولكن نظرا إلى أن العبرة بالثراء، وأن آسيا لا يرقى إلى مراتبها إلاّ من اشتهر بمجده وسنده المالي، فلا بد من إحرازهما بكل وسيلة قبل الإتجاه إلى طريق الأرض الموعودة. وما فعل ماريوس بمجرد أن استثبت وضعيته بمال بوكوس، وانتصاره العسكري؟ إنه ذهب إلى آسيا وكذلك فعل سيلاّ (Sylla) مساعده الذي شاركه في انتصاره وما نال من تمجيد. ولماذا قام جول سزار (J. Cesar) بالحملة إلى بلاد الغال؟ ليفوز بآسيا.

وهكذا دواليك. إن كل قنصل وكل دكتاتور أوامبرطور روماني يتحتم عليه واجب هذا الولاء (لأسيا)، حتى يتم استقرار روما بصفة نهائية بها، كنهر يرجع إلى منبعه. وستكون المسابقة إلى المشرق بين بومبي (Pompée) وقيصر مآل مأساة في نطاق الحلف المتين الذي يربط بين روما ومصر ضد السلوقيين. كانت مطامع صاحب مملكة البحر الأسود (Pont) الملك مثردات الرابع أوباطور (Epator) (Mithridate IV) الذي استولى حينا على آسيا الصغرى، ونزل في اليونان، تثير مخاوف البطالسة خصوصا وأن السلوقيين كانوا يستعدون لإعانته وتأييده. فتدخّلوا وشارك بومبي في المعارك إلى جنبهم دون أن يقوم بدور حاسم، لأن مثردات اضطر إلى الفرار سنة 63 (ق.م) وإلى الإنتحار، لا لأنّه انهزم في معركة، بل لأنّ ولده فرناس (Pharnace) تمرّد عليه واستولى على قيادة الجيش. ونعرف من كلمات سيسرون (كلمات باللاتينية " "Pro le ge manilia.pro murena) دفاعًا عن بومبي وأصحابه، أن ذلك كان مغامرة تافهة. إن أوضح غرض من حملة بومبي هوإحراز المال والمجد الذي أتاح له التعيين في أول هيئة من ثلاثة أشخاص مع قيصر (Cesar) وكراسوس (Crassus) سنة 60، فاستحق لقب الأسيوي .(Asiaticus) ولكن قيصر كان هوالآخر يفكر في مصر، واقترح في سنة 65 أن يقوم بمهمة استثنائية لدى بلاط البطالسة، مع أنه لم يكن إلاّ حاكما بلديا. وقد رفض اقتراحه وكلّف بومبي بالقيام بالمهمة مكانه. وكانت رغبته إذاك هي أن يفوز في أقرب وقت بالمجد وبالأموال (Sesterces) التي تجعل منه طرفا مكافئا لأسيا، فذهب سنة 59 ق.م إلى بلاد الغال وأنجز "فتحها" سنة 51، بكمشة من الرجال، وبفضل المعجزة الرومانية الدائمة. ولا يمكن إقناع أي

شخص بأن قيصر قام بها بالدّور الذي يدعيه. ونعرف بعد قراءة ممعنة لحرب الغال (Guerre des Gaules) أنه لم يكن سوى مرتزق للأدونس (Eduens)، أصحاب بلاد الغال الحقيقيين الذين عملوا على توحيدها، إنها دعاية انتخابية (أي حرب الغال) وتزييف ملحمي يناسب ذلك العصر، وقد أتاحت لقيصر الدخول إلى روما بهالة الإنتصار، مزودا بثروة قيمة، والإستعداد لخوض عملية المشرق. وقد تأكّد من رعاية بطليموس فأقدم على حرب بومبي وأصحابه وهزمه في معركة فرسال (Pharsale) بتساليا .(Tessalie) وتسرّب خصمه عن طريق البحر إلى لسبوس (Lesbos) وساحل سليسيا (Cilicie) ثم دَخل إلى مصر. ومن سوء حظه أنّ رسل قيصر كانوا قد سبقوه إليها، وبمجرد نزوله أغتيل بأمر من الفرعون. إغتاله جماعة من الجنود من بينهم رومانيّون. وتبجيلا لأسلافه الأولين، قام قيصر بزيارة إلى خرائب طروادة قبل أن يسلك بدوره طريق مملكة "الفاروس[1]" (Pharos) كما كان الشاعر لوكان (Lucain) يسمي مصر. وعند وصوله نزل إلى مدفن الإسكندر، وانحنى أمام ضريحه وقد استقبل كما يستقبل الأمراء، في القصر الفرعوني وتزوّج كليوبطرة أخت الملك، ومكث نحوعشرة أشهر في البلاد، ليلقن معارف الجغرافيا والفلك والفنون السحرية، استعدادًا لوظيفة الملك. وقدْ باركه القساوسة الكبار ويبدو أن أسرة البطالسة كانت على استعداد لترى في هذا القائد للمرتزقة، تابعا مختارا، بشرط أن يتعهد بالمشاركة في حرب شاملة ضد السلوقيين. وعلى هذا الأساس وضع بالإسكندرية خلال سنة 47 ق.م. مخطط معركة دقيق بين قيصر والقيادة المصرية، الهدف منه هوالإستيلاء على

1 – الفاروس (Pharos) جزيرة بالقرب من الإسكندرية بنيت عليها المنارة المشهورة التي تهدمت سنة 1302 م.

أمبرطورية الإسكندر، من المحيط الأطلسي إلى نهر الأندوس. كان بإمكان قيصر بعد إبرام الإتفاق أن يعود مباشرة إلى روما؛ لكنه فضّل أن يبعث أولا كليوبطرة الحامل منه، بينما سلك هوطريق ليبيا، وتونس واسبانيا وبرفقته الأسطول المصري. وقد حطّم في طريقه فلول جيش بومبي في طبسوس (Thapsos) وفـي منـدة (Munda). وعنـدما عاد في الختـام إلـى روما فـي سنة 45 ق.م. ، كانت له هيئة أمير من المشرق ذي سلطة ومطامع بادية، وبصفته حبرا كبيرا وقنصلا وخطيبا شعبيا، وصاحب سلطة سياسية وعسكرية وقضائية، انتخب في 15 فبراير 44 ق.م. دكتاتوريا لمدى الحياة.

وقد استظهر بنسبه إلى الألهة، واتخذ لنفسه حاشية وتشريفات شبيهة بتشريفات الإسكندرية. وفتح له أصحاب البنوك المصريون اعتمادات غير محدودة، وزعم سويتون (Suetone) أنه استلم مباشرة من بطليموس ستة آلاف طالان (Talents) (وقيمة الطلان 5500 فرنك ذهبي) ولأول مرة في تاريخ روما، ضربتُ الورش الرومانية سكة ذهبية، باسم (Le nummus auréus) فالقول في هذه الأحوال باستقلال روما، وبالأحرى بسيادة روما على مصر، شيء غير معقول يدعو إلى السخرية. وقد شاع أنّ قيصر بصدد اتخاذ لقب الملك، وأنّ عاصمة الجمهورية الرومانية تنقل إلى المشرق، وهذا شيء ممكن لا سيما وأن قيصر قد ولد له منذ حين ولد من كليوبطرة وأنه يعيش معها كزوج، على مرأى من جميع الناس. وفي سنة 44 ق.م. ، أخذ يستعد لتنفيذ إلتزاماته ولتخليص المشرق من السلوقيين، بتنظيم هجوم من الشمال، بينما يقوم المصريون بهجوم من الجنوب. وقد جنّد نحومائة ألف رجل (من إيطاليا واليونان الغارقتين في البطالة بسبب الإقتصاد السائد الذي يتحكم فيه أصحاب البنوك من

المشرق) وتحالف مع آسيا الصغرى ومملكة البحر الأسود (Pont) وأرمينيا، التي جنّدت هي الأخرى قواتها. هبط قيصر من الدانوب واطراقيا والأناضول ودجلة العليا، وكان من المقرر أن يجتمع بالجيوش السورية المصرية إثر ذلك. كان من المنتظر أن تطيح هذه الخطة بمملكة السلوقيين، ولكن مؤامرة دبّرها بروتوس (Brutus) اغتالت قيصر في 15 مارس 44 ق.م. وقد علّق جروم كركوبينوعلى هذا الحدث تعليقا واضحا إذ قال :" إنّ بروتوس (Brutus) أحبط إرادة الحرب بهذه المؤامرة وقضى على هدف قيصر الأكبر، كما إنّ خنجر رفاياك (Ravaillac) قد خيّب في القرون المعاصرة، نوايا هنري الرابع الذي عزم على إعلان الحرب على أمبرطور جرمانيا منذ سنة 1610 م"[1]. وبما أنّ اغتيال قيصر وقعت قبله ثورة في سوريا بمشاركة ضباط سابقين من أنصار بومبي، كانوا في خدمة السلوقيين، فمن الجائز أن نتساءل إن لم يكن السلوقيون هم المدبرين للمؤامرة التي قام بها بروتوس؟ إن حياة قيصر التي حفت بالأمجاد الوهمية بصورتها التي انتهت إلينا، والتي غلونا بتمجيدها قرنا بعد قرن، لإعجابنا "بالرجال العظام" قد فقدت كل صبغة تجعلها حياة صحيحة، حقيقية. إن حياة قيصر، لم تكن في الواقع، كوفاته، قادرة على تغيير الأحداث التي كانت تفرضها الحتمية الإقتصادية والجيوسياسية والإزدهار الثقافي في بلاد المشرق.

كان أوكتاف أوغست (Octave Auguste) وريث قيصر وإبنه بالتبني، مسوقا بنفس الواجبات إلى مصر وإلى كليوبطرة التي اجتمع بها في عدة مناسبات بروما، في منزل والده. وقد بالغ الرواة في حكاية النزاع السياسي بين أنطوان مساعد قيصر، وأوكتاف (Octave) وريثه، ووقفوا في ذلك موقفا

1 - J. Carcopino, *Profils de conquérants*. Flammarion 1961, 306 p .

متضاربا. وقد قدّموا لنا أنطوان في ملامح شخص فظ عاهر لا يكف عن الفجور، وقدّموا لنا أوكتاف على أنه صاحب فضائل أساسية أصلية مؤهلة للسلطة الأمبرطورية. وإحكامًا لكل ذلك، حاكوا حول الشخصين مغامرة غرامية تقوم فيها كليوبطرة بدور غامض كبغي ممتازة. وما كل هذا إلاّ من الأدب الرّديء. وفي الواقع إنّ المباراة التي قامت بين بومبي وقيصر في سباقهما إلى المشرق، نشبت من جديد بعد وفاة قيصر، بين أوكتاف وأنطوان. وعليه فلا يجوز أن نتيه في جزئيات الحرب الدامية بمودين (Modène) والمنازعات الحزبية التي شارك فيها سيسرون وليبيد (Lépide) وغيرهما. إن هذه أحداث التاريخ الصغير؛ والدور الكبير إنما يجري في المشرق. وقد فر المتآمران بروتوس (Brutus) وكاسيوس (Cassius) إلى المشرق وجنّدوا جيشا عديدا في بلاد الأمتغونيين والسلوقيين، أعني في اليونان وفي مقدونيا. وهي عملية تطلبت أموالاً كبيرة لم يقدر على تقديمها إلا ممالك برغام والإسكندرية وأنطاكية؛ والحال أن المملكتين الأولى والثانية كانتا حليفتين لأنصار قيصر (كليوبطرة وابنها لا يزالان في روما)؛ وعليه فإن أنطاكية هي التي تكفلت بالأجور وبتزويد الجيش البومبي الذي يقوده بروتوس وكاسيوس، وقد قتل هذان التعسان المنكودان في معركة فيليب بمقدونيا سنة 42 ق.م، إثر هجمات القيصريين؛ واقتسم المنتصران أنطوان وأوكتاف الأدوار. وقد أخذ المصريون أنطوان إلى مصر وأنزلوه بالبلاط حيث كان طيلة خمس سنوات شبه مسؤول عسكري، يجول في بلاد بطليموس من المشرق، في هيئة مشرقية ويقوم بعبادة إزيس وأوزريس وكانت كليوبطرة تضطلع بأمر الملك، وهل كان أنطوان من عشاقها؟ أكان لها

منه أولاد؟ يجوز ذلك ولكن مثل هذه الأسرار بخصوص حياة الملكة، لا تفسر سياسة عهد.

إنّ أوكتاف بصفته وارثا عيّنه والده قيصر، لا شك في أنه لم يكن راضيا على ما يرى من أنطوان الذي يزداد غناه في المشرق ويستعد على ما يبد ولحمل التاج؛ ألم تكن الأسر الملكية المصرية السابقة عرفت في مناسبات متكررة أن قائد جيش أومرتزقا من الحرس، يسموا إلى العرش الفرعوني؟ وقد استاءت كليوبطرة من جهتها من مخالفة أنطوان للتعليمات أثناء مهماته في سوريا، وحكى ذلك فلافيوس جوزيف بكل صراحة، كان أنطوان عَرضًا للدسائس التي يدبّرها الأرزوسيون والسلوقيون والأرمنيّون والمدن الفلسطينية ولنا أن نسأل، إن كان قدهمّ بالتآمر ضد الملكة؟ فلا شك على كل حال في أن أوكتاف لم يحضر إلى مصر إلا بطلب من المصريين أنفسهم. ويمكن أن نقرأ في "الكتابة المنقوشة في أنسير" (Inscription d'Ancyre) على جدران معبد في غلاتيا القديمة (Galatie) بآسيا الصغرى، قصة حياة أوكتاف بقلمه نفسه؛ وقد تحدثت الكتابة لا عن حرب ضد مصر، كما يقتضيه التعبير العادي لكن عن "حرب اكتيوم" (Guerre d'Actium) من غير توضيح آخر، وحتى الظروف التي جرت فيها معركة أكتيوم غامضة. إن الأسطول المصري كان صاحب السيادة في البحر المتوسط بدون نزاع ولم يكن الأسطول الروماني يمثل شيئًا؛ وهل وقعت معركة بالفعل؟ الظاهر أنّه لم تقع أية معركة لأن جميع الأخباريين مجمعون على القول بأن المراكب المصرية قد تخلت عن أنطوان وأبحرت نحوالجنوب. ويؤكدون أيضا مجمعين أن كليوبطرة كانت تنتظر وصول أوكتاف، وأنها رفضت استقبال أنطوان الذي عاد جريحا بعد هذه المعركة غير الحقيقية.

ونقرأ في الحكاية اللاذعة التي كتبها فليوس بتركلوس (Velleius Paterculus) أن المعركة قد توقّفت لعدم وجود مقاتلين وأنّ أوكتاف تساءل من أجل من، ومع من يحارب جنوده؟ (كلمة لا تينية). وقد نزل إبن القيصر المتبنّى، واستقبل كما استقبل قبل ذلك الإسكندر لا كصديق فحسب، بل كوارث للعرش. وبما أنه الوصي على المشاريع المشرقية التي خلفها أبوه، المؤيد المبارك من القساوسة الكبار، ومن الملكة نفسها، فهوالمؤهل لأخذ ميراث البطالسة. وكونه من الأجانب لا يحرج الكهان الكبار، الحماة الحقيقيين للعرش؛ لأن جنسية الرجل كانت في ذلك الوقت ذات قيمة نسبية (كما كانت كذلك في عهد الملكية الفرنسية السابقة بحيث يمكن أن يؤول العرش لأمير إيطالي أوإسباني) ثم لأنّ أوكتاف، إنما يخلف البطالسة الأجانب هم أيضا؛ ولأنّ البنوك والإقتصاد والتجارة كانت تتحكم في سياسة الوقت بحيث أن الفرعون مهما كان يحتل مكانا رمزيا ولا نفوذ له بمقتضاه. وأخيرا لأنّ كل رئيس للدولة المصرية، لم يكن إلا ناطقا باسم الألوهية المصرية المالكة للسماء والأرض. إنّ أوكتاف كان أداة بسيطة في يد الأقدار، فقبل تملكه على مصر دون أن يغير ذلك شيئا من حياة الشعب. وفي أية ظروف هلكت كليوبطرة؟ ولم تخلىّ عنها أسطولها وجيشها؟ سؤالان لا جواب لهما. ويتحدث المؤرخون عن ضم مصر إلى الأمبرطورية الرومانية، ولكن ذلك خطأ، لأنّ مصر أسندت لأوكتاف شخصيًا ومنع الشيوخ والإداريون (الرومان) من دخولها. فالبلاد بقيت "ملكًا للّه" ولم يكن أوكتاف يعبد كروماني لكن كصورة للإلاه، على رأسه "القلنسوة" المنقوشة عليها الصيغ الهيروغليفية، المبّجل الحامل

للقب ملك مصر العليا ومصر السفلى، إبن راع الحامل للتاج" وعلى معابد دندرة، وفيلاي، وأسوان وطيبة "شارة" تحمل إسمه ورموزه الكهنوتية.

وقد نقل أوكتاف هذا المرسم إلى روما وانقلبت مدينة إيني (Enée) صورة من مصر لا بثقافتها وديانتها فقط، لكن حتى في دستورها السياسي. ولم تكن الأمبرطورية الرومانية التي أسّسها أوكتاف نتيجة التطور الداخلي في جمهورية سيسرون وكاتون (Caton)؛ بل هي مستوحاة من أوضاع مصر وفرعونية في طبيعتها، ولا علاقة لها مع العادات الريفية الأهلية. وابتداءً من أوكتاف تقرر مبدأ الملكية بالحق الإلهي؛ وصار الأمبرطور يلقب بالقيصر إبن الله، أمير الشيوخ المقدّس، أي .(Auguste) وهوقائد الجيوش، قنصل وخطيب الشعب مدى الحياة؛ يبّجل في الهياكل وهوحي إذا أدركته الوفاة يرفع إلى مصّف الآلهة بمرسوم التأليه من مجلس الشيوخ. ومن ذلك أنّ الديانة القديمة اتسمت بصبغة صوفية ومنعت المعتقدات الشعبية، بينما يشارك الكهان الأسيويّون والمصريون الذين يحظون بحماية الأمبرطور في التعليم الكهنوتي. وكان من ذلك أن المسيحية تهيأ لها بسرعة في روما، جو وعقلية مستعدة للترحيب بها إلى جنب عقائد أورفي وإزيس ومثرا (Mithra) وبعل ويهوى، وعندما ولد المسيح عليه السلام في بيت لحم (Bethleem) كانت الظروف ملائمة لإتخاذ روما مدينة مرحّبة بتعليمه. إن فلسطين التابعة لمصر، ترجع بالتالي إلى سلطة أوغست، وبطلبه أجري إحصاء عام للسكان كما كان الكتبة الفرعونيون يفعلون ذلك من قبل. وهوإحصاء أشارت إليه الأناجيل لمعرفة نسب المسيح والظروف الإستثنائية لميلاده. إنّه من رعايا مصر يخضع لسلطة أوغست ثم لتيبر (Tibère)، وهو من غير أن يكون رومانيا

يخضع لقانون الفرعون الروماني. الأمر الذي يشرح سبب المكانة الإستثنائية التي اكتسبتها مدينة القياصرة في تسيير الكنيسة المسيحية بصفتها صاحبة السيادة المصرية.

إن السلطة الرومانية لم تكن غربية إلا جغرافيا، فهذه السمة الغامضة وإن كانت ثابتة منذ تولّى قيصر وإبنه أوغست المسرح العام، أخذت في الظهور قبل ذلك بزمن طويل. وفي آثار فرجيل، الأسيوي الروح والتعبير، ما يوضح المسارات الخفية لسياسة لا تزال آثارها سارية في طرق ومساعي المجتمع الحديث. ولنعترف على خلاف ذلك، بأنّ المؤرخين الرومان من تيتليف إلى تاسيت (Tacite) وفلافيوس جوزيف، لم يستعفونا قط في تحليلنا ودرسنا للأشياء. إن النصوص التي خلفوها لنا ليست سوى ثناء مطلق لروما، بينما تعتبر جميع الشعوب الأخرى شعوبا مغلوبة تابعة لعربة الأمبرطور، من لوزيتانيين وغاليين ودلماتيّين ويونان، وليبيين ومصريين وسوريين وسليسيين وإفزيين إلخ ... وما أكثرهم! كثرة تفوق الحد. وكيف لا نأسف من فقدان مؤرخ روماني مثل توسيديد (Thucydide)؟ وكيف لا نأسف من فظائع تيت ليف وأكاذيبه وجهالاته! وغيره من المؤرخين كسويتون (Suetone) وتأسيت وآخرين الكثيرين؟ أيكون هذا من الغلوفي الوطنية؟هذا شيء غير محتمل نظرا إلى أنّ ذلك العصر لا يعرف هذا الشعور؛ وإن تصوّر هذا "الحب للوطن" في ذلك الماضي، مع كونه شيئا حديثا في أوربا، إنما هو من إعطاء الشيء ما ليس فيه (Prosopopée). ويمكن لذلك تصور عدة افتراضات كسبب لتعصب المعلقين اللاتين؛ التعصب الغريب الذي يبقى في اتجاه واحد دائما، يجعل من روما مدينة عالمية إلاهية لا تؤاخذ بشيء، وتتّسم بجيع الفضائل مع أنّ كل

شيء يثبت خلاف ذلك، إنّ التفسير قد يرجع إلى أنّ المخطوطات اليونانية أواللاتينية ليست أصلية بل هي من المستنسخات المتأخرة. وقد ظهرت هذه النسخ التي نقلها رجال الكنيسة المسيحيون، في الأديرة وفي الجامعات التابعة للأمبرطورية البيزنطية والحال أنّ المسيحية كانت منذ كنستنتان (Constantin) ديانة رسمية للدولة، كما كانت صفة "الرومانية" عقيدة مقررة. ولم يستفد لذلك لا أتباع أورفي ولا أتباع أوزريس وديونسوس ولا اليهود ولا غيرهم من أصحاب المذاهب بالإمتيازات الجامعية التي خولت الدولة البيزنطية وخلفاؤها احتكارها للكنيسة المسيحية. وقد دام هذا الإحتكار في الغرب الأوربي نحوألفي سنة.

أما في المشرق فإن الدولة الإسلامية المتسامحة، لم تر من واجبها أن تحقق بالنقد نتائج البحوث التاريخية البيزنطية، فشجعت بذلك ذيوع وثائق يونانية لا شيء يدل على صحتها. ولذلك ليس لدينا إلا نصوص مكيفة، مصحّحة مفسرة من السلطات اللائكية أوالدينية التي يهمها قبل كل شيء تحريف الحقيقة لتتطابق مع مذهبها الخاص. إن كمية العمل الذي تمّ في الأديرة خلال القرون للتدوين والتقييد عمل مدهش؛ ولكنه مصدر قلق واحتيار، لاسيما وأنه تناول منبع جميع وثائقنا. وقد استنكر الأمبرطور جوليان (Julien) المدعو بالأبوستا (Apostat) بشدة استحواذ المسيحية على الوثائق القديمة ولكن احتجاجه لم يجد ولم يدم عهده إلا مدة قصيرة. وبسبب ذلك فإن الوثائق الصحيحة التي نملكها عن العصور القديمة إنما هي التماثيل والهياكل، والكتابات المنقوشة على الحجر، أوالكتابات المسمارية المخططة على الطين.

فهذه الوثائق قد نجا قسط منها من رعونة "المكيّفين" للتاريخ. وتقول قسطا فقط لأنّ كثيرا من التماثيل والهياكل قد خربت، وفقدت مكتبات كاملة من الكتابات المسمارية وخاصة عندما وقع نهب متحف الإسكندرية المشهور. فإذا أردنا أن نعمل الإرادة العلمية الصارمة، وعزمنا على إقصاء كل لبس وغموض، يجب أن لا ندعم نظرياتنا التاريخية بغير الوثيقة المنقوشة. فلنأخذ على سبيل المثال، مخطوطات "حرب الغال"؛ إنها بلغت نحوالخمسين مخطوطا بين أيدي الكنيسة، منها 33 مخطوطا في مكتبة الفاتيكان، و17 مخطوطا في فلورنس .(Florence) وأقدم هذه المخطوطات أثنان يرجعان إلى القرن التاسع لا غير. وهي تشتمل على مدسوسات وتخليطات وأخطاء جغرافية، وتعبيرات غريبة تتبيّن فيها الترجمة، وكلها مما يؤدي إلى التيهان. إننا نملك على الأقل إسمى اثنين من المصحّحين لنصّ قيصر. لقد عاشا في القرن السادس الميلادي وكانا من رجال الكنيسة. وهما : ج.س. كنستنتنوس (J.C Constantinus) وف.ل. فرمنوس لوبسنوس (Firminus Lupicinus) حفيد أسقف بافي (Pavie) إنديوس .(Ennodius) فهل أملى قيصر هونفسه أوحرّر بيده كتاب "حرب الغال"؟ لا نعرف بالتحقيق شيئا من ذلك. ففي عهد قيصر نفسه، شك صديقه بوليون (Pollion) في مضمونه؛ وأعربت رسائل سيسرون عن مثل هذه التحفظات، بينما تحدث سويتون (Suetone) عن فضيحة (الكتاب). فإذا كان النص الأصلي الذي لا نعرفه مشكوكًا فيه، ومن تحرير شخص غير قيصر، فبالأحرى أن يكون النص الذي انتهى إلينا بعد التضليلات والتكييفات والإختراعات أوالخيانة، من الناسخين والنحاة، أقوى وأدفع إلى الشك؟ وبالإضافة إلى ذلك إنّ نص الكتاب (Bellum Gallicum)

أي (حرب الغال) من المخطوطات التي لم تدر حوله إلا مناقشات قليلة. ومن المخطوطات الخاصة بكتاب واحد ما يشتمل على تناقضات بسبب الشروح والمخالفات للأصل، بحيث يجب إعادة تحريره كاملا، وإلا لم يمكن فهمه. وكل دراسة من العصور القديمة لا تفسح مكانا واسعا للشك في مضمون الوثائق، دراسة خاطئة بل خطيرة لأنها تسوق التفكير إلى الطرق المتحكمة المضللة.

بناء على مجرى الأحداث إنّ ضم روما إلى المشرق قد تم مع قيصر أوغست (C. Auguste) وصارت حدود ما نسميه بالأمبرطورية الرومانية هي حدود أمبرطورية البطالسة. وقد حوصر السلوقيون في المقاطعات السورية، بينما خيّم البارت (Parthes) الأرزوسيون على نهر الفرات، ومدّدوا سلطانهم إلى نهر الأندوس. وسيتمكن هؤلاء (أي الأرزوسيون) من تحويل سياسة البحر المتوسط تدريجيًا إلى الشرق وتحويل آسيا نصرًا دائما.

وقد ذكر لنا المؤرخ تروغ بومبي (Trogue Pompée) الأسيوي الذي حرّر تواريخه في عهد قيصر، في الكتابين 41 و42 من "تاريخه العام" الذي اختصره جوستان (Justin) في القرن الثاني الميلادي، كيف انقلب شعب البارت (Parthes) دولة "عالمية" كانت عاصمتهم ستزفون (Stésiphon) المشيدة على الضفة اليسرى من دجلة، تجاه سلوقيا مشهورة بثرواتها. وكان البارت الأرزوسيّون يرتبطون بالعلاقات مع السلوقيين ماداموا أقوياء، وإن كانوا يحاربونهم؛ كما كانت لهم علاقات حسن معاشرة مع السكان اليونان، وقالوا مبالغين إنهم أحباب اليونان، يتكلمون اليونانية ويضربون سكتهم النقدية على طريقة اليونان. وكان الأمر على خلاف ذلك لما استقرت

السلطة الرومانية المصرية في فلسطين، بعد زحزحة السلوقيين وحصارهم في الجزء المناسب لهم بشمال سوريا. ذلك لأن الأرزوسيين لم يزحزحوا السلوقيين إلاّ ليفرضوا سيادتهم، لا ليسمحوا مرة أخرى بأن ينازعهم منازع جديد. لذلك شنّوا في الحال حربًا ضد مصر وضد حلفائها الرومان، دون أن تعرف هذه الحرب نهاية. قاموا بها على طول نهر الفرات وفي فلسطين الجنوبية ليحتلّوا مواقع خلف الحدود السورية، وليهددوا مباشرة العلاقات التجارية والإستراتيجية بين مصر وغزة وطريق عدن، بدأت هذه الحرب في عهد تيبار (Tibère) وواصلها كليغولا (Caligula) وكلود ونيرون، وانتهت بانهيار الأسرة القيصرية وارتقاء القائد الأعلى في فلسطين فسبزيان (Vespasien) إلى الحكم وتأسيسه لأسرة الفلافيان (Flaviens) وقد بعث به نيرون إلى فلسطين "لا ليقمع فقط ثورة اليهود، لكن ليخضع جميع بلاد المشرق للسلطة"[1]. وكان يحارب معه إبنه تيتوس (Titus) الذي قدم من الإسكندرية بعد أن أمدته الحكومة المصرية بالجنود والأموال والتوجيهات.

لقد نشرت أخطاء كثيرة بخصوص "هذه الحرب اليهودية" حتى كان لابد من تصحيح وتوضيح. إنها حرب من البارت بأمر من سلطات ستزفون لتحرير سوريا من حكم روما الممقوت وقد تمكنت من التحالف مع بعض المدن الغنية بفلسطين الجنوبية. بعض هذه المدن يهودية بالفعل كالقدس والأخرى "سامرية" أي "أهلية" (حسب تعبير فلافيوس جوزيف) مثل تريشة .(Trichée) وكان العرب الإيدوميّون بجنوب الأردن يؤلفون "الأغلبية الكبيرة من قوات سيمون وجان" (Simon et Jean) وكان الضباط

1 - Flavius Joseph. Livre III. chap. I. "*La guerre des juifs contre les romains*".

الأرزوسيّون يقودون الفيالق الموجهة ضد الرّومان؛ منوباز، سنبا، نيجر، بـــرايت طـــلاس (Monobase، Sénéba، Niger، Peraîte، Tlass) وقد لام تيتوس جماعة اليهود "لتفاهمهم مع أهل الفرات" وفي الواقع أنّ الفلسطينيين المتواطئين مع الأرزوسيّين، لم يكونوا يحاربون على البر فقط؛ فقد كانت مراكب ميناء "جوفي" (يافا؟) تهاجم الأساطيل التجارية المصريـــة والســـوريـــة. وكـــان ملكـــا كوماجين (Commagène) وأرمينيا المناصران للأرزوسيين، يزعجون الرّومان من الخلف. فالحصار الذي قام به تيتوس للقدس بعد رحيل والده إلى روما، يندرج في خطة إستراتيجية تشمل جميع البلاد الواقعة شرقي سيناء (Sinai) وهي خطة خطيرة بالنسبة للقيادة الرومانية التي اضطرت حسب فلافيوس جوزيف إلى سحب قواتها من جبهة الفرات، لتوجيه مدد إلى أسكلون وجوفي والقدس وتريشة إلي مدن أخرى...

وقد كادت تسقط أنطاكية لذلك بين أيدي الأرزوسيين ولوسقطت لكانت الهزيمة محتومة لا يمكن تداركها. هذا ما يفسّر بصورة كافية تشدّد الطرفين، والإرتياح الذي حصل في مصر خاصة بعد الإستيلاء على القدس في سبتمبر 70. وقد أرسل تيتوس أغلبية الأسرى إلى مصر. ومصر هي التي استقبلت الأمبرطور فسبزيان (Vespasien) الذي حضر قصدا بعد الإنتصار. إن شعور مصر ضد طائفة اليهود كان شعورًا مريرا، خصوصا وأن العلاقات معهم كانت ممتازة طيلة قرون. وقد نظمت انتقامات لكنها لم تمسّ جميع الطائفة. إذ لم ينخرط مع الأرزوسيين إلا الفقراء الضعفاء. أما الطبقات المتعلمة الغنية المرتبطة ماليا بأعيان أنطاكية والإسكندرية، فقد

بقيت على وفائها (لمصر) وفْلافيوس جوزيف نفسه مثال على ذلك. وقد انخرط في الفيالق الرومانية عدد كبير من الفلسطينيين من جميع الأديان ولم ينزل غضب مصر إلا على الطبقات الضعيفة من الشعب، وعلى بعض المسيّرين المتهمين بالخيانة. وفي الإسكندرية أغلقت البيعة التي بنيت منذ سنة 343 في عهد البطالسة، بأمر من فسبزيان (Vespasien)؛ وفي قرنه (Cyrène) وقعت معارك بين اليهود واليونان في الشوارع، وأحرقت أحياء كاملة من المدينة. على أنّه لا الإنتقامات ولا سقوط القدس وأسكلون، وتريشة، ولا وجود قوة كبيرة من الشرطة العسكرية، استطاعت أن ترجع الأمن إلى فلسطين التي كان يسري بها الدعاة الأرزوسيون والتي كانت مهددة بصورة خاصة، لأن ضخامة التجارة الصينية الهندية تفرض حتما على ستزفون إمتلاك مصارف مفتوحة على البحر المتوسط.

وقد استؤنفت الحرب قاسية كاملة مع أسرة الأنطوانات (Antonins) وكانت أرمينيا وفلسطين من جديد، ميدانين رئيسيين. كان من مساعي الأمبرطور ترجان (Trajan) أن دبّر اغتيال ملك أرمينيا غدرا، ودخل بلاد ما بين النهرين واستولى على ستزفون وهبط مسايرا مجرى دجلة حتى انتهى إلى الخليج. ولكن قطعت خطوط مواصلاته، واضطر بعد حملة استغرقت ثلاث سنوات إلى التقهقر فجأة، وتوفي من العناء في سلنونت (Selinonte) من سليسيا (Cilicée) سنة 117. وقد عرف خلفه هدريان (Hadrien) مأساة شبيهة، ونشبت ثورة في سوريا والقدس، ويقص ديون كاسيوس (Dion Cassius) مؤرخ هذه الفترة إحتلال القسين إليزار (Ellazar) وسيمون (Simon) لمدينة القدس التي سميت أيليا كابتولينا (Aélia Capitolina)

بمرسوم من هدريان. وقد إحتل الرومان المدينة من جديد سنة 134 لكنهم لم يتمكنوا رغم ذلك من تحويلها عن ميولها الأرزوسية. وهذا دليل واضح على عدم إستقرار سلطة الإسكندرية وروما في المنطقة، وتوسع نفوذ العالم الأسيوي بكل ضغوطه. واستأنف مارك أوريل (Marc Aurèle) بدوره الحرب ضد فولوغاساس (Vologasas) الرابع الذي غزا أرمينيا، ودفع سوريا إلى التمرد، واحتل شطرًا منها بفضل شجاعة ضباط من قبيلة الساسانيين. وقد يئس الرومان والمصريون واعترفوا بعجزهم عن إحتلال بلدان قريبة متصلة بالعدو، وعن تطويع سكان غير مستعدين لمساعدتهم. ولذلك تبينت لهم سياسة جديدة غايتها تفويض السلطة السياسية والعسكرية لسوريا نفسها، كما لوأنهم أسفوا من الإطاحة بدولة السلوقيين التي كان قيامها حماية لهم. لذلك ظهر الشعور بضرورة سياسة سورية مستقلة عن السياسة المصرية، وأسندت المسؤوليات المدنية والعسكرية لحاكم سوري هوأفديوس كاسيوس (Avidius Cassius)، الذي جابه قوات البارت (Parthes) ووجّه جيوشه إلى ستزفون وسلوقيا، وبدت منه مطامح بعيدة. ويزعم البعض أن خليلته هي زوجة الأمبرطور مارك أوريل (Marc Aurèle) نفسه، وهي عربية معنية بابتعاث عظمة السلوقيين. ومن الأسف لها أن كاسيوس وقع اغتياله ولكن الفكرة لاتزال تحظى بالتأييد، وبناءً على ذلك فإن سوريا والبلدان الواقعة شرقي سيناء (Sinaî)، أخذت تكسب أهمية سياسية متزايدة لثقل آسيا الوسطى والبارت في الأحداث.

هذا وفي سنة 193 ارتقى إلى منصب الحاكم الأعلى سبتيم سفير (Septime Sévère) وأسرته العربية. والأمبرطور نفسه ليبي من لبتيس مانيا

(Leptis Magna) وزوجته جوليا دمنيا (Julia Domnia) هي بنت باسي (Bassi) قس الشمس في إميز (Emèse) التي بنيت عليها مدينة حمص العصرية. وقد كان بها معبد لعبادة الشمس، وكان به حجر أسود كالحجر الأسود في الكعبة بمكة؛ وعبادته كعبادة العرب للنّور الأسود. وبها أيضا بئر مقدسة يعتبر ماؤها رمزا للحياة. وقد شيدت بعد ذلك كنيسة مسيحية ثم مسجد بمكان المعبد، لتخليد التقاليد المقدسة. وعلى النقود السورية القديمة صورة للحجر الأسود المثلث الشكل مع نسر، يمثل رمز النور الأسمى في الفضاءات السماوية. إن تقليد الحكم للأسرة الدينية الحمصية التي سيدوم عهدها من سنة 193 إلى سنة 235 مع سبتيم سفير (Septime Sévère) وإبنيه وحفيديه محاولة ظاهرة لنقل عاصمة المبادرات الأمبريالية من مصر إلى سوريا. وتدل المحاولة بصورة كافية على أنّ مركز الخطورة في العالم الجديد تقدم كثيرا نحوالشرق. وثمة علامة لا بدّ من اعتبارها، وهي أنّ الأمراء الحمصيين، لا تستقر سكناهم في روما، بل سيتنقلون بين ليبيا وسوريا ومصر. وينبغي أن نعرف أنّهم حافظوا على السلم مع جيرانهم الأرزوسيين، بجعل إدارتهم ذات صبغة عالمية وعربية. وقد أتاحوا تعيين مصريين في مجلس الشيوخ، واتخذ كركلاّ (Caracalla) قرارًا سنة 217 خوّل بمقتضاه المواطنة الرّومانية لجميع الأحرار في الأمبرطورية، وألغى بذلك نهائيا الحدود بين المشرق والغرب، وبين الأجناس (الجنسيات) والديانات. أما إبن عمه باسي الجبل (Héliogabale) القسّ الأكبر للديانة الشمسية، فقد نقل الحجر الأسود إلى روما، ووضعه في معبد شيّد له على البلتان .(Palatin) وكان خلفه الإسكندر سفير (A. Severe)

نشأ بأنطاكية، وربّاه العالم اللاّهوتي المسيحي الكبير أورجان .(Origène) كان يعبد ثلاثية مقدسة تتألف من إبراهيم وأورفي والمسيح. وكان عهده من 222 إلى 235، إيذانا بنهاية النظام السياسي المصري الأوربي وإعلانا برجوع آسيا البابلية من جديد إلى ساحة التاريخ، وهورجوع استشعره سبتيم سفير والأرزوسيون المتأخرون. ولم ينفصل الأباطرة العرب تدريجيا عن مصر لسبب عاطفي، ولوضع الأمبرطورية الرومانية تحت شارة الشمس العربية في حمص؛ بل لأن الأرزوسيين سايروا الإنبعاث الزرادشتي الميدي (Médique)، فأحيوا من جديد الديانة الإيلامية القديمة، ولغة الفرس، بينما ظهرت السنسكريتية على حدود الهند. وقد دعا النبيّ الزرادشتي الجديد ماني (Manès) إلى عبادة ربّ واحد أهورا (Ahura) بلا معبد، وبلا تمثيله بصورة، وإنكار أغرامنيوس (Agra Maniyous) أوأهرمان (Ahriman) وفي سنة 226، وقع الحدث الأكبر؛ ذلك أن الملك الساساني أردشير بن ساسان أطاح بالأسرة الأرزوسية التي لم تزل متعاطفة مع الغرب الروماني المصري.

وقد استولى على ستزفون، ووضع حدًّا لفترة من تاريخ البارت دامت أربعمائة وسبعين سنة. وفي الحال أعلن عداءه للرومان واليونان، وطالب بميراث سيروس ودارا الملكين الأخمينيين الكبيرين؛ واعتبر أنّ التقارب الديني الذي قرره خلفاء سبتيم سفير (A. Severe) غير كاف وأنهم من الغاصبين للملك، وأعلن الحرب على الإسكندر سفير، قبل أن يدبّر اغتياله. في هذه المرة، بدأ احتضار الأمبرطورية الرومانية الكلاسيكية وقد أصر الساسانيّون في حربها وأعرب عن ذلك بصورة غيبية في نصوص قديمة كيّفت لتلائم الحال. مثل نصّ "قيامة هستاسب" (Ap. D'Hystaspe) الذي

أخبر بانبعاث المشرق وهلاك روما. وقد أشركت جميع القوى المادية والروحية "في معركة المصير" وفرضت لأول مرة في ستزفون ديانة رسمية صارمة. بدأ ماني نشر دعوته بحماس سنة 241، في اليوم الذي توّج فيه سابور الأول خلف أردشير. وقد ادّعى أنه قيّد بيده شخصيا الكتب المقدّسة الداعية إلى الله الواحد، وأعلن أنه خلف لثلاثة سابقين هم بوذا، وزرادشت وعيسى، ولم يبق أي ذكر لإبراهيم وأورفي وإزيس وهوسى. وأقدم إلى ذلك على تحوير الآرامية وتحديد شكل لها، (حركات صوتية) واستعمل اليونانية كعنصر صوتي، وعمل على تغيير الفكر الديني، إنطلاقا من أبجدية جديدة. على أنه حكم عليه بالإبتداع واجتث رأسه وسلخ وصلب على باب ستزفون؛ وهوعلى كل أوّل حبر في الكنيسة الساسانية التي أنهت ترتيب كتاب الأفستا (Avesta) المقدس بالأبجدية الزندية (Zend)، وصمّمت على إعلان الحرب المقدسة على اليهود والمسيحيين ومدارس إزيس وأورفي وغيرها من المدارس التي تستخدم فيما يخصها إما اليونانية وأما الأرامية. أما اليهود فقد ردّوا على ذلك بانشاء لغة مقدسة مستمدّة من الآرامية، بينما تمسكت المسيحية باليونانية، وقام رجالها بمقابلة الروايات الأنجيلية وصادقوا على النص اليوناني المدعو نص السّبتانت (Septante) باعتباره النص الفريد للتوراة. وقد استمرت أعمال الدعم اللّغوي عند اليهود والمسيحية في خطين متوازيين ولكنها لم تنجح قبل القرن الخامس. فالثورة الثقافية الساسانية التي تمت في القرن الثالث، عنصر أساسي في تاريخ العالم وتاريخ العرب إذ أنها اعملت روح آسيا، ودعمت السلطات الروحية في الجانبين، وزحزحت بصورة مّا، الجسر الذي أقامه الإسكندر وكركلا (Caracalla) بين المشرق والغرب (أوربا)؛ إنّ الآلهة المصرية لا تتعدي الآن حدّ الفرات

بينما يصل تعليم بوذا إلى بلاد ما بين النهرين. ووصل إسم والدة بوذا وهوميّة (Maya) إلى مصر ليتمثل في إزيس. وقد قام الكهان البوذيون بدعوتهم في ستزفون خلال القرن الثالث في عهد الملك أصوكا (Açoka) الداعية. وصوّر الأمير بيروز (Peroz) إخ الملك سابور الأول، على قطع النقود وهو يعبد بوذا. كان أسلاف أسرة البرامكة المشهورين الذين حكموا بغداد كوزراء للعباسيين من الكهان البوذيين الخراسانيين. وقد اعتنقت ديانة زرادشت ودخلت في دين الإسلام آخرا. وبالإضافة إلى ذلك إن المسيحيين أتباع نسطور (Nestor) الأسيويين الصرف الذين اضطهدتهم المسيحية اليونانية الغربية، لجأوا إلى الساسانيين ومن ثمّ اتجهوا إلى تنصير الجزيرة العربية وقبائل المغول البعيدة. فمن السهل أن نتبيّن من خلال الإصلاح الساساني، الفجر الممهد لظهور الإسلام.

وقد كشفت التنقيبات التي قام بها أندري بارو(A. Parot) في دورا أروبوس (Doura Europus)، هذه المحطة الرئيسية في العلاقات بين سوريا وبلاد ما بين النهرين، عن التطور الثقافي والسياسي الكبير الذي حدث في هذا العهد. أسس هذه المدينة السلوقيّون تحت رعاية الألهة الملكية أبولون، زوس وأرتميس (Artemis) وتتسم بعد ذلك مع البارت، بسمة عربية آشورية؛ ويعبد فيها شمس، وحدّاد، وبعل والإلهة ناناية (Nanaîa) ثم تنتشر بها عقائد مترا، واليهود والمسيحية، وأخيرا عقيدة شمس تدمر الزرادشتية. ومن أثر ذلك أن سوريا تتمشرق، وتنظر متجهة إلى استزفون العاصمة الفارسية الرائعة وقد تجردت المعمارية والرسم بها من التصنع اليوناني المصري واستعادا ما كان للصّور القديمة الأشورية من صبغة وروعة وفخامة وانفرادية وصرامة؛ وستقلدها بيزنطة في ذلك. واستؤنف استصناع الجبس

والمرمر المسحوق والخزف والبرونز المنقوش؛ وسيذيع تأثير هذه الفنون ويصل إلى الصين حيث يكون له مقلدون، إلى درجة أن فرسان الفن المنسوب إلى الطانغ (Tang) يبدو أنهم قدموا من ضفاف دجلة. وقد قامت الحكومة السفياتية بتنقيبات أركيولوجية في مناطق الإينسّي (Ienisseî) أثبتت هذا التأثير الساساني كما أثبتت ذلك كنوز بلغاريا وروسيا الجنوبية. وحتى فن المنقوشات على الصخر برسومها المتناسقة وفرسانياتها المتطابقة، قد جدّده صناع ستزفون.

وكان من أثر نشر إنجيل ماني أن أشاع الغموض والإضطراب، لا في الأديان المعروفة من ذي قبل فقط، بل حتى في الفلسفات. وبينما تعدّدت المؤلفات في الأسرار الدّينية (Gnostique) والتأويلات والشروح للتوراة والإنجيل، ألّف فلوتين (Plotin) وتلامذته أمليوس (Amélios) والإسكندر من أسيوط، ولا سيما برفير (Porphyre) نظرية ميتافيزكية شاملة تتعلق بالأسرار والمانويّين واليهود والمسيحيين. وقد نقدوا كل ذلك نقدًا واسعا فاثبتوا تزوير بعض آثار زرداشت، وطعنوا في شجرة نسب المسيح (عليه السلام) المزعومة، وأبرزوا ما كان من التناقضات بين الإنجيليين والحواريين (الرسل) وانتقدوا بصورة خاصة القديس بول .(Paul) وقد حاولت مصر أن تسيطر على التيارات الروحية (الدينية) بمذهب الأفلاطونيين الجدد، لكن بدون جدوى لأنها أحست أنها منساقة منذ الآن إلى التيار الأسيوي.

وأما مدن فلسطين الجنوبية والقدس خاصة التي خانت دعوة مصر والرومان، وناصرت الأرزوسيين، فقد صارت بمقتضى المنطق السديد بجانب الساسانيين، ولم تكن الطوائف اليهودية تخفي ذلك. وتدل

الكتابات المنقوشة في بيعة دورا أوربوس (Doura Europos) على أن كهان اليهود ارتبطوا بعلاقات مع ستزفون قبل افتتاح جيش سابور للبلاد. وكان الأمر كذلك فيما يخص مدن الجزيرة العربية.

كانت الأمبرطورية الرومانية تتخبط في صعوبات عسيرة الحل. وقد زعزعت في المشرق وعجزت في الغرب عن وقف غزوالجرمان والدّاس (Daces)، فالدانوب والران (Rhin) يجتازهم هؤلاء الغزاة يوميا وقتل الغوط (Goths) الأمبرطور دسيوس (Decius) سنة 251م وعجز فالريان (Valérien) عن مقاومة سابور الذي غزا سوريا ثمّ أنطاكية، ونقل الأمبرطور الأسير إلى ستزفون حيث سلخ بعد أسر دام ثلاث سنوات. ومرة أخرى كان السوري أذينة أمير تدمر (Palmyre) هوالذي أنقذ البلاد وهزم الساسانيين. ولكن زوجته زنوبيا المشهورة رغبت في التحالف مع ستزفون. وقد انتصر عليها أورليان (Aurélien) وخطيت منه بمعاملة وعطف بليغ، إذ كانت الأمبرطورية في عناء كبير ولم يكن لها مخلص من عجزها.

وكان من حسنات ديوكلتيان (Dioclétien) أن أعاد الإستقرار لإدارة الأمبرطورية، ولكن لم يتمكن من استرجاع وحدتها لإتضاح أن المقاطعات الغربية لم تعد إلاّ ملحقات ضعيفة لا أهمية لها ظاهرة. وما بين 284 و305 أسّس ديوكلتيان (Dioclétien) ملكية مطلقة من النموذج المشرقي الجماعي، مطابقة للنظام الساساني المطلق. وفعل كما فعلوا فعزّز ديانة الدولة، إلى جنب عبادة الشمس الحمصية. وفي سنة 303 اتخذ قرار نكوميدي (Nicomédie) الذي اضطهد بمقتضاه على ما قيل المسيحيين ودشن عهدًا جديدا للإضطهادات. وليس من السهل أن يقدم تفسير لهذه الإضطهادات التي بدأت مع نيرون (Néron) ولم تتوقف إلا مع كنستينتان

(Constantin)، وبعد أن دامت أكثر من مائتي سنة. ولم يسبق في العصور القديمة أن حارب الملوك الطوائف الدينية بمثل هذه الصرامة؛ مع أنّ عددا من الأمبرطوريين الرومانيين لم يخفوا تمسكهم بالمسيحية. إنّ العقاب كان ينزل على المدن لا على الأدميين في حين إنه لم تكن ثمة مدينة جميع أهلها من المسيحيين؛ ولم يكن يعرف الناس في ذلك العهد ما يسمى بجريرة أومخالفة الرأي (Délit d'opinion) إن الساسانيين كانوا يعتبرون المسيحيين أعداءً دينيين ولم يكونوا يرون غير ذلك في اليهود. ومع ذلك فقد اضطهدوا المسيحيين ولم يفعلوا ذلك مع اليهود، ولم يمسوا كذلك المسيحيين النسطوريين، فهذا السلوك غامض. وقد زعم الزاعمون أنّ اليهود وشوا بالمسحيين لدى السلطات القضائية، وهذا افتراء لا مبرر له، سيما وأن سمعة اليهود كانت منحطة منذ فسبزيان (Vespasien) وكثيرا ما يذكر بهذا الصدد الكتاب الذي عنوانه "ضد المسيحيين" الذي ألفه كاتب في القرن الثاني يدعى سلس .(Celse). فالإتهامات الموجهة ضدهم مثل "إنهم ناس لا وطن لهم ولا تقاليد" و"أنهم يعقدون اجتماعات سرية" أو"إن دينهم عقيدة من منبع بربار" و"أنهم يتعاطون السحر" اتهامات لا أساس لها، ولم تكن لتثير استنكار أي شخص في روما. وبالإضافة إلى ذلك، إن انتقادات سلس (Celse). تطعن في اليهود وفي المسيحيين على السواء. إنّه كتاب حشر فيه أخطاء فظيعة وادعاءات فارغة ويشبه في ذلك تمرينا على الأسلوب البلاغي من تلميذ، أكثر مما هو دراسة جدية. وكل شيء يحمل على الإعتقاد بأن هذا المؤلّف مزوّر، وليس من المعقول أن يعتمد ويرجع إليه. إن الإنتقاد المزعوم الذي انتقده به أورجين (Origène) والذي يعتبره بعض النقاد شهادة منه، انتقاد مشبوه، لا يمكن الإطمئنان

اليه. وبالإضافة إلى ذلك إن هذا المصنف "ضد المسيحيين" لم يلفت الأنظار، وكان لا بد من انتظار القرن الرابع عشر، لنعلم بظهور مخططه. وليس في المراسلات التي كانت بين بلين (Pline) حاكم بيّني وبين ترجان (Trajan) والتي يشار إليها كثيرا ما يفيدنا بأي توضيح. وهي في الواقع مراسلة أدارية تتعلق بالمسيحيين ولا أهمية لها. ومن الصحيح أنه لم توجد حكومة في العصور القديمة الكلاسيكية وقفت موقفًا غير متسامح مع أي نظام ومذهب ديني. ولا ينبغي أن ننسى أيضا، أنّ الأمبرطوريين كانوا في عهد أسرة سفير مسيحيين أو ذوي علاقات مع المسيحية؛ مثل فيليب العربي، وأن الأساقفة كانوا مشاركين في السلطة؛ الأمر الذي يجعل من العسير تفسير التراجع القاسي بصورة خاصة الذي كان من ديوكلتيان، إن راعينا التفسير العقيدي لا غير. ومهما كان فإن ديوكلتيان فشل في مشروع تأسيس ديانة دولة وأدى الإصلاح الجماعي الذي أجراه باسم تتراشي (Tetrachée) (أي الولاية الربعية) إلى تفتيت الأمبرطورية الرومانية. ولم يبق منها إلا تقاليد "برتوكول" صارم منقول عن الإسكندرية والساسانيين من عهد سابق. وقد كان أن سنّ الأنطونيّون (Antonins) تحية "نهوض الملك" وحفل التكفل بالتقديم للبلاط، وهيئة وصيفات الإمبرطورة والتحية الأمبرطورية الموجهة بالأصابيع والركوع. وأضاف ديوكليتان إلى ذلك، أبّهة فخمة؛ من الدّنو إلى العرش الأمبرطوري على الركبتين، وتطريز أثواب القيصر بالذهب، وحول صورته على النقود هالة، ويدعى صاحب "الجلالة".

بيزنطة والحروب المقدسة

«هندسة العوالم في أروع صورها»

كان على كنستنتان بن كنستانس كلور (Constance chlore) زميل ديوكلتيان أن ينقل عاصمة الأمبرطورية إلى المشرق، لأن القياصرة يقيمون في أكثر الأوقات في المشرق. ففي 11 مايو 330 دشّن الأمبرطور "المدينة الخالدة" "روما الجديدة" التي تسمت باسم القسطنطينية، في مكان بيزنطة القديمة ذات الموقع الرائع على البسفور. ومن هذه الضفاف عند ملتقى التيارات الجيوسياسية في العالم القديم، يمكن إلقاء نظرة واسعة جد واضحة على الإستعراضات التاريخية والتأمل في نفس الوقت في مصير البحر المتوسط. إن المسالك الدانوبية، وخط الفرات وطريق النيل تكدّس ونوجّه ثروات أوربا وشبه القارة الصينية الهندية والقارة الإفريقية إلى محطة الإلتقاء العربية الأوربية، أي القسطنطينية. وبامعان التأمل في محيط القسطنطينية الواسع العريض نعرف أن البحر الأسود وجزيرة القرم (Crimée) والقوقاز ومناطق روسيا الجنوبية واقعة بالطبيعة تحت تبعية الأمبرطورية. وستبقى الظروف الجغرافية والإقتصادية والسياسية في العالم القديم هي ظروف عهد كنستنتان حتى تفتح قناة السويس. إن انتقال عاصمة المعاملات في القرن الرابع من الإسكندرية إلى القسطنطينية، إقرار

لأهمية بلدان الشرق الأقصى التي طمست مكانة إفريقيا؛ ويدل أيضا على أن البحر الأسود وبحر قزوين منصرف مقاطعات آسيا الوسطى، أصبحا الآن حصنين لحضارة كبيرة. وبذلك صار أمبرطور القسطنيطينية أميرًا دانوبيا، سكيتيا (Scythe) وروسيا وعربيا ومغوليا في آن واحد. إن القسطينينية ملتقى المسالك والأمصار العديدة هي أيضا ملتقى نزاعات وحروب. لا سيما وأن النظام الإقتصادي البيزنطي متشابك مع النظام الساساني الذي يتحكم بتنظيمه القوي في طرقات الشرق وسمرقند، وبوخاري (بخاري) إلى جزيرة سيلان. وقد ألف التاجر الإسكندراني كوسماس أنديكوبلوستس (Cosmas Indicopleustès) كتابا عجيبا في القرن السادس، ذكر فيه بكل دقة خريطة المؤسسات الساسانية. ومع أن القسطنطينية وستزفون تتحاربان، فإن كلا منهما في حاجة إلى الأخرى؛ كل واحدة تسعى للتحالف مع الغوط (Goths) والمصريين والمدن العربية والأثيوبية، وتمدهم بالسلاح الكثير، عاملة بذلك على خرابها.

وقد انخرط في جيش سابور الأول الذي ألحق هزيمة نكراء بالأمبرطور فالريان، عدد كبير من وحدات الهون (Huns) وعرب الجزيرة. وفي القرن الرابع في عهد الأمير كنستنتان ثم كنسطانس، جوليان وتيودوز الكبير (Théodose Le grand) اتجهت العناية والمحاولات إلى صون شبه وحدة الدولة المقسومة جغرافيا إلى أربع ولايات، وإلى حماية الحدود، وبصورة خاصة باعتبار مّا، تأسيس ديانة دولة تعارض كنيسة الساسانيين. على أنه لم يكن من السهل في بلدان انتشرت فيها عقائد وكنائس عديدة مختلفة، متشابكة، وبينهما فوارق غير محدودة، أن تفرض عقيدة وعبادة واحدة. وقد اجتهد كنستنتان لتحقيق ذلك؛ كانت والدته الأمبرطورة هلين (Hélène)

مسيحية، قامت بتحقيق في فلسطين لإكتشاف الآثار المادية من حياة المسيح (عليه السلام). أما كنستنتان فلم يكن من المسيحيين المتحمسين للمسيح؛ كان يرغب في التنصر طيلة حياته، وتعمّد في (in (Articulo niortis ومهما كان، فإن "الألوهية السامية" (Suprima Divinitas) في الوثنية الفلسفية، غير بعيدة من العقيدة المسيحية، على ما كان يبدو له. ولكنه قدّر أن المسيحية يمكن أن تكون الديانة الموّحدة الملائمة لأهدافه، فشرع باعلان حرية المسيحية بمرسوم ميلان (Milan) بتاريخ 313، دون أن يقصي العقائد الأخرى؛ ومع ذلك فقد عمل على إغلاق المعابد الوثنية، بطريقة غير صاخبة. والأمر الشاغل هو أن يعرف الناس أية مسيحية يجرى بها العمل. إنّ القّس الإسكندراني أريوس (Arius) كان يصر على إنسانية المسيح مؤكدا أنه ليس هو اللّه، بل إنه مخلوق اللّه وأنّ نعت مريم بأنها "والدة الله" (Theotokos) من الدجل والتضليل. وكان أتناز (Athanase) الإسكندراني هو أيضا، يقول بخلاف ذلك وبألوهية المسيح؛ وهو رأي تصوفي استيحائي، لا يندرج في المقولات المنطقية. وقد صادف أنّ نظرية أريوس متفقة بعدة حجج مع نظريات ماني والكنيسة الساسانية العدوة. وكان ينبغي لذلك التنديد بأريوس. وقد رأس كنستنتان شخصيا لهذا الغرض في سنة 325، مجمع نيسي (Nicée) في بيتيني (Bithynie) وألقى خطاب الإفتتاح. وقد أمر أريوس بالتراجع عن نظريته، بينما صادق آباء المجمع على رسم الإيمان الذي حرره أتناز (Athanase) المبرّر فيما بعد، ونصه :"إننا نؤمن بإله واحد، المسيح إبن اللّه، الإبن الوحيد للأب، إنه اللّه ولده اللّه، والنّور المتولد من النّور؛ وهو اللّه الحقيقي المنحدر من اللّه، المولود غير المخلوق ومن مادة الأب". وبالإضافة إلى وثيقة الإيمان هذه،

أصدر المجمع عشرين قانونًا أوقاعدة نظامية؛ ويعترف القانون السادس لأسقف الإسكندرية وفي أرض مصر، بنفس السلطات والإمتيازات التي يتمتع بها أسقف روما في إيطاليا؛ ويلاحظ أنّ القانون السابع يرفض الإعتراف لأسقف أيلة (إسم القدس الرسمي) بمقام آخر غير التشريف، بينما يتمتع أسقف أنطاكية ومقاطعات أخرى "بحقوق قديمة" لم توضح نوعيتها.

كان هذا المجمع حدثا كبيرًا خطيرًا ذلك لأنه لأول مرة وغربّي الفرات، تحاول الدولة فرض دين على الشعب، مخالفة بذلك وبصورة خطيرة تقاليد البحر المتوسط التي مرت على سيرتها في التوفيق بين الكنائس المتعددة آلاف السنين، ومن الصحيح أنّ كنستنتان إنما ردّ بذلك على موقف السلطات الساسانية المسؤولة الأولى في هذه القضية. ولكن فكرة المجمع نفسها كانت فكرة ثورية وغريبة. إن أغلبية سكان المشرق العربي اعتبروا اجتماع القساوسة -وهم من عباد الله- للحكم على قساوسة آخرين أوإنكار إله آخر غير إلههم، أمرًا منكرا، وأنّه من مناورات الحكومات.إننا باعتبارنا قد ألفنا النزاعات الإيديولوجية والدينية، يعسر علينا تصوّر ما أصاب المشرق من ذهول وذعر عندما أعلنت قرارات مجمع نيسي (Nicée)، التي اعتبرت إعلانا بالحرب على الساسانيين أولا، ثم على التقاليد العربية. وكانت سنة 525 مبدأ تاريخ جديد حافل بالإضطرابات الدينية العميقة التي كانت ردود فعل وطنية وشعبية، على مبادرات السلطة الأمبرطورية المعتبرة سلطة أجنبية من ذلك اليوم. وبينما سلك الأتباع الكثيرون لأريوس، طريق ستزفون التي رحبّت بهم أحسن ترحيب، لم ترضخ مدينة أنطاكية لأوامر المجمع إلا مترددة وبغير اقتناع. فقد بدا أن الخطر كبير لإمكان تحوّل آسيا الصغرى إلى منطقة تابعة للسّاسانيين.

ولتدارك الحركة الإنفصالية استدعى الأمبرطور تيودوز الكبير مجمع القسطنطينية سنة 381 ونوّه بمصر تنويها ملحوظا.

ولم يستنكر المجمع الأريانية مرة ثانية فقط، بل وافق على حجج الكلاميّين الإسكندريين، فأعلن أنّ الروح انبثق من الأب والإبن. وبذلك نشأت نظرية التثليث، وارتفعت سمعة الإسكندرية إلى درجة أنّ بطريركها اعتبر وارثا للفراعنة، جديرا بمنصب باباوي، تخوّل له في المشرق سلطة معادلة لسلطة البابا أسقف روما.

وفي الوقت نفسه تأكد انقسام العالم العربي إلى طرفين، على جانبي الفرات، وقد استمرت المعارك الطويلة بين جيوش الإمبرطورية وقوات الملك سابور (ستزفون) ولا تفصلها إلا هدنات قصيرة. وبالإضافة إلى هذه الحروب كانت الأمبرطورية تعاني من شقاقاتها الداخلية. ذلك لأن مجمع القسطنطينية زاد من حدة الثورات، وشجع أنطاكية على موقفها الإنفصالي، ولم يقدر تيودوز الكبير على قمع انتفاضتها الدامية. وكانت المقاطعات الأوربية التابعة للأمبراطورية تتفكك بالتوالي لضربات الشعوب الجرمانية. ولما توفي تيودوز في سنة 395، اقتسم ولداه المملكة، وناب أركديوس (Arcadius) القسطنطينية، بينما حصر هونوريوس (Honorius) السيء الحظ في روما ورفين (Raveinne)، ولم يكن ملكا إلا اسما. وابتداء من القرن الخامس، أخذت الغزوات الكبرى، تغمر البلدان الرومانية؛ فالوندال استولوا على اسبانيا وسميت الأندلس باسمهم؛ ومن الأندلس اجتازوا إلى افريقيا بترخيص من القسطنطينية وأسسوا بها مملكة بقيادة جنسريك (Genseric) أما الغوط (Goths) فقد احتلوا إيطاليا وبلاد الغال (La Gaule) وإيليريا (Illyrie). ومن نتيجة غزوات أتيلا (Attila) الذي أعلن ملكا سنة 445،

أن فككت الأسس الرومانية الأخيرة وألغي لقب أمبرطور الغرب سنة 476 ولم تبق بعد ذلك إلا أمبرطورية المشرق بالقسطنطينية التي ستعيش حتى سنة 1453 رغم العواصف والأحداث الهوجاء. وقد تفرق غرب الأمبرطورية إلى ممالك صغيرة متنافسة بقيادة زعماء القبائل الجرمانية. وكانت محاولة تجميع هذه الممالك بسعي صارم من تيودريك (526 - 455) (Théodoric) صهر كلوفيس الفرنجي (Clovis Le Franc) محاولة فاشلة، وبقي المشرق (أي القسطنطينية) صاحب السيادة الوحيد على العالم، لما يتمتع به من مدن كبيرة، وصناعات ومجموعة من الأنهار والموانئ المنظم للرقابة على البحار؛ ولإقتصاده المتين القائم على خدمة ملايين البشر المجموعين في منظمات وهيئات حرفية منذ آلاف السنين. فالمدن التالية الإسكندرية وبيروت، ووتربزند (Trebizonde) وشالسدوان وكورانت وأنطاكية ولاوديسي (Laodicée) وتسالونيك، وبرغام وغيرها من الحواضر الكثيرة بقيت محافظة على التقاليد المشهورة. لقد انتصرت الغزوات في مغرب الأمبرطورية ولكنها تحطمت عندما جابهت المعاقل البيزنطية في المشرق، فالجيش الأمبرطوري في المشرق قد صمد للغوط (Goths) الذين تسربوا إلى أفريجيا، وصمد ضد الهون (Huns) الذين نفذوا إلى بلاد ما بين النهرين وسوريا، وضد الساسانيين وانتصر في كل مكان. وفي سنة 413 شيد تيودوز الثاني أسوار القسطنطينية التي لا يزال بعضها قائما إلى اليوم. وهي تمتد على ست كيلومترات، وبها ستة وتسعون برجًا، وعشرة أبواب؛ وتعتبر هذه الأسوار من أجمل آثار المعمارية العسكرية العربية. على أن السوسة قد دبّت في الجسد، واشتد عنف الكفاحات الدينية. وقد أيد نسطوريوس السوري وبطريرق القسطنطينية النظريات المسيحيّة الأريانية، بتأثير من ستزفون، وقال

إن المسيح ما هوإلا مخلوق؛ وقد عارضه سريل (Cyrille) بطريرق الإسكندرية المؤيد للمونوفزم (Monophysisme) أي الطبيعية الواحدة في المسيح (عليه السلام)، النظرية التي ارتأها أتناز .(Athanase) وقد انعقد مجمعان في إفيز (Ephèse) سنة 431 و449، ففرض بطريرق الإسكندرية نظراته التصوفية (؟) وأعلن الإستنكار على رجال الكنيسة الأنطاكيين والقسطنطينيين. كان هذا الإنتصار المصري ظاهر الوضوح إلى درجة أنه ظن حينها أنه زحزحت البابوية الرومانية أوأنها تنقل إلى ضفاف النيل. وفي سنة 450 وقع حدث لم يسبق له نظير هوسنّ حفل التقديس؛ وبمقتضى ذلك فإن الأمبرطور مارسيان (Marcien) يستلم التاج من يدي كبير الأساقفة. وباتحاد الكنيسة والدولة بصفة رسمية حولتا السلطة الزمنية إلى قانون إلاهي وجعلتا من رعايا الأمبرطورية أتباع دين يعتقد باللّه وبقيصر. وفي هذا خطر كبير على البابا في روما، هوأن يصبح خادما للقسطنطينية والإسكندرية. لهذا قام البابا ليون الكبير (Léon le Grand) بمناسبة انعقاد مجمع شالسدوان سنة 451 بمناورات ليحصل على استنكار المونوفزم (Monophysisme) ويحرم بذلك الإسكندرية من السمعة المعنوية التي اكتسبتها.

وقد تأذى بذلك شعور المشرق العربي متألما، ولا حظ الشعب أن الغرب اعتدى عليه بصورة خطيرة؛ ولا يمكن لذلك أن يخضع لحماية روحية منه، لأنّه يعتقد بأنه هوصاحب هذه الديانة ومنبعها وواعيها وحاميها بينما الغرب تابع لها لا غير. إن روما والأمبرطورية قد نالتا بتصرفهما مرتين من روح المشرق وروحانيته المقدسة، مرة أولى باستنكار مذهب السّوريين المتمثل في موقف أريوس، ومرة ثانية، بالتشهير بمذهب المصريين الذي يمثله البطريرق سان أتناز (St Athanase) وسان سريل .(St Cyrille) كان

الإغتياظ من الشعب عميقا، وفي الحال عملت كنيسة أنطاكية وكنيسة الإسكندرية المتنافستان حتى حين، على التفاهم والتصالح على حساب باباوية روما، واتجهتا فوق ذلك بنظرهما إلى الكنيسة المشرقية الثالثة، كنيسة زرادشت الساسانية، التابعة لستزفون. وبناء على ذلك، نشاهد منذ ساعة مبكرة، ومنذ منتصف القرن الخامس تحالفًا دينيا وشعبيا شبه صريح بين العالم المصري والعالم البابلي. وسيكون هذا التحالف دعامة للإسلام المعبر عن تحدي المجتمع الآرامي، للعقائدية اللاتينية.

ولما حلّ عهد جستنيان (Justinien) الذي تولى الحكم من 518 إلى وفاته سنة 565، اشتدت الهجومات على الغرب الأوربي، واتضحت لإعتبار مساعيه تدخلا فيما لا يعنيه. كانت الأمبرطوة تيودورة نفسها عدوًّا صريحا للاتينية. وستؤيد خلال هذا العهد الطويل زوجها في محاولة ابتعاث الدولة السلوقية. على أن هذه المحاولة كانت مع الأسف مشفوعة بارادة إخضاع مصر والساسانيين، إنّ جستنيان رغب حقا في توحيد العالم العربي، لكن على أن يكون ذلك تحت سلطته، وبقبول قرارات مجمع شالسدوان؛ فهو لم يقرأ الحساب للتقاليد الشعبية ولطبيعة المشرق المتسامح، ولم يكن يرضى بالإنقسامات، فأسس سنة 425 جامعة القسطنطينية، التي خصصت خمسة عشر كرسيا لليونانية مقابل ثلاثة عشر كرسيا للاتينية. وفي السنة نفسها حرمت جامعة الإسكندرية من امتيازاتها، وأغلقت جامعة أثينا سنة 529. وبالإضافة إلى ذلك أجلى البوليس الناس من معابد آمون وإزيس في ليبيا وفلاي (Philaé) ولم يبق إلا أن يحصل على طاعة أنصار المونوفزم (الطبيعة الواحدة) الذي يؤيده بطربرق مصر، واستنكره مجمع شالسدوان. وقد صمم جوستنيان على أن يكون السيد الوحيد في مملكته، فلجأ إلى

الإضطهادات العنيفة والإعدامات الجهرية والإبعاد والعدوان المسلح. وقد أقصي "أهل البدع" من الوظائف العمومية ولكن دعوتهم لم تتوقف بذلك. كانت المقاومة الشعبية للقيصرية وللباباوية الجوستينية مقاومة جد شديدة؛ وكانت الأمبرطورة تيودورة تؤيد في الخفاء "المونوفززم" مذهب المصريين وتستقبل وتؤوي في القصر القساوس الذين يبحث عنهم رجال الشرطة. وقد استطاع جاك دوبرادي (J. De Baradée) بفضل رعايتها، أن ينظم في السر الكنيسة اليعقوبية التي لا تزال حية في أيامنا. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ المناطق الصحراوية من النيّل إلى أرمينيا، كثرت فيها الأديرة، والزهاد، وانتشر الحماس الديني التصوفي، إلى درجة أنّ المسيحية سلكت طريقا لم تعرفه حتى الآن كنيسة الحواريين؛ وهي طريقة التأمل والتعبد الإنفرادي، والإعتزال. وهذا يرجع إلى تأثير الأورفزم والبوذية والطمأنينة الزرادشتية التي دفعت إلى هذا السلوك.

وقد سبق أن أسّس الراهب باكوم (Pacôme) من قنا، في سنة 330 بمصر العليا وتبنيسس (Tabennisis) أول دير وأسست أخته أول دير للنساء وفي القدس ضبط الراهب المشهور سان سابا (St Sabas) في مصّنف تبكون (Typicon) قواعد الترهب؛ وحررت في سنة 534 طريقة سان بنوا .(St Benoit) أصبحت الأمبرطورية بسبب هذا الإتجاه حافلة بالأديرة التي بلغت سبعا وستين في ولا ية القسطنطينية وحدها. وكل هذه الأديرة والرباطات مراكز مقاومة لجوستنيان، وخلايا لتعليم الشعب، تلتقي فيها وتأوي إليها جميع العقائد الروحية العربية والشرقية القصوى، بحيث يبدوأنه كان إلى جنب الكنائس الرسمية المؤيدة للبلاط وللطبقات النبيلة وتحت إشرافهما، نوع من الأحزاب الثورية قائمة على عقيدة عاطفية قليلة القواعد الإيمانية لكنها

غنية بأشواقها، حافلة بالأساطير والأسرار. كان الرهبان ورجال الكنيسة يراقب بعضهم بعضا، كما كانت تفعل المدن والأرياف فيما بينها، ويتبادل الأغنياء والفقراء مثل ذلك.

كانت الفتنة مستخفية في كل مكان، وكل راهب يعتبر مشاغبا، فالشعب الآرامي يتآمر ويحارب روما والبابا والسلطة الأمبرطورية، والعقيدة الكنسية. إنه يحارب باسم المسيح حقّا ولكن أيضا وفاء لتديّن سابق للإنجيل، مشوب بالعقيدة الأوزيرية، واليهودية شائع من قبل الطوفان، متهيء للإسلام. وقد دامت هذه الثورة الشعبية لإستمرار الحروب ضد الفرس الساسانيين؛ إذ أنّ اجتياح الزراعات وهجرة الفلاحين، وفقر الغارمين وشراء الضمائر بذهب الساسانيين، كل هذا مما كان يدفع العامة الدهماء إلى التهجم على الأمبرطورية. وقد حوصر جوستنيان في شتاء سنة 532 – 533، في قصره، ولم ينج إلا بتدخل الجنرال بليزير (Belisaire) الذي حبس وقتل أكثر من عشرين ألف مشاغب في ميدان سباق القسطنطينية. هذا مع أن جوستنيان كان مؤيدا للشعوب الأسيوية في أهم القضايا. إنه كالمشارقة لم يكن يعبأ بروما ولا بغرب أصبح تحت سلطة الجرمان وكلّف جيوشه باستعادة مملكة تونس الوندالية وصقلية ونابولي وروما. وفككت بلاد ورثة تيودوريك .(Théodoric) وقد أبرم في الختام مع كسرى الملك الساساني معاهدة "سلم أبدية" وقبل أن يدفع له خراجا على مراكزه الواقعة عند القوقاز. وتهجم على بابا روما، فأهانه وأجبره على أن يتراجع عن رأيه في مجمع القسطنطينية سنة 553. وفي الحال استنكر الغرب البابا فيجيل (Vigile) السيء الحظ وانشق عنه قسم من رجال أسقفيته. ومن جهة أخرى قرر جوستنيان نقل العاصمة من روما إلى رافين (Ravenne) وفقد

الغرب إذاك تضامنه الروحي الديني. وقد انتخب الخلفان لفيجيل (Vigile)، بولاج (Pelage) وجان الثالث بتعليمات من ضباط الأمبرطور ولم يكونا لذلك إلا من الخدمة الطائعين للبلاط. وأثناء ذلك ومنذ فقد جوستنيان زوجته التي توفيت تقرّب من أنصار "المونوفززم" (القائلين بالطبيعة الواحدة)، ومن الرهبان وحتى من الآريين محاولة للتوفيق بين أهل بلاد المشرق، وجمعهم في كنيسة موافقة لتقاليده. جدّد علاقاته مع مصر، وأكثر من عقد المؤتمرات والندوات، وبذل المساعي في مجال الديانة ليحقق وحدة العقيدة. وقد عدل منذ حين عن الأرثدوكسية (Orthodoxie) المقّررة في المجامع السابقة، ولم يتردد في الإتفاق مع "المبتدعة". وفي سنة 565، سنة وفاته اتخذ أمرا أيّد فيه الكنائس المنشقة.

ومن المؤسف له أن السلطة الأمبرطورية فقدت بعد سمعتها، لموافقتها المتوالية مع الأطراف المختلفة، ولم يلاق جوستنيان مع حسن نيته، إلاّ الإحتزاز أوالإغتياظ. وقد انتهى عهده في غموض عام. ومهما كان فإن الأمبرطور قد عمل على بعث مجد الثقافة والفنون الذي كان لبلاد المشرق العربي. كان من أعماله تدوين التشريع المسمّى بقانون جوستنيان، وهومجموعة مقسمة إلى اثني عشر كتابا، تقليدا لقانون الألواح الإثنى عشر؛ وتقرّ العادات السائرة في بلاد المشرق منذ أقدم العهود. وسيكون هذا القانون دليلا لجميع الأنظمة (Corpus Juris Civilis) القانونية التيْ وضعت بعد ذلك، وهومستوحى من القوانين المصرية والبابلية والفلسطينية والقانون الروماني النابع منها. كما يكون عمادا لجميع الخلفاء ولممالك الغرب (أوربا). ومن مبادئه أنه يعترف بأن جميع الناس سواسية وأحرار بالفطرة؛ وأنه لا ينبغي أن يكون فرق بين الذكور والإناث في الميراث، وأن المرأة يجب أن تحظى

بالحماية من الطلاق بهبة (أي صداق) قبل الزواج (Donatio anté nuptias) وأن الأسرة هي الخلية الأساسية في المجتمع كما أكّد هذا القانون بكل وضوح سلطة الدولة السائدة التي وضع لها حدّ خاص قانوني يمثلها بشخص الملك. وبذلك فإن المفهوم الفرعوني للسلطة توارثته الدول التي قامت بعد ذلك في العالم. وإذا كان من الصحيح أن عواصم المشرق المعاصر قد نقلت قانون نابليون، فذلك من بضاعتها التي ردّت إليها؛ لأنه صورة مختصرة للقوانين القديمة الفرعونية والجوستنية.

إن نهضة الآداب العربية في عهد جوستنيان فصل هام من تاريخ الحضارات العام. كان استعمال اللغة اليونانية جاريا مع الآرامية، التي تطورت إلى "السريانية" عند المتعلمين، وما هي إلا العربية في الإستعمال اليومي والشعبي. وكل الأعلام الكبار من أدب عهد جوستنيان فلسطينيون أوسوريون. وبركوب (Procope) أكبر المؤرخين من قيصرية (فلسطين)؛ وجان مالالاس (J.Malalas) صاحب مؤلف في تاريخ العالم منذ العهود الأولى راهب من أنطاكية؛ وجان ديفيز (J. D'Ephèse) ألّف بالسريانية تاريخا للكنائس. يضاف إلى ذلك مجموعة كثيرة من الشعراء والناظمين للأناشيد والأغاني، مهّدوا للعصر الأموي الرائع، وتناولوا مثل هذه المواضيع والأغراض باليونانية أوبالسريانية. وإذا كان أكبر الكلاميين (Théologien) في القرن ليونتيوس (Léontios) من بيزنطة فالأغلبية الكبيرة من الكتاب من غزة وأديس (Edesse) ونزيب (Nisèbe)، وبيروت (Beyroute)، وطن كبار أساتذة القانون مثل دروتيوس (Dorotheios) وأناطوليوس .(Anatolios) ونذكر عرضا بول سلانتيير (Paul Silentiaire) وَرومانوس (Romanos) وكوربوس (Corippos) وجان ليدوس (J. Lydos)،

إلخ فالمساهمة التي شاركت بها سوريا إذاك في الثقافة العالمية مجهولة لدى الرأي العام في عصرنا. كما أن هذا الرأي العام يجهل أن القسطنطينية التي أحتلت مكان الإسكندرية في نشر الفكر والفنون كانت تشع بأنوارها إلى أقصى أوروبا وآسيا وإفريقيا. وهذا من التقاليد التي ترجع إلى أقدم العهود. وقد أبرز لوي برهي (Louis Bréhier) وبول شيفر بواكرست (Paul Scheffer Boichorst) في كتابهما (du Byzantinische Zeitschrift Corpus) منذ فجر القرن العشرين، مدى تأثير الفكر السوري على الغرب (أوربا). وقد أشرف سبعة باباوات من العرب على الأقل على الكنيسة في أول عهدها؛ وهم سان أنست (155 - 166) (St Anicet) وسان جان الخامس (685 - 686) (St Jean V) وسان سرجيوس الأول (687 - 701) (1er St Sergius) وسان سيزنيوس (708) (St Sisinnius) وسان كنستنتان (715 - 708) (St Constantin) وسان غرقوار (731 - 741) (St Grégoire) وليون الثالث (Léon III) ولم تكن أية واحة أومدينة في الجزيرة العربية إلا وهي متأثرة بهذه الثقافة الرائعة التي يتمثل اختصارها وأوجها في فن المعمارة في كنيسة آية صوفيا، بلا ريب.

إنها بما تمثله من التقاليد، تلقي على تاريخ الفن ضوءا يكشف عن التناسقات الداخلية التي تحدد أسلوب الرّومان[1] (Le style Romain) وهي تفسر البندقية ومقاطعة التسكان (Toscane) كما تشرح معنى أشكال سان بير (St Pierre) بروما، وكتدرائية التمورة البديعة في مقاطعة البوي (Pouilles) (في جنوب إيطاليا) وكنائس لوبوي (Le Puy) وشير ديو(La chaise Dieu) وفونتفروا (Fontevrault) إلخ ...

---

1 - أسلوب الفنون التي ازدهرت في القرنين الحاد عشر والثاني عشر،

إننا نعرف بكنيسة آية صوفيا في فخامتها وقوة خلابتها، سر المعمارة العربية بصورتها التي ازدهرت في الغرب (أوربا) وتمثلت بها. إن الفكرة في تصميم آية صوفيا وكل فن عربي على العموم ترجع إلى جمعها بين السماء والأرض في آن واحد في محفل تقوم فيه البناية بدور العبادة. إنها تمثل الإعجاب والتمجيد لكل شيء رائع في الإنسانية؛ وتدعولتفضيل التصاميم المعمارية الكبيرة القائمة على الفضاءات المستديرة الملساء المصرية النمط، وتقدير النظام والمعرفة الدقيقة للهندسة. فلا وجود فيها للإلتفافات ولا للتفاهات ولا للأحلام اليقظة. وقد لا حظ المعماري المصري حسن فتحي قائلا :"لا توجد معمارية عرفت كيف تستدعي السماء كما فعلت ذلك المعمارية العربية.

كان جوستنيان يعتبر كنيسة آية صوفيا، عمل حياته وصورة للعظمة السورية الأسيوية. وقد كلف اثنين من المعماريين بتشييدها هما : أتنيوس دوترال (Athénios de Tralles) وإزيدور دوميلات (Isidore de Milet) التلميذان العارفان بالتقاليد السورية. وقدحققا بتشييدها معجزة؛ انتهى ذلك في خمس سنوات ودشنت في ديسمبر 537. انهارت القبة العالية في سنة 558 وأعيد بناؤها وأنجز في سنة 563. إن آية صوفيا تتحدى منذ أربعة عشر قرنا قوانين الجاذبية وتشهد على إبداع ناجح ليس له نظير. وقد اعتبر بروكوب (Procope) هذا الإنجاز في أثره ... (De Aldificiis) من عمل الألوهية" ولنقف قليلا أمام هذا المنظر؛ إن القبة الكبيرة التي يبلغ قطرها واحدا وثلاثين مترا، تشرف من علوخمسين مترا على الأرض؛ وهي قائمة على أربعة أقواس مدعومة بنصفي قبّتين تستندان على ثلاث كوات نصف دائرية. أما الزخرفة الداخلية الرائعة بفسيفساءاتها وذهبها وحريرها وزرابيها وطلاءاتها الخزفية الساطعة بأنوارها فهي

مما يبهر ويفتن الأنظار. إن جدران الكنيسة جدران عالية لا شيء يميزها في خارجها ولكنّها رائعة فخمة الزخرفة في الداخل، إنها صورة تذكر بالروح. إن الفن البيزنطي فن يمهد للتعبد الإسلامي لأنه فن عربي ولأنه يعرف أن الأرواح الغنية الكبيرة أرواح صحراوية محفوفة بالفراغ ولا تشعر إلا بوجود العلي الكبير. هذا وليس من العسير علينا أن نكتشف في المعمارة البابلية والمصرية النيلية وفي خرائب مأرب باليمن، وفي ستزفون، وفي هيكل البنتيون (Panthéon) بروما أيضا وبيع دمشق فكرة القبة في أصلها رمز القبة السماوية، وتقنيات رفعها على عقد كامل (Plein cintre) وعقود زاوية (Trompes). وقد بالغ السوريون في إحكام القبة وظهرت لأول مرة في أوربا بقياس كبير مع برونيلتشي (Brunelleschi) في فلورنس (Florence). وأسمى شكل للقبة هوالشكل الذي يقوم على رواق ذي ثمانية زوايا (مربع اقتطعت زواياه) بواسطة عقود، أي أجزاء قبة خارجة وهذه أقصى تقنية يمكن أن تستوحى من الهندسة السماوية. وأروع تمثيل لذلك هوقبّة الصخرة، المدعوة بمسجد عمر الذي بناه الخليفة الأموي عبد الملك سنة 691، في القدس، حول صخرة التضحية المنسوبة لإبراهيم. ولكن نموذج المعبد الإسلامي هومبنى بيزنطي أعني الكتدرائية الغسآنية في بصرى. إنّ الفن واحد انطلاقا من أجران (مخازن) رمسيوم (Ramesséum) التي ترجع إلى الأسرة الفرعونية التاسعة عشرة، إلى القوس الساساني بستزفون، ومرورًا بأسلوب الحصون البيزنطية، وآية صوفيا، ومنازل قرطاجنة وختاما إلى القصور العربية في غرناطة وطليطلة، وجامع القيروان وإلى قصور النرمان (Normands) في بلرمو(Palerme) وكتدرائيات البندقية والبرغوني (Bourgogne). إن هذا الفن واحد والقبة رمزه الأسمى والرواق أبرز مظهره. وهذا الفن نموذجه عربي

صرف وآية صوفيا تمثل صورة وافية منه. وقد أشاعت صقلية هذا الفن في مقاطعة تسكان (Toscane) بينما أشاعته رافين (Ravenne) والبندقية في شمال إيطاليا (لومبرديا وبيمون) أما الصليبيّون فقد نقلوه مباشرة إلى فرنسا، وإلى باقي بلدان أوربا. ونقل هذا الفن إلة ميدان الرسم (بالألوان) فأنتج الآثار الكبرى التي رسمها أوائل سيان (Sienne) وجيوتو(Giotto) وبييرودولا فرنسسكا (Pierro de la Francesca) التي يذوب فيها اللون في أحجام متينة التخطيط، محفوفة بالسكون والهدوء؛ والتي تمتد فيها ساحات هادئة من السماء عن وجوه لا يظهر عليها أي تعبير سيكولوجي، وعلى أجسام مجردة من كل قبح ظاهر. وفي لوحة لبييرودولا فرنسسكا (P. De La Francesca) نوع من الصفاء الدائم يذكر بخلفيّة شفافة، وتجعله شبيها بالرسوم الجدارية الملحمية المعروفة في رافين (Ravenne) الّتي وتضع فيها الهالات على الأشخاص لونًا من الخلود، بينما تستكشف أنظارها (الخالية من الإنسان) عالم الغيب، إنّ آية صوفيا والفن البيزنطي لهما أصل بعيد؛ وهما ثمرة جهود وتأملات استمرت آلاف السنين، نقلت ميراثها مصر وآسيا. فلا يوجد فن إسلامي أوفن مسيحي، كما لا يوجد فنّ يهودي نسطوري، إصلاحي أرتوذكسي أومخالف لكل ذلك، ومن الممكن أن تكون آية صوفيا وسان مارك بالبندقية، وسان بيير بروما، مساجد أوبيعًا على السّواء. وليست أبراج بيزا (Pise) أوترسيلو(Torcello) إلا صوامع. فما هوالفرق بينهما؟ كل هذه الآثار والمباني تنتمي إلى أسلوب واحد، ولها هدف واحد. إنها عربية وغايتها هي أن تسمو بالإنسان عن نفسه، إننا لا نريد أن نقول شيئا آخر إلاّ أنّ الإسلام لم يغير شيئا من الإطمئنان الباطني في بلاد المشرق التي احتلها مع احترامها وألهمها إيمانا وقوة جديدين. ولنتماسك حتى لا نتيه في غمرة الأساطير

العقلانية التي تجزّئ الفكر الإنساني إلى مالا نهاية له، وتضع الحدود حيث لم توجد حدود قط. ولنقل مرة أخرى: إنّ تاريخ الفن ليس هوتاريخ الحروب الدينية؛ وهولا علاقة له أيضا لا بسلاسل الأخبار ولا بالعلوم التطبيقية. وليس من الصواب أن نقول، إن بداية فن المسجد كانت ظهرت مع الإسلام وأنّ الفن غير التصويري ظهر مع القرآن. إن هذا الإتجاه إنما هومن الميول الفطرية عند الإنسان وفي الأشياء؛ وإن الوئام في المجتمعات وشعورها بالتضامن عبر القرون هوالذي يخلق الفن ويبدعه. إن الإسلام لم يغير عقلية المشرق ولكنه خلافًا لذلك صانها وعززها، ولم يطرأ أي تحوّل على البنيات الفزيائية والفكرية عند العرب. وأوضح دليل على ذلك هوأنّ المعماريين والبنائين الذين شيّدوا قبة الصخرة، كانوا مسيحيين.

ومعنى ذلك أن العقيدة الجديدة تبنّت المعطيات الجمالية (الفنية) الأساسية الشائعة في العالم العربي وارتفعت بها إلى أسمى ما تتيحه هويتها. لقد بقي الميراث المشترك الدائم من الحضارة الآرامية التي تمتد من النيل إلى الأندوس هوهوفي عهد إزيس وبقي كذلك في عهد المسيح أومحمد (عليهما السلام). وقد تجاهل تعليمنا الجامعي خلال القرون الوسطى هذه الحقيقة وعمد إلى إجراء تصنيفات مصطنعة تسبّبت في كثير من الشر ولم تسفر عن الخير. فلوكان لنا بعض التواضع في مطامحنا العلمية لانتهينا إلى فهم أقل تعصبا للفن الرّومان (Roman) أوالغوطي (Ghots) لكن نظرا إلى أن الإيمان أوالعقيدة التي تشيع في الكنيسة هي على ما يبدوغير العقيدة التي تأوي إلى مسجد، قررنا أن معماريتهما مختلفتان؛ والحال أنهما غير مختلفتين؛ ولا بد من قبول ذلك والإعتراف بأن الفنّان العربي هوالذي أوحى بشكل كنائسنا كما أوحى بشكل البيع والمساجد والمعابد الأورفية أوالزرادشتية إن الفن ليس له وطن ديني لأن

الدين ليس وطنا وليس حزبا سياسيا. ولهذا لا يوجد على ما نعلم فنّ ماركسي أوفنّ فاشي (Fasciste) ومن العسير أن نؤيد غير ذلك، إلا إذا كنا نؤمن بالتناقضات. فالنظر السليم يحمل وحده على رفض فكرة الفنّ الإسلامي، والتمسك بالحقيقة التاريخية الواحدة التي لا تعرف إلا الفن العربي. إنّ المشرق (العربي) يحمل في طياته الإسلام، كما أن البحر تخرج منه الأمواج؛ إن ملايين الذرات التي تستثير هذه الأمواج تصعد من الأعماق التي امتزجت فيها جميع المياه. وآية صوفيا الكنيسة المسجد، هي غاية ما كان يصبوإليه المشرق. وهي للغرب (أوربا) إشراق نور. ولم يزل يسري من ضفاف الفرات ودجلة إلى ضفاف الأرنو(Arno) والسّين (Seine) تيار فنيّ واحد.

استكمالا لمعرفتنا لآثار بيزنطة في مجال الفنون الجميلة، يجب أن نشير إلى ورشات الذهب والحرير، وإلى صناعات الخزف والجلد والزجاج والصياغة للحلي، والمعادن المنقوشة والتوابل؛ ويقتضي ذلك إعادة ذكر القوائم التي سبق أن أشرنا إليها بصدد الأمبرطوريتين البابلية والسلوقية أوالإخبار بالتي كانت بعد ذلك من أمجاد الإسلام والخلفاء. ويكفي للإقرار بسمعة بيزنطة أن نقول إن النقود التي كانت تضرب في ورشاتها، كانت في القرن السادس، تسعى للحصول عليها جميع العواصم المالية في العالم.

لقد انتهت الأسرة الملكية الجوستينية في ظروف حروب فتاكة على الدّانوب وعلى الفرات، مشفوعة بغزوات وثورات من الجيش، أيدها الصقالبة أوحرض عليها الفرس. وأدت إحدى هذه الثورات إلى إبادة أسرة الأمبرطور ورفعت إلى سدة الحكم هرقليوس (Héraclius) حاكم قرطاجنة، وهوجندي كبير القامة أشقر مصاب بالأعصاب. وقد بقي في الحكم

من سنة 610 إلى سنة 641 وشهد انهيار أمبرطورية كوستنتان قسطنطين وجوستنيان، عندما تولى العرش كان محمد (عليه الصلاة والسلام) يعيش مع أسرته بمكة في مطلع رسالته، بينما واجهت الأمبرطورية أزمتين خطيرتين : الحرب القاسية ضد الفرس، والنزاع الهدام بين رجال الدين. كانت جيوش هرقليوس وكسرى في هجومات وقهقرات متوالية، تجتاح البلاد ويحاول كل منها القضاء على الأخرى.

وقد استولى الفرس على أرمينيا ودمشق والقدس ومصر بتواطؤ الشعب الثائر ضد مساندة الأمبرطور للبابا. وتوغّل الأمبرطور من جهته في بلاد الساسانيين برفقة البطريق سرجيوس (Sergius)؛ نفذ إليها من البحر الأسود وانتهى إلى أسوار ستزفون بعد اجتياح الأرياف وتخريب عدة مدن. ولم يرع ذلك جيش الساسانيين الذي قام بعملية جزئية، وسارع إلى حصار القسطنطينية سنة 626. وقد جرت معارك ذات وحشية لا نظير لها عند الأسوار، في الخليج وفي الأهواز وحتى في الأحياء الراقية من العاصمة. كانت العامة والدهماء مناصرة للغزاة، ولم تنج العاصمة إلا بمعجزة وجهود من البطريق سرجيوس؛ وقد جال الناس بتمثال لمريم العذراء على أسوار المدينة، أثناء طوافات وأدعية، ونشأت عن ذلك ملحمة أسطورية؛ ملحمة والدة الإله الحامية والمنجية. وقد ألّف سرجيوس نشيدا للإشادة بها، تنوقل قرنا بعد قرن، وصار من الشعائر الأرثوذكسية العصرية.

ومعنى ذلك أن القسطنطينيةعرفت الهلاك وجهًا لوجه. وكان الساسانيون هم أيضا على شفا الهوّة، فأبرموا معاهدة مع هرقليوس وردّوا له الجزء الذي كانوا استولوا عليه من الصليب المقدس منذ نهبت القدس. وعندما دخل الأمبرطور مدينته، حظي باستقبال كبير سجّل المؤرخون الأخباريون عنه

صورة رائعة. وفي السنة نفسها وقع حدث أقل صدى ولكنه عظيم العواقب؛ كان المصريّون يتتبعونه بكل انتباه، وهوفتح محمد عليه الصلاة والسلام لمكة. يقال إنه ولد بمكة سنة 580 من أسرة أرسطوقراطية مكية. كانت عقيدته (الإسلام) عظيمة في لغة الملائكة وليس لنا أن نقول شيئا لأن الدراسة لا يمكن أن تفسر شيئا في هذا المجال، وهي تقتصر على تسجيل الأحداث، ذلك أن ظهور ديانة يرجع إلى أسباب عميقة لا تصل إليها الدراسة. إن الوحي الذي نزل على محمد في أطراف الصحراء أجبره على الدعوة إلى الله، والتبليغ إلى مواطنيه.

إن المناقشات المحتدمة التي مزقت الضمائر منذ ثلاثة قرون بخصوص طبيعة المسيح ووحدانية الله، لم تكن محصورة في آسيا الصغرى وفي مصر، كانت موضوع الحديث في كل مكان في مكة وفي البتراء (Petra) واليمن، وبحماس كبير، ولا سيما أنّ المناقشات الدينية كانت مدعومة بالإستنكارات السياسية من شعوب المشرق العربي ضد الغرب الجرماني. وكانت الدعوة إلى الإسلام مما أثار معارضة (كفرة) القريشيين وسخطهم فأقدموا على اغتيال محمد. وقد غادر محمد ﷺ مكة سنة 622 ونجا من المؤامرة وهاجر إلى يثرب التي سميت بعد ذلك مدينة الرسول أوالمدينة لا غير. وصادفت هذه الهجرة حملة انتصار هرقليوس على الفرس وكسرى. وقد ادعى البعض أن محمدا ﷺ تلميذ لليهود أوللنسطوريين ولكن هؤلاء يجهلون أن اليهود والنسطوريين هم أنفسهم كانوا جد متأثرين بالتيارات التدينية المشرقية المعقدة، وأنهم لم يكونوا إلا عناصر من بين العناصر العديدة.

سـلام الإسـلام

﴿إنا كنّا من قبله مسلمين﴾ (قرآن : سورة 28 آية 53)

(لقد كنت قبل أن يكون إبراهيم) (إنجيل يوحنا 8-58)

لم تكن مبادئ محمد ﷺ الأساسية راجعة إلى تعليم راهب ما أوتلقين ربي. إنه ﷺ اكتشف طريقه في خضم الدعوات الصوفية المزدحمة، رددتها أصوات وأصداء عديدة وترجيعات عشرات القرون. إنها طريق فريدة؛ طريق ربانية وطريق ميسّرة. كان محمد عليه الصلاة والسلام كسائر أفراد الأمبرطورية مشغول البال بقضية وحدانية الله ووحدانية الأمة. وكان اللاهوتيون في روما والإسكندرية وأنطاكية والقسطنطينية قد ناقشوا هذه المسألة مستظهرين بالحجج، مستنتجين ومحللين للآراء. أما محمد ﷺ فقد رفض أن يسلك طريقتهم، واعتمد على إيمانه البسيط الحاسم، وتجاوز آفاق النزاع. إنه ارتقى بانطلاقة واحدة إلى الحقيقة الشاملة، وأعلن أن الله واحد أحد. وقد حدد بذلك موقفه من النزاع الطويل القائم بين الكنائس العربية وأصحاب المذاهب في روما وبيزنطة. وهوموقف حظي بتأييد المسيحيين من فئات الشعب، الذين كانوا منذ زمن بعيد لا يفرقون بين تعليم القرآن وبين صورة من مفهوم المسيحية، وبمثل هذا الموقف، أراد محمد من غير شك أن يضع حدا للمناقشات البيزنطية التي أعيت أريوس وأتناز، (Athanase) ونسطور، وسيريل (Cyrille) وتيودورة (Théodora)

وسان ساباس .(St Sabas) كان محمد ﷺ إبن عصره ورجلا من مجتمعه فعالج مشاكل مجتمعه وعصره. كان رجل حزم وعمل فدعا إلى حل حاسم للأزمة الدينية بتعليم اتجه إلى جميع سكان الأمبرطورية الذين زعزعتهم شكوك اللاهوتيين. وجّه محمد خطابه لجميع الناس فأصغى إليه جميع الناس، ولا سيما الأساقفة ورجال الكنيسة الذين شاركوا في المجامع الكنسية المختلفة. وقد اعتبره الكثيرون منهم شبه مسيحي ونصراني. على أن المفسرين التقليديين تصوروا العالم العربي تصورا أجنبيا عن بيئته، بالإضافة إلى جهلهم بالتاريخ جهلا منكرا، فحاولوا مع الأسف أن يجعلوا من محمد رجلا متأثرا بالأحلام، وأن يفهموا رسالته على أنها من الحكمة الصوفية اللائقة بأهل الأرياف. مثل هذا التفسير محض هوى ينكره الواقع ويسفهه وقد لاقت دعوة محمد ﷺ صدى كبيرا في المحافل والكنائس وفي أوساط المفكرين والعارفين، وفي الوزارات والمصالح الأمبرطورية، كما كان لها مثل هذا الصدى في الأرياف. أيدت نخبة من كبار رجال الفكر هذه الدعوة بكل حماس لأنها كانت تنطوي على فكرة غيبية، (ميتافيزقية) ذات قيمة سامية. والدليل على ذلك هوأنّ جميع المدن في المشرق بادرت بسرعة إلى اعتناق هذه العقيدة، باعتبارها عقيدة معروفة عادية تحتوي في حصيلة بسيطة، على المبادئ الدينية الأساسية من الثقافة المشرقية. فكيف يمكن أن نقبل أنّ الإسلام إستطاع أن يغزوبالحرب وبجماعة قليلة من الفرسان متسعا من البلاد، يمتدّ من الأندوس إلى القارون (Garonne)؟ وهل من المعقول ومن الجد أن نقبل أن العواصم الكبرى التي زعزعت الغوط (Goths) والهون (Huns) والفرس والسكيتيين (Scythes) خضعت بمجرد سماعها لصهيل فرس من الحجاز؟ مثل هذا لا

يمكن أن نقنع به أي شخص، ولا بد من تصحيح الحقيقة. إنّ تلامذتنا وطلبتنا في حاجة إلى دروس غير الأقاصيص المزيفة المحبوكة. عندما رجع محمد ﷺ إلى مكة، سنة 629م كانت سمعته ودعوته قد انتهت قبل إلى المراكز الحيوية في الأمبرطورية. وقد سبق للرسول أن أوفد سفراء إلى كسرى وإلى هرقليوس وملك الحبشة وبطريرق الإسكندرية. وكان إستقبال السفير في الإسكندرية أكثر ترحيبا وأبعد أثرا. ذلك لأنّ مصر هي التي ستوفر الوسائل اللازمة، والتأييد السياسي ليتم له النجاح، لأسباب مفهومة تعود بنا إلى استراتيجية نعرفها جيدًا، إذ أنّ مصر كانت الدليل المرشد تحتومس (Thoutmès) ولدارا ثم دليل البطالسة والسلوقيين. إن اعتبار الإسلام مغامرة مرتجلة حدثت فجأة، واعتبار محمد ﷺ مخلوقا ضل في عالم ليس هوعالمه، وإخراج شخصيته ورسالته من تاريخ المشرق الشامل الحافل، معناه اعتبار تاريخ الناس الصريح قصة من قصص الحوريات. وعلى خلاف ذلك إنّ قوة دعوته ونجاحها تجعله في مركز الإهتمامات التي عني بها مجتمع القرن السابع إلى درجة الإحتيار في غالب الأحيان، إنه كان الشخصية السائدة في هذا القرن؛ وإذا نجح فمعنى ذلك أنه كان منتظرا. وقد تظافرت إلى تلقائية ما نزل عليه من الوحي ما كان يترجاه الشعب الآرامي من التحصين ضد العدوان والسيطرة أوالعدوى. فانتصار الإسلام هوعلى هذا تجاوب محتوم بين دعوة ورجاء.

كانت مصر في ذلك العهد الدولة الوحيدة السليمة في المشرق، وفي الوقت نفسه وطن المقاومة الآرامية ضد إرادة السيطرة البيزنطية الرومانية. ومن الصحيح أن القسطنطينية تخلّت إلى حدّ بعيد عن روما. وتمشرقت بصورة ظاهرة أيضا. ولكن مصالحها الكبيرة التي كانت لا تزال تحافظ

عليها في الغرب تفرض عليها التفاهم مع روما، وخاصة فيما يتعلق بالدفاع عن عقيدة التثليث. وقد اصطدمت القسطنطينية بشدة بمصر، فأقصتها عن تسيير الأمور، وفي الوقت نفسه وجهت عن عمد إقتصادها إلى التعامل مع الشمال ومع الشرق الأقصى. وهنا كان الساسانيون هم الذين واجهوها. وقد خرج البيزنطيون والساسانيون من حروبهم المتفانية مهزومين مضعضعين. وبالإضافة إلى ذلك حدثت منذ بداية القرن السابع تقلبات سياسية نالت الإستقرار في الصين وفي الهند، وألحقت ضررا خطيرا بالتجارة الساسانية والبيزنطية. عرفت الصين ابتداء من سنة 605م ثورة عامة مدعومة بتدخلات عسكرية من أسرة اليانغ (Yang) في فارس والهند والهند الصينية وكوريا. وقد انتهت هذه التدخلات مهزومة مدحورة وغزا الأتراك من جهتهم المقاطعات الصينية، فكان ردّ الفعل على ذلك قيام الأسرة الحربية اليانغ (Yang) التي تمكنت من صد هجوماتهم، واضطرت الهند فيما يخصها إلى الوقوف في وجه هؤلاء الأتراك توكيني .(Ton Kiné) وقد تخلّصت الأسرة فردانا (Vardana) صاحبة البنجاب من الغزاة الأتراك فعزرت البوذية وأغلقت الحدود في وجه الساسانيين حلفاء الأتراك. وتضعضعت أسرة فاردانا (Vardana) بعد ذلك فعمت الفوضى في جنوب غرب آسيا ولكن ذلك لم ينفع الساسانيين ودولتهم. فليس من اليسير أن نفهم الأنهيار الدبلوماسي السريع الذي أصاب بيزنطة وستزفون وبالتالي انتصار محمد والخلفاء، إن لم نستعرض ما كان من الإضطرابات في تاريخ آسيا الوسطى في القرن السابع.

أما مصر، فهي لم تشارك في حروب الفرات والبحر الأسود وبحر قزوين؛ وبينما اختلّت العلاقات التجارية عن طريق إيران والخليج الفارسي، استمرت

العلاقات التي تمر بالبحر الأحمر في ازدهار نسبي، يعين الإقتصاد المصري والمدن التجارية الواقعة على طريق عدن إلى البتراء .(Petra) إن الإسكندرية التي أغلقت معابدها بأمر من القسطنطينية، وتداعت جامعتها وكبتت مطامحها الدينية بتواطؤ روما والقسطنطينية، ارتأت أنّ ساعة الإنتقام قد حانت، كانت تشعر بالإستنكار على هرقليوس، كما كان البطالسة مستنكرين للسلوقيين. إن مصر التي كادت تفوز بالباباوية، والتي كان لها ضحايا من أجل العقيدة، وكان لها بطارقة كبار؛ مصر التي أسّست في سيناء طوائف الرهبان العديدة والتي لم تنس أنّ امبرطورية القياصرة إنما ازدهرت في ظل البطالسة وبفضل إعاناتهم، أيدت بفطرتها دعوة محمد ﷺ. وقد حفته بسمعتها وجعلت تحت تصرفه مقدراتها الإقتصادية والثقافية وجنّدت قبل ذلك حول اسمه أنصار الكنائس المونوفيزكية والنسطورية "الوطنية" العربية. التي عاملتها القسطنطينية بقساوة أوأساءت إليها. وما أكثر هؤلاء الأنصار! لقد حدث انقلاب شعبي حقيقي هوالذي نعرفه ولم يتحقق قط بتقنيات المواجهات الحربية. قادت مصر هذا الإنقلاب وكانت مشاريعها التجارية ومصارفها فروعًا تمثلها بمكة، أوشركات مع المكيين. إذا كان انتصار وسندها دين محمد راجعًا إلى تأييد من الله، فإن الإنتصار سندها الدنياوي يرجع إلى تدخل مصر وسنادها. هذا ومن المصادفات ذات المغزى البعيد أن دعوة محمد ﷺ كانت معاصرة لمذهب المونوتلزم[1] ومناورة قام بها البطريرق البيزنطي سرجيوس وهونوريوس أسقف روما. وقد انتشرت محاولتهما ما بين سنة 616م و641م في وقت الدعوة المحمدية تقريبا، من سنة 620م إلى 632م، سنة وفاته، وذلك أن سرجيوس ارتأى لحرمان مصر من السيادة التي تمارسها على الشعب بواسطة

---

1 – المونوتلزم (Monothélisme)مذهب في العقيدة المسيحية أنكره مجمع القسطنطينية الثالث سنة 681.

مذهب "المونوفزم" (Monophysisme) أن يتساهل إلى حد بعيد مع التقاليد الشعبية "المونوفيزقية" بتأييد مبدأ "الإرادة الواحدة" وتصحيح عقيدة التثليث (الله المتمثل في ثلاثة أشخاص). كان ذلك ابتداء من سنة 616؛ فوافقت كنيسة أرمينيا ثم كنيسة أنطاكية، وتبعتهما روما، وسعيا لحمل رجال الكنيسة في الإسكندرية على الإنضمام بدورهم إلى هذه الفكرة، نصّبت القسطنطينية بطريرقا جديدا، هوسيروس (Cyrus) الذي حقق أهدافها بمهارته، وفي سنة 638 انعقد مجمع بالقسطنطينية وصادق على النص الذي حرره سرجيوس بخصوص "الإرادة الواحدة" وعنوانه "اكتزيس" (Ecthésis). وقع إجماع صوري محض حول هذا النص مشفوع بتحفظات لم تقبل الإستسلام. وقد رفض بطريرق القدس وفلسطين الراهب سوفرنيوس (Sophronios) أن يمضي النص وعارضه بكل عنف. أما "المونوفيزقيون" المصريّون الذين اغتروا حينا، فقد رأوا أن تساهلات سرجيوس غير كافية وطالبوا بابطال قرارات مجمع شلسدوان (Chalcédoine) وكان من ردّ فعل سيروس أن اتخذ تدابير بوليسية صارمة وتجاوزها إلى الإضطهاد، وبالإضافة إلى ذلك عندما توفي البابا هونوريوس رفض خلفه سفران (Sévérin) نص "الأكتزيس" .(Ecthésis) أما جان الرابع (Jean IV) فقد عقد مجمع "سينود" (Synode) واستنكر "الأكتزيس" كل الإستنكار. وستبقى الأزمة حادة الصبغة حتى سنة 645م تقريبا. وهي المدة التي استغلها الإسلام بالضبط ليفوز بتأييد المشرق. ففي سنة 630م دخل محمد ﷺ مكة مرة ثانية فاتحا منتصرا لا منازع له، معلنا عقيدة وحدانية الله في الكعبة، وفي سنة 635م سلّم أسقف دمشق مفاتيح المدينة إلى الخليفة عمر؛ وفي سنة 636م وقعت معركة اليرموك التي ثارت أثناءها الجيوش السّورية على القائد البيزنطي

تيودور الساسلير .(Th. Le Sacellaire) وقد قتلته، وطالبت بخلع الأمبرطور وانظمت إلى جيش عمر، وفي سنة 638م استقبل أسقف القدس سوفرونيوس (Sophronios) الخليفة عمر كحليف وصديق، وفعلت أنطاكية مثل ذلك؛ وفي سنة 640 اصطلحت كنيسة أرمينيا مع الإسلام وتبعتها في ذلك مقاطعة الموصل. أما في ختام سنة 641م فإن سيروس (Cyrus) بطريرق الإسكندرية قبل القائد عمروبن العاص تقبيل المسالم، وفتح له طريق ليبيا، وصارت سلطة الخليفة عثمان بن عفان تمتد في سنة 647م إلى أطراف قرطاجنة (بأفريقيا). ولم يكن تقدم الإسلام في اتجاه نهر الأندوس أقل بهرا، إذ أن معركة واحدةكانت كافية لإحباط دولة الساسانيّين. وقد هزم كسرى في القادسية وهي قرية واقعة على بعد ثلاثين كيلومترا من الكوفة بالعراق ففرّ وقتل سنة 651م في جبال خراسان. لكن يجب أن نعرف من كان المنتصرون على الفرس في القادسية. أكانوا من جيش المسلمين القليلين؟ لا ولا. إن الفرس واجهوا في المعركة جيشا كان يضم السوريين المسيحيين والغساسنة، المسيحيين هم أيضا، وجنودا بيزنطيين متمردين وكواكب من فرسان القبائل؛ كان بعض هؤلاء حاضرين قبل العملية قداس المسيحيين بينما قام آخرون بصلاة المسلمين، وكلهم في معسكر واحد (تحت راية الإسلام)، ونضيف إلى ذلك أن سكان العراق (ما بين النهرين) وإيران استقبلوا جيرانهم الفاتحين الجنوبيين والغربيين، استقبالا أخويا واعتبروا "غزوهم" فتحا مسالما.

فمن كان المهزوم في القادسية غير أسرة الساسانيين؟ كان الشعب ينظم الأفراح في كل مكان احتفالا بالتحرير وكان المبعوثون يوفدون من الإسكندرية وأنطاكية والقدس ومكة إلى كل مكان، لنقل الخبر السار وتبليغ

الدّعاية. وبذلك انتصر التضامن الآرامي على العدوالبيزنطي الذي تقطعت أنفاسه. وكذلك انتصر تضامن أنصار "البدعة" في أفريقيا التي كانت كاسبانيا آهلة بالأريانيين (أريوس) وأنصار مونتنوس (Montanus) وبالمونوفيزقيين المتمردين على الأمبرطورية. وبالإضافة إلى ذلك تدهورت الأحوال الإقتصادية البيزنطية فتفرق عنها من كانوا حلفاءها بالأمس. كانت سلطة الدولة الجديدة التي قامت في العراق (ما بين النهرين) وعلى ضفاف النيل (مصر) أكثر اجتذابا لهم لأنها تولت العلاقات مع الشرق الأقصى وأبرمت مع الصّين والهند إتفاقات لم يتمكن الساسانيون من تجديدها. وكانت كابل في سنة 662م مندرجة في الأمبرطورية النيلية البابلية من جديد (أي الأمبرطورية الإسلامية). ولم يكن الإسلام في حاجة إلى نقل جحافل من الجيوش "العربية" لهذا الإنتصار. إن أساتذة التاريخ عندنا (أي الغرب) سلكوا أقصى مذاهب الخيال فحدّثونا عن كواكب الفرسان الإلهيّة التي انتشرت في البلاد من الأندوس إلى القارون (Garonne) مجتازة سلاسل الحصون بمهارة الساحرين. على أنه إذا استسلمت قرطاجنة سنة 698م، وإذا آلت اسبانيا القوية الغنية الأهلة بالفزيغوت (Wisigoths) في مدة سبع سنوات إلى دولة الخلفاء، وإذا انقلبت بلاد الغال النّربونية (Gaule Narbonnaise) سنة 720م، "عريبة"، وإذا طلب السند والبنجاب في سنة 711م حماية الدولة الأموية، فذلك لأن جميع هؤلاء الناس سارعوا إلى هذا المنبع الجديد "للمن" والرغد، الذي توفر في الأمبرطورية النيلية البابلية التي شكّلت من جديد، تحت لواء "الرب الواحد الأحد" أي الإسلام والمسيحيين "المبتدعين". ومن ذلك الحين، نشأت سياسة موازية بشدة لخط الإستواء توجّه من بحر الصين إلى البرتغال، ومن البرتغال إلى الصين، مواكب منتظمة من المنتجات الطبيعية والمصنوعات.

واستعادت الإسكندرية ودمشق دورهما التقليدي كبنوك للعالم، ريثما تشيد بغداد العاصمة ذات السيادة الكبرى. وسيحاول الخلفاء القضاء بصفة نهائية على الأمبرطورية (البيزنطية) فنظموا حصار القسطنطينية سنة بعد سنة (ما بين 673 و677). وفي سنة 639م غزا الخليفة الأموي هشام آسيا الصغرى وانتهى إلى البوسفور ولكنه انهزم في معركة أكروينيون (Akroinion) للمدد الذي قدم من أوربا، للقسطنطينية. ومن هذا التاريخ يعيش البيزنطيون والخلفاء في تفاهم وفي ظل وحدة ثقافية حتى يكون انتصار الأتراك العثمانيين. إذا كانت أمبرطورية الخلفاء تمتد في القرنين السابع والثامن من جبال البيرني (Pyrénés) إلى الهند، وتشمل إلى حدّ ما مقاطعة الأكيتان (Aquitaine) بفرنسا وإسبانيا وصقلية وإيطاليا الجنوبية والبلقان، فليس ذلك لأن "العرب" فتحوا هذه البلدان بالقوة كما يقال. بل لأن هذه الجهات كانت دائما تابعة للمنطقة الإقتصادية والثقافية المندرجة في الأمبرطوريات الآرامية القديمة. فالآراميّون الذين سمّوا بعد ذلك بالعرب، كانوا يشعرون بأنهم في بلاد هي بلادهم، سواء كانت هذه البلدان تحت حكم الفراعنة أوالبطالسة أودارا أوبيزنطة أوالخلفاء. وسكان هذه البلدان لم يطرأ خلال القرون تغيير لا على لغتهم ولا على حضارتهم، كانوا عربا وبقوا عربا بدون انقطاع ولا إنحراف. ومن ذلك أننا نعرف أن أخت أسقف القدس تزوّجت بالسلطان الفاطمي العزيز في القرن الحادي عشر م. فالأحتلالات الأجنبية لم تنل قط من الأوضاع الأساسية. ونعرف بما رواه القديس أغسطين (St Augustin) بأن اللغة الآرامية كانت في عهده جارية الإستعمال في شمال أفريقيا؛ وكذلك كانت مستعملة في أسبانيا، فإذا كانت اللغة الإيبرية (Ibérique) لا تزال غنية بالألفاظ العربية، فلا يرجع

ذلك إلى بعض الأشباح من فرسان طارق بن زياد؛ إن هؤلاء الفرسان وجدوا عند نزولهم بالبر الإسباني، في الضفة العليا من مجاز هرقل (Hercule)، سكانا يتحدثون لغة كلغتهم تقريبا، كسكّان مورتنيا، ونوميديا والقرطجنيين والليبيين. كان القديس أغسطين هونفسه يتحدث بالآرامية لغته الأصلية وأخبرنا بأن الفلاحين من دائرة ولايته هبون (عنابة اليوم) سئلوا عن أصلهم فأجابوا بأنهم من فلسطين، ومن الكنعانيين[1]. فلم يكن هناك لا فتح وغزوولا احتلال عربي. والحقيقة هي أن شعوب البحر المتوسط المشرقية والجنوبية (الإفريقية) استعادت باسم العرب سيادتها السياسية التي مارستها أسر "ملكية" أجنبية في بلدانها منذ عهد الإسكندر إلى القرن السابع. ألم تكن مخطوطات القرونُ الوسطى الأولى تسمّى باسم العرب (أوالسّرزان) (Sarrazins) سكان البحر المتوسط غير الجرمانيين، المتدينين بدين غير دين روما إنّ ما يسمى "بنشيد رولان" (Chanson de Roland) قد وصف لنا معركة برونسفو(Roncevaux) ضد "السرزان" والحال أن هؤلاء السرزان كانوا من الباسك .(Basques) ومن الواجب أن نعرف بلا استغراب أن المسيحيين بأفريقيا واسبانيا كانوا يسمون أنفسهم تمييزا لهم عن الكاثوليك الرومانيين، "بونيسي كرستياني" (Punici christiani) أي "المسيحيين الفلسطينيين". وكان يوجد في عهد شارلمان وحتى بعد عهده، "مسيحيون عرب"، و"مسيحيون رومان" وهذا مما يلقي ضوءا كبيرا على مجاهل التاريخ، ويدحض الأسس التي يقوم عليها تعليمنا المدرسي. فالرسول ﷺ والخلفاء بعده إنما أرجعوا المشرق إلى أصله وأرجعوه إلى

---

1 - نقلا عن جروم كركوبينو (J. Carcopino) صـ 403. من كتابه المشار إليه والجملة اللاتينية للقديس أغسطين هي :
"Interrogati rustici nostri quid sint respondent chanani"

عبادة الله الواحد الأحد، بصورة واضحة قاطعة إلى درجة أن جميع الأديان والمذاهب الإلهية المشرقية، تعترف بها وتنتظم في سلكها.

وابتعث محمد والخلفاء من جهة أخرى اللغة الآرامية إذ أن القرآن ارتقى بلغة الشعب النيلي البابلي القديم إلى أسمى كمال في مبانيها ومعانيها وقواعدها. وبالفعل إن اللغة العربية هي أول لغة منظمة من لغات بشرية البحر المتوسط قبل لغة هومير، وهي التي منحت لها قوانينها. ذلك أنها منذ دعوة الرسول ﷺ الذي ابتعثها لحياة عصرية، انتهضت من عهودها القديمة ونقلت أصداءها العجيبة، ففرضت نفسها على ملايين البشر. وباللغة العربية يمكن لنا نحن الأوربيين، أن نعيد قراءة كتبنا (الدينية) وتاريخنا. وسنرى الأشياء على أوضح ما يمكن. إن معرفة اللغة العربية سيعيننا، لا على تجاوز أفق أثينا وروما الضيق فقط، لكن على المساهمة الواسعة في مستقبل المجتمع الجديد الذي يخلص من ظروفنا الغامضة. إننا على يقين من ذلك. ويبدومن الضروري من جهة أخرى أن على العالم العربي لكي يكتشف الخط الذي يربطه "بالغرب" أن يعني بالثقافة اليونانية، لأنها الوسيط الوحيد بين المشرق والغرب (أوروبا). ففي اليوم الذي تقرر فيه الجامعات العربية ضرورة معرفة اليونانية ودراستها، وفي اليوم الذي تكتشف فيه أوربا كنوز اللغة العربية، إذاك يلتقي القوسان من القبة في تفاهم بحري متوسطي؛ ولن يكون تفاهمًا معماريا فقط.

هذا التفاهم التصالح، يبتعث من جديد وحدة الحضارة التي حطمت في القرن الثامن بسبب الفراق الذي وقع بين روما وبين المشرق. أن أساقفة روما اعتبروا أنفسهم أنهم وحدهم ورثة القياصرة، دون مراعاة لصبغة

هؤلاء الحقيقية، الذين كانوا أكثر مشرقية مما كانوا أورباويين. كان ذلك من الأساقفة باسم بطرس الحواري، ورغبة في إخضاع المشرق لطاعتهم. وقد صادفوا فشلا ذريعا لأنّهم استطاعوا بتعصّبهم وعنادهم أن يجمعوا في قوة وطنية واحدة، المسيحية المشرقية والإسلام واليهودية أعني الأديان العربية الثلاثة بلغتها وتعليمها. لم يعترف هؤلاء الأساقفة بهزيمتهم، وأقدموا على كفاح طويل بجميع الوسائل من عقيدة، وسياسة وحرب ليستعيدوا سيطرتهم. ولما كانوا في حاجة لتحقيق هذا الغرض، إلى سلطة زمنية، اختاروا أسرة شارلمان الجرمانية. لقد كانت سنة 754 سنة رئيسية في تاريخ أوربا، وبداية شؤم. وذلك أن بيبان لوبريف (Pepin le Bref) والبابا إتيان الثاني (Etienne II) اتفقا على تأسيس دولة باباوية تحت حماية الأسرة الكارولنجية؛ وبذلك أصبحت المدن البيزنطية بإيطاليا، تحت السيادة الرومانية الجرمانية؛ أما التي بقيت تحت سيادة القسطنطينية، فقد اعتبرت مدن أعداء. وبهذا القرار الإنفصامي، إنّ الكنيسة اللاتينية التي عسر عليها إنكار انتمائها الآرامي، قد أسلمت مصيرها إلى أيدي الشعوب الجرمانية. ومن ذلك العهد أقصيت اللغة العربية، واللغة اليونانية وأفسح المجال للاتينية. وقد جعل رجال الكنيسة الكاثوليك من مهمتهم الإشادة بدور الأمبرطورية الرومانية مهمشين تاريخ فلسطين، وبابل، ومصر، وسائر آسيا، وحاصرين نظرتنا في نطاق أوربا وحدها. وبذلك نشأت الأمبرطورية الرومانية الجرمانية المقدسة، التي كانت تأليفا غريبا لعبارات متناقضة، تمثل هي وحدها استفزازا وتحديا كانت المحالفة العقيدية بين ساسة أوربا وباباوية روما، تستدعي بسرعة محالفة إقتصادية وسياسية وعسكرية، ذات عواقب

نعرفها ونتصورها، وهي إقصاء كلّ ماهوعربي = (من اليهود وأهل البدع المسيحيين، والكثار (Cathares) والإسبان وأهل البروفونس (Provencaux) والصقليين الذين أطلق عليهم جميعا إسم السرزان (Sarrazins) دعما لما يدّعى) = وتنظيم الحروب الصليبية، ونهب بيزنطة، وتنظيم الحملات الإستعمارية وإرسال البعثات التبشيرية ومحاولة خلق شقاق بين المسيحيين المشرقيين أوتوحيدهم ضد الإسلام، وبذل الجهود لإقناع بعض الطوائف اليهودية بالتحالف مع روما الجرمانية وضد المشرق الآرامي، دون تقدير لما لمثل هذه المناورة من تناقض. وذكر كل هذه المحاولات، كاف لتفسير نوع العلاقات التي دفعت عالم المشرق منذ ألف ومائتي سنة إلى معاداة أوربا، التي قررت أن تنفصم عنه سنة 754. ومن وجهة النظر هذه، إن الغاية الحقيقية من الحملة الصهيونية في المشرق، مفهومة بكل يسر. فما هي إلا حرب صليبية جديدة، تستجيب لأهداف استراتيجية واستيلائية هيمنية شبيهة بأهداف غودفرا دوبويون (Godeffroy de Bouillon) أوالمحرضين للحرب الصليبية الرابعة، التي شهدت نهب الدولة المسيحية البيزنطية من قبل مسيحيين آخرين.

وقد استطاع المشرق فعلاً، أن يعزز تضامنه سنة بعد سنة وأن يقف في وجه أورويا. فالإسلام قد وحّد شعوبه ولم يشتتها، وأمكن له أن يحقق الوعود التي طمح إليها من قبل جوستنيان وهرقليوس. وصار القياصرة الإيزوريون[1] الذين حكموا في بيزنطة من سنة 717 إلى سنة 742، من المحاربين للرسوم والتماثيل، كمحمد ﷺ، وقطعوا العلاقات مع روما. وأعلن البطريرق فوتيوس (Photios) الأديب والعالم الممتاز في سنة 867،

1 - Dynastie des Isauriens

أنه مستقل عن مقر البابوية واستحدث بذلك المذهب المخالف الذي أثبتته أزمة 1054. وبناءً على ذلك، فإنّ الكاثوليكية الرومانية ودعّت المشرق، موطن ولادتها الروحية، وانزوت في الغرب؛ بينما اجتمع المشرق حول الإسلام ومسيحية البطارقة، ووقف في الصف الآخر وإلى جانبه العالم الروسي. وكان أمبرطور القسطنطينية من أول الملوك الذين هنأوا صلاح الدين في أكتوبر سنة 1187م على استرجاع القدس من الصليبيين. ومن الممكن أن يذكر الشيء الكثير عن الأسباب التي فرّقت بهذه الصورة العميقة بين العواصم المشرقية والعاصمة اللاتينية روما. وإذا كان من غير الصحيح، ومن التعصب أن يعزي خطأ الإنفصال إلى البابوية الغربية وحدها، فمن المؤسف أننا لا نملك الوثائق الضرورية لتحليل المسؤوليات بطريقة حاسمة. ولا نعرف العناصر الإقتصادية والسياسية التي تسبّبت في خفايا الزوايا، في النزاعات الدينية وزادت في حدتها وثفاقمها.

إنّ جهلنا في هذا الباب جهل مطلق تقريبا، إذ أنّ القرون قد أتلفت الشهادات الضئيلة والحجج الممكنة. وقد أسفت الكنيسة الرومانية عبر تاريخها الطويل، من نزاعها مع بلاد المشرق، وبقيت تشعر بالحنين إليها بالرغم من كل شيء. وليس من الأكيد قط، أنّ يكون من الأسباب التي دفعت الشعوب الإفرنجية إلى الحرب الصليبية الرغبة الخفية في استعادة الثقة مع الأرض المقدسة (القدس)، علاوة على الأهداف الإستراتيجية الواضحة. ذلك أن تفكير المسيحية قد زعزعت أسسه العميقة بقطيعة المشرق. إنّ الهلع المفاجئ الذي حدث في سنة ألف، يمكن تفسيره بهذا الحدث الخطير؛ وقد كان هذا الهلع مناسبة لمظاهرات خوف وهول عديدة، وانحرافات أخراوية، وارتياعات وهذيان استنوار تتخلله نداءات إلى القيامة، دامت ثلاثة قرون على الأقل، وسجّل عنها فنّ ذلك العصر صورًا مروعة.

وكأن ذلك جنون صريح، ولا تذكر أجيال الناس هلعا مثل ذلك الهلع، ولا هاوية كتلك الهاوية. وليست آثار جروح سان فرنسوا داسيز (d'Assise St François) إلاّ شاهدا داميا من بين شواهد أخرى، على ما عرفته روح القرون الوسطى من ألم عميق، بعد القطيعة مع المشرق.

وفي سنة 904، صار مقر البابوية ملكا خاصا لأسرة تسكانية (Toscane) التيوفلكت (Les Theophylacte)، أقامت بروما نظاما برنوكراتيا [1] (Pornocratique) حقيقيا، بزعامة تيودورة (Théodora) وابنتيها تيودورة الفتاة وماروزي (Marozie) كان ذلك ولما وقعت البابوية الغريبة تحت حماية أوطون الأول (Othon 1er) دوساكس، (De Saxe) الذي أسس في سنة 962 الأمبرطورية الرومانية الجرمانية المقدّسة، لم يكن لها أي سلطان روحي على الناس، وستسغرق لأبنعاثها ثلاثة قرون، أي المدة التي ساد فيها الهلع الكبير منذ سنة ألف. ويرجع هذا الأنبعاث إلى الحيوية العميقة التي كانت تنطوي عليها العقيدة والتي راحت تستمدها من منابعها العربية. وقد تاقت عصورنا الوسطى إلى التعزي من هذه القطيعة فعاشت متجهة الأنظار إلى المشرق، الذي اتسم في تصوّرها بصبغة أسطورية مزدوجة (مانوية). ولم تقبل شعوب المشرق من جهتها من يهود ومسيحيين ومسلمين وغيرهم، أن تتمسك باعتبار الأورباويين من البحر المتوسط أجانب عنها، إذ كانت تراهم إخوة بالتاريخ وبالثقافة، وإن ساءها وحيّرها موقف أوربا منها. ومن الحق أن الحروب والإهانات والنزاعات بين الحكومات، لم تتمكن قط من قطع هذه العلاقات الأخوية. فقد كان يهب باستمرار من المشرق، تيار منعش يبعث الحياة في الفنون المختلفة

1 - *Les conciles oecuméniques dans l'histoire* par J.M.A Salles-Dabadie Edition Paris 1963

والتأملات الفكرية بأرض الغرب (أوربا) لقد بقيتا "عربا" بإيماننا، كما بقينا (عربًا) بشكوكنا. ففي الأورفيو[1] (Orféo) لمنتفردي (Monteverdi) التي تسبح فيها ألوهية الشمس وفي الغابة الجهنمية التي يجوس فيها فهد دانت (Dante) كما أن في العلم المعاصر الذي تسود فيه الذرة ومنطق الإفتراضات، يصعد في خفوت وباستمرار همس منابعنا المشرقية، ويكفي أن نعير الأذن لنعي ذلك.

"أيها الملك إنني أنتظرك في بابلون" (بابل) هذا عنوان الأثار التي عرضت في السابق بباريس في متحف الفنون العصرية، والتي تظافر فيها قلم أندري مالرو(A. Malraux) والأحجام الهندسية من رسم سلفدور دالي (Salvador Dali) لتمثيل رموز تاريخ الشرق الأدنى (المشرق) في أربعة عشر نقشا. إنّ الصحاري مغطاة بالحلي والمصوغات، وبإمكان الوحي (الأنسام) الذي يسود بها في أبعاد سماوية، أن ينبّه الموتى. ومن الصحيح أنّ المشرق يقترح على ذكائنا الخاطئ الواهي، وعلى النظرات الميكانيكية التي نتقمصها، وعلى صوابنا المحتضر، يقترح الإنبعاث وصعوده العسير. نعم إنّ الحياة تنتظرنا في بابلون (بابل)".

باريس 19 فبراير 1975.

1 – الأرفيو (Orféo) أوبيرة موسيقية تمثل ماساة غنائية من تأليف مونتفردي الإيطالي (1607).

فهـرس الموضـوعـات

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية

وحدة الرغاية، الجزائر

2007

Achevé d'Imprimer sur les Presses
ENAG, Réghaïa
- Algerie -

Bp. 75 Z.I. Réghaïa Tél. : 021 84 80 10/84 86 11



أما العالم العربي الذي يمثل عالما حقيقيا،
فقد حصرناه في حدود آرات من
الصحراء الجدباء لا تزال تحوم بها بقايا من
الخرافات، و قد قللنا من قيمته و شوهناه
و كدنا نلغيه من الوجود و ندفنه دفنا،
ومع ذلك فهاهو يظهر للوجود و للحياة من
جديد، فقد آن الأوان لنتبين أن غربنا
إن كان يستهوينا بغناه و جماله، فإن ذلك
يرجع إلى الامبراطوريات العربية الكبرى
التى هيأت الأسباب لهذه السعادة، إننا نشيد
بزهرة الشقيقة التى قال فيها
عمر الخيام :
إنها تستمد حمرتها من دم ملك دفين.



ISBN : 978 - 9961 - 62 - 618 - 4